جمهورية السودان

التعليم الثانوي

التاريخ

الصف الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان

وزارة التربية والتعليم

المركز القومي للمناهج والبحث التربوي

بحت الرضا

التاريخ

الصف الثاني الثانوي

إعداد : لجنة بتكليف من المركز القومي للمناهج والبحث التربوي – من الأساتذة :

الأستاذ/ أحمد عبد الكريم أحمد	**–**	**المركز القومي للمناهج**
الأستاذ الدكتور/ عمر حاج الزاكي	**–**	**جامعة أم درمان الإسلامية**
الأستاذ الدكتور/ حسن محمد صالح	**–**	**جامعة الخرطوم**
الدكتور/ الفاتح الشيخ يوسف	**–**	**جامعة الجزيرة**
الدكتور/ علي عمر دفع الله	**–**	**جامعة الجزيرة**
الأستاذ/ عبد الرحيم إمام محمد	**–**	**وزارة التربية والتعليم**

الإخراج الفني والتصميم : الأستاذ/ إبراهيم الفاضل الطاهر

الجمع بالحاسوب : إبتهاج مصطفى علي

ISBN 978-99942-53-29-6 ردمك

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ
الباب الأول : الحكم التركي – المصري في السودان	١
مدخل	٢
أسباب غزو محمد علي للسودان	٣
حملات الغزو على السودان	٤
الإدارة في عهد محمد علي باشا	٩
حكام السودان في عهد محمد علي باشا	١٤
السودان في عهد عباس	١٧
السودان في عهد محمد سعيد	١٩
عهد الخديوي اسماعيل	٢٠
التعليم في العهد التركي – المصري	٢٨
مقاومة السودانيين للعهد التركي – المصري	٢٩
الباب الثاني : دولة المهدية	٣٥
عهد المهدي	٣٦
أسباب قيام ونجاح الثورة المهدية	٣٩
وقائع الثورة المهدية من أبا حتى تحرير الخرطوم	٤٢
الأسس والمرتكزات الفكرية للثورة المهدية	٥٩
نماذج من منشورات المهدي	٦٢
عهد الخليفة عبد الله	٦٥
نظام الحكم والإدارة في الدولة المهدية	٧٢

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث : تاريخ أوربا الحديث	٨٦
العصور الوسطى في أوربا	٨٧
النهضة الأوربية	٩٢
الكشوف الجغرافية	٩٥
الثورة الفرنسية	١٠٠
الثورة الصناعية في أوربا	١٢٤
الوحدة الإيطالية	١٢٨
الوحدة الألمانية	١٣٦
الباب الرابع : الصراع الأوربي حول التوسع الجغرافي والتجاري	١٤٦
الحرب العالمية الأولى	١٤٧
الحرب العالمية الثانية	١٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .
قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب ..... ﴾ الآية (١١١) سورة يوسف

الأخ المعلم الكريم ، الأخت المعلمة الكريمة
الابن الطالب النجيب ، الابنة الطالبة النجيبة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بين ايديكم مقرر التاريخ للصف الثاني ، وقد تمّ تأليفه في إطار خطة تطوير مناهج المرحلة الثانوية . والمقرر الذي يشمله هذا الكتاب يعتبر مواصلة لمقرر تاريخ الصف الأول . ويحتوي هذا الكتاب على جزأين من التاريخ الحديث للسودان ولأوربا .
ومن خلال هذا المقرر نأمل أن تتحقق الأهداف الآتية :

١. ترسيخ العقيدة الدينية وتعميق روح الوحدة الوطنية ، وتنمية الشعور بالولاء للوطن والتضحية والجهاد في سبيله ، والعمل من أجل رفعته ونهضته .
٢. أن يعرف الطالب قدراً من التاريخ الوطني والإنساني .
٣. أن يعرف الطالب جانباً من خصائص الشعب السوداني التي تعزز القيم الروحية والاجتماعية .
٤. أن يتدرب الطلاب على المهارات الخاصة باستخدام الصور والرسوم والخرائط وأن يتعودوا على الكتابة بطريقة مرتبة وبلغة صحيحة .
٥. أن ينمي الطلاب مهارتي حسن الاستماع ودقة الملاحظة .

٦. أن ينمي الطلاب مواهبهم وقدراتهم الفنية والجمالية من خلال المشاركة في تنفيذ الأنشطة المختلفة ، مستخدمين الخامات المحلية وموارد البيئة.
٧. تنمية قدرات الطالب في تحصيل المعلومات التاريخية وتحليلها وربطها ببعضها .

الأخوة المعلمون ، الأخوات المعلمات
في تقديمنا لهذا الكتاب لابد أن نذكر بالآتي :

١- ينبغي أن ينظر للتاريخ بأنه ليس هو الحوادث ، وإنما هو تفسير تلك الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة حية ، متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزيئات.
٢- توجيه عناية خاصة إلى المقاصد الدينية والتهذيبية والتثقيفية في دروس التاريخ ومساعدة الطلاب على تحديد أهداف سامية لهم في الحياة يسعون لتحقيقها .
٣- أن يعين المعلمون الطلاب على استخلاص العبر والدروس من مادة التاريخ وربط حقائق الماضي وحوادثه بالحاضر وإحياء الصلة بينهما مع تأكيد الإيجابيات ومعالجة السلبيات التي يعاني منها المجتمع والتركيز على القيم الطيبة والمفاهيم النبيلة والمواقف الإيجابية في سير القادة والزعماء للاقتداء بهم .
٤- تجنب الأساليب التقليدية في التدريس التي تعتمد على السرد فقط ، بل لابد من إجراء حوار مع الطلاب ، ومناقشة أسباب وقوع الحوادث التاريخية ونتائجها معهم ، وتدريبهم على التحليل والمقارنة ومناقشة الآراء وتقييمها والحكم عليها بموضوعية .
٥- إعداد النشء للحياة العملية ، وذلك بتحويل دور المعلم من تلقين الممكن ، إلى إرشادهم وتوجيههم وتيسير عملية التعلم لهم – ومن الممكن أن يتم هذا بتوسيع دائرة الأنشطة التربوية المختلفة ، مثل : إعداد الوسائل التعليمية ، من خرائط ورسوم وأشكال ، وحل الأسئلة والتمارين ، مع تكليفهم بقراءة الكتب وغيرها من المطبوعات التي تدعم وتعزز المقرر الذي يدرسونه ، كما أن التوسع في الاطلاع يساعد الطلاب على مواكبة الانفجار المعرفي الذي ظل يشهده العالم

منذ الربع الأخير للقرن الماضي . وبهذه الكيفية يتم التعلم الحقيقي الذي ينبع من مجهودات الطالب .

٦- إن زيارة المتاحف والمناطق الأثرية وإعداد المعارض والمشاركة بالتمثيل في المسرحيات ، وغير ذلك من الأنشطة التربوية بالإضافة لاستخدام الوسائل ، تساعد كثيراً في تحبيب دروس التاريخ .

٧- إن هناك أهمية كبيرة لتدريب الطلاب على التعبير عما يعرفونه ويفهمونه بالقول والكتابة والرسم وذلك لأهمية التعبير بالكلمة المنطوقة المكتوبة ؛ لأن الكلام والكتابة من المجالات التي ينبغي أن تكون فيها للطلاب خبرات واقعية فعالة ، ويتم هذا من خلال التمثيل والالقاء وتحرير الصحف الحائطية وأعداد المعارض وغير ذلك .

الأخوة المعلمون ، الأخوات المعلمات

بما أن هذه هي الطبعة الأولى من كتاب الصف الثاني ، فإننا نتوقع ظهور بعض السلبيات ، ولكن ثقتنا عظيمة في مقدرتكم على علاجها . ولكي نتفادى السلبيات وأوجه القصور في الطبعة القادمة إن شاء الله . فإننا نرجو منكم إرسال آرائكم ومقترحاتكم المحددة والواضحة .

وبالله التوفيق

المؤلفون

الباب الأول

الحكم التركي – المصري في السودان

(١) الحكم التركي المصري في السودان
١٨٢٠م – ١٨٨٥

(١-١) مدخل :

كانت مصر جزءاً عزيزاً من الامبراطورية العثمانية ولكنها أصبحت هدفاً لمطامع الدول الاستعمارية الغربية ابان ضعف وتدهور الدولة العثمانية . وقد غزاها نابليون الفرنسي في عام ١٧٩٨م ليضعف انجلترا بسيطرته على الطريق المؤدي إلى الهند أكبر مستعمرات انجلترا كما أراد فرض السيادة الفرنسية على البحر الأبيض المتوسط . ولكن الفرنسيين اضطروا للجلاء عن مصر في عام ١٨٠١م حينما تعاون الانجليز والحكومة المصرية على طردهم .

وبعد جلاء الفرنسيين سادت الفوضى والاضطرابات مصر نتيجة للصراع العنيف الذي احتدم بين قوى مختلفة المطامع والأغراض شملت الأتراك والانجليز والمماليك ثم الجنود الأرناؤوط (الألبان) والحركة الوطنية. وتحالفت بعض هذه القوى مع بعضها ضد البعض الآخر، وأصبحت مصر ميداناً للعراك والفوضى ، وساءت الحالة الاقتصادية كثيراً ، كما اضطرب المجتمع المصري.

وانتهى الصراع بانتصار محمد علي باشا ، فبايعه السلطان العثماني والياً على مصر عام ١٨٠٥م . وسرعان ما غدر محمد علي بحلفائه ومنافسيه ، وتمكن من فرض سيطرته الكاملة على مصر ، فظلت خاضعة لحكمه ، ولأفراد أسرته من بعده ، حتى قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢م .

لم يقف طموح محمد علي عند حكم مصر ، ولكنه فكر في إقامة امبراطورية واسعة تضم الجزيرة العربية والشام والسودان . وقد نجح محمد علي في ضم السودان ، فما الأسباب الخاصة التي دفعته لذلك ؟

(١-٢) أسباب غزو محمد علي للسودان :

وأول أسباب الغزو أن محمد علي أراد تكوين جيش قوي يدافع به عن مصر أمام أطماع الدول الأوربية ، وليقوي مركزه داخلياً ؛ كما كان يريد لهذا الجيش أنْ يتدرب على الطرق الحديثة ، وأن يستعمل الأسلحة المستحدثة . وبهذا الجيش أراد أيضاً أن يحقق أحلامه في بناء امبراطورية على أنقاض الامبراطورية العثمانية المتدهورة . وكان محمد علي يعرف أن جنوده الألبان هم آخر من يقبل النظام الذي ينوي إقامته وأن الفلاحين المصريين يجب ألا يُشغلوا عن الأرض بالجندية ، لذلك اتجه نحو السودان حيث عرف رجاله بالشجاعة والطاعة والإخلاص والانضباط .

كذلك قرر محمد علي غزو السودان للاستفادة من موارده الطبيعية ، خاصة الذهب ، الذي عمت شهرته الآفاق منذ عهد الفراعنة . فإن تمكن محمد علي من استخراج ذلك الذهب ، فإنه يستطيع انفاقه على جيشه الكبير الذي يريد بناءه . ومن ناحية أخرى فإن المال الذي يدره الذهب سيمكنه من تطوير بلاده زراعياً وعسكرياً وصناعياً .

وكان محمد علي يرمي أيضاً إلى توسيع نطاق التجارة المصرية مع السودان ، واحتكار حاصلاته وتسويقها عن طريق مصر ، وتأمين طرق القوافل بين مصر والسودان ، خاصة طريق البحر الأحمر .

ومن أسباب الغزو الاضطراب السياسي الأمني الذي سببه وجود المماليك في الحدود الجنوبية لمصر المتاخمة لحدود السودان آنذاك ، وكان المماليك قد فروا من مصر إلى شمال السودان بعد المجزرة التي أعدها لهم محمد علي في القلعة . اتخذ أولئك المماليك من شمال السودان موطناً لهم وعسكروا بالقرب من مملكة الشايقية حيث أنشأوا مملكة لهم ، وخشي الباشا سيطرتهم على السودان وتهديد مصر فأراد الباشا تأمين حدود مصر الجنوبية من خطرهم .

وعندما لاحظ محمد علي أن مصر تعتمد في حياتها وازدهارها على النيل فقد أراد الاستيلاء على كل وادي النيل إذ طالما هددت الحبشة (اثيوبيا) مصر والسودان في القرن الثامن عشر بتحويل مجرى مياه النيل .

وأخيراً شجع محمد علي باشا على غزو السودان تدهور الأحوال السياسية والفوضى التي عمت مملكة الفونج مما دفع بعض أهل السودان للاتصال بمحمد علي والاستعانة به .

وبالنظر لكل هذه الأسباب ، ولطبع محمد علي الذي جبل عليه من حب للحرب والرغبة في التوسع لتحقيق أحلامه في تكوين امبراطورية له ، أقدم على إعداد العدة لغزو السودان في عام ١٨٢٠م .

(١-٣) حملات الغزو على السودان ١٨٢٠م – ١٨٢١م :

الاستعداد للغزو :

بدأ الاستعداد للغزو بإرسال وفد لسنار في عام ١٨١٢م لتحريض الملك على طرد المماليك من بلاد السودان ، إلا أن الهدف الأساسي كان استكشاف أحوال البلاد العسكرية .

وفي عام ١٨١٩م – ١٨٢٠م سافر الباشا بنفسه إلى صعيد مصر للإشراف على الإعداد لغزو السودان ، وقد أعدّ للغزو حملتين الأولى بقيادة ابنه اسماعيل لغزو سنار ، والثانية بقيادة صهره محمد خسرو باشا " الدفتردار " ، لغزو كردفان ودارفور . ثم طلب محمد علي الإذن من السلطان العثماني ، الذي أذن له شريطة أن يتم الفتح باسم السلطان العثماني .

حملة سنار :

تكونت حملة سنار من أربعة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل بن محمد علي، وكان جنود الحملة من الأتراك الأرناؤوط والمغاربة وبعض البدو ، وزُودت بالمدافع والجمال وما يلزم من عُدة ، وقد صحب الحملة ثلاثة من العلماء وهم : السيد/ أحمد البغلي الشافعي، والشيخ أحمد السلاوي المغربي المالكي، والقاضي محمد الأسيوطي الحنفي، وذلك بهدف حث أهل البلاد على الطاعة وتسليم البلاد دون حرب بحجة الخضوع لسلطان الإسلام وخليفة المسلمين .

واصلت الحملة سيرها من القاهرة بالبر الغربي ونهر النيل من أسوان حتى وادي حلفا ، ومن وادي حلفا اتجهت نحو دنقلا ، وكان التحرك في عشرين ديسمبر ١٨٢٠م وتمكنت من الاستيلاء على منطقة دنقلا دون مقاومة تذكر ، ثم

تقدم الجيش التركي حتى منطقة كورتي، حيث طلب اسماعيل من ملوك المنطقة، دفع الضريبة والتخلص من السلاح وقد استجابوا لدفع الضريبة . ورفضوا تسليم السلاح ، فكان الصدام في موقعة كورتي في الرابع من نوفمبر ١٨٢٠م والتي انتهت بانتصار السلاح الناري على السلاح الأبيض .

ثم واصل الجيش زحفه عبر صحراء بيوضة حتى بربر في ٥ مارس ١٨٢١م وتمت السيادة في تلك المناطق للحكم الجديد ، ثم واصل زحفه حتى شندي ، وأعلن نمر ومساعد (ملكا الجعليين) الولاء . ومن ثم استسلم الملك شاوس (جاويش) والذي عبر الصحراء لعقد حلف مع المك نمر . واستمرت مسيرة الجيش حتى حلفايـــة الملوك في ٢٥ مايـــو ١٨٢١م ، حيث سلّم الشيخ ناصر ود الأمين ملك العبدلاب ، ثم تقدم الجيش إلـــى أم درمان ودخل الخرطوم في ١٨٢١/٥/٢٨م .

وتحرك الجيش من الخرطوم في الأول من يونيو ١٨٢١م ، فاحتل ودمدني ومنها واصل التحرك نحو سنار (انظر خريطة رقم (١-١)) . واتخذ الجيش الغازي من ود مدني مركزاً لقيادته . وفي سنار كان رأس الدولة الملك بادي السادس ، ووزيره محمد ود عدلان كبير الهمج ، وكان اسماعيل قد أرسل خطاباً إلى الملك بادي من المتمة ، يدعوه فيه إلى الطاعة والتسليم ، فردَّ محمد ود عدلان بالرفض وبدأ في الاستعداد للحرب ، وكان الرد في خطاب مشهور جاء فيه ..

((لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك .. وهم الرعية . . الخ)) . ولقد بدأ محمد ود عدلان الاستعداد بالإتصال بملوك الجعليين والعبدلاب والمقدوم مسلم في كردفان ، وقبل أن تكتمل هذه الاتفاقات قتل محمد ود عدلان على يد اثنين من رجال حسن ود رجب ، انتقاماً منه لقتل أخيه محمد ود رجب ، فأدى ذلك لفشل المقاومة التي كان من الممكن أن تثمر .

وانتهى الأمر بتقدم اسماعيل نحو سنـــار التي دخلها في ١٤ يونيو ١٨٢١م ، بينما فرّ حسن ود رجب في اتجاه الحبشة ، ولحق به المك جاويش وانتهى أمره بالسجن ومن ثمّ أطلق سراحه ، ثم قام الغزاة بإخضاع بعض الملوك الذين رفضوا التسليم ، وأبرزهم إدريس المحينة .

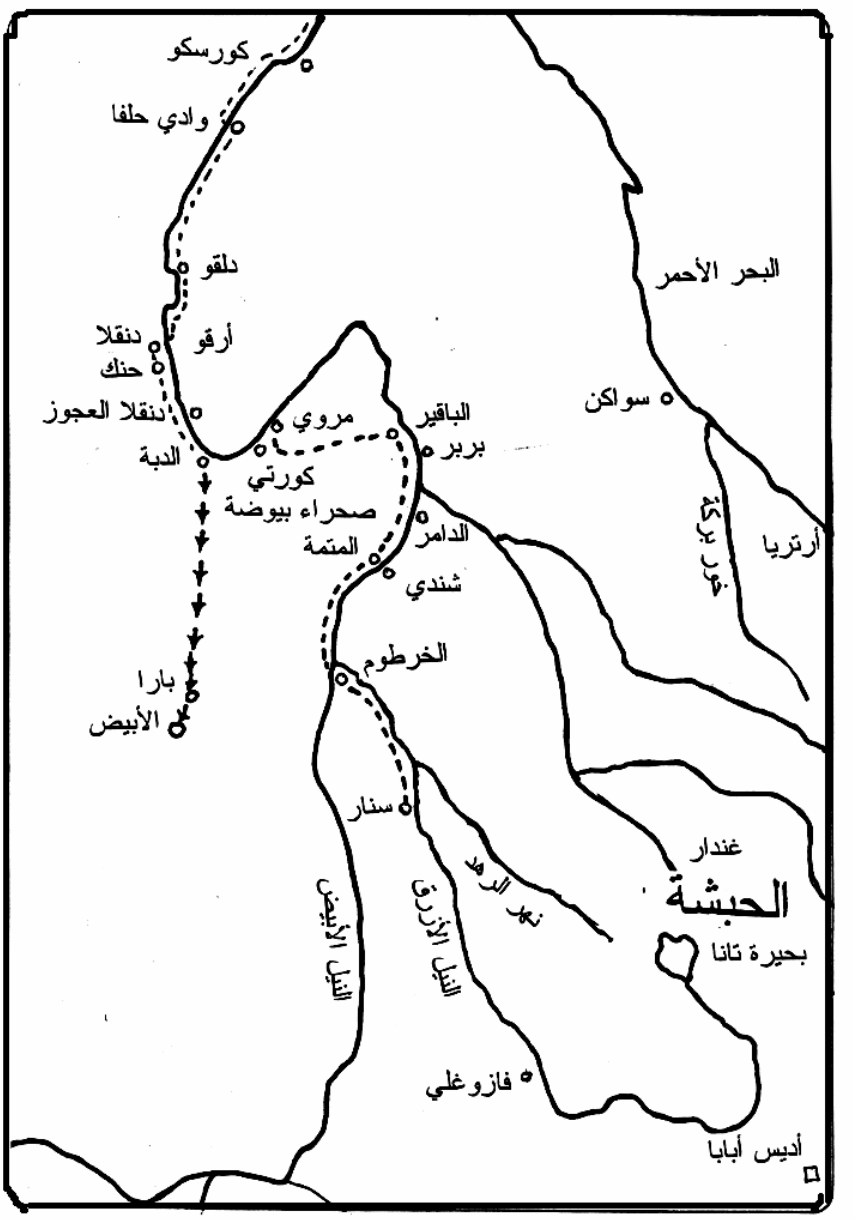

خريطة (١-١) : خط سير حملتي اسماعيل باشا والدفتردار .

وبعد الاستيلاء على سنار اتجه اسماعيل نحو فازوغلي في أعالي النيل الأزرق ، فكان الاستسلام . وهكذا انتهى أمر الغزو لسنار عاصمة دولة الفونج في سهولة ويسر ، بسبب السلاح الناري ، وضعف الدولة ، ومعاونة بعض أهل السودان للجيش الغازي ، إلا أن استكانة أهل السودان لم تدم طويلاً.

حملة كردفان :

تحركت حملة الدفتردار من القاهرة حتى الدبة براً وبحراً ، ومنها براً إلى كردفان (انظر خريطة رقم (١-١)) ، فأرسل رسالة للمقدوم مسلم حاكم كردفان يدعوه للتسليم، إلا أنه ردَّ بالرفض، فوقع القتال بينهما في موقعة " بارا " في ١٦ أبريل ١٨٢١م ، وعلى الرغم من استبسال المقدوم ورجاله إلا أنَّ السلاح الناري تغلب عليهم ، مثلما تغلب في معركة كورتي . وأخيراًإنتهى الأمر بالهزيمة، وقتل المقدوم مسلم وتقدم الجيش الغازي نحو الأبيض .

ثم بدأت الاستعدادات للتقدم نحو دارفور التي كان عليها السلطان محمد الفضل ، الذي أرسل جيشاً بقيادة أبولكيلك لاسترداد الأبيض ، إلا أنه هزم من قبل الغزاة .

بعد أن تحرك اسماعيل نحو فازوغلي ، فرضت في سنار الضرائب الباهظة على الأهالي من قبل لجنة مكونة من ديوان أفندي سعيد ، المعلم حنَّا الطويل ، والأرباب دفع الله أحمد .

وقد استاء الأهالي من هذه الضرائب ، إذ أنهم لم يعتادوا الضرائب النظامية ، كما طلب منهم الدفع نقداً رغم قلة النقد آنذاك ومحدوديته، حيث كانوا يستعملون الذرة والدمور في المعاملات التجارية (المقايضة) . وفي فترة غياب اسماعيل في فازوغلي ثار الأهالي ضد ضريبة الحكم التركي – المصري، كما شاع أن اسماعيل قتل في الجبال، فثار بعض أهل البلاد بينما لجأ البعض الآخر إلى الحبشة وبعد أن سمع اسماعيل بأخبار الثورة ، اتجه نحو سنار وعامل الأهالي بالرفق في تحصيل الضرائب ، فهدأت الأحوال في سنار وسط الأهالي . فقرر اسماعيل الانتقـــال إلى ودمدني ، وبنى بها قشلاقاً للجيش (ثكنات الجيش) من الطوب .

مقتل اسماعيل باشا في شندي (١٧ صفر ١٢٣٩هـ | ١٨٢٣م) :

بعد أن هدأت الأحوال في سنار ، قرر اسماعيل باشا العودة إلى مصر بعد رحلة الفتح الشاقة ، علاوة على مشاكل الطقس ، كما أراد أن يتمتع بشهرة الفتح التي نالها ، وقد جُهِّزت القاهرة لاستقباله ، وفي طريق عودته توقف في بلاد الجعليين ، ورأى أن ملكيها يستطيعان جمع ما يحتاجه من المال ، فطلب منهما ألف أوقية من الذهب ، وألف جمل ، وألف ناقة ، وألف بقرة ، وألف شاة، وألف عبد ، وألف جارية. تظاهر المك نمر بالامتثال ، ولكنه أضمر الغدر باسماعيل ، فأعدَّ وليمة في داره انتهت بحرق اسماعيل وحرسه الخاص ، ولم ينج منها إلا القليل. وكان ذلك في ليلة ١٧ صفر ١٢٣٩هـ / اكتوبر ١٨٢٣م .

بمقتل اسماعيل في شندي ، بدأت حركة المقاومة في أرض الجزيرة في قرية عبود بقيادة الأرباب دفع الله ، فتحركت إليه حملة بقيادة محمد سعيد أفندي، وقد تمكنت من تخريب القرية، فتفرق الثوار ، إلا أنهم تجمعوا في قرية أبو شوكة وقد لاحقهم عساكر الأتراك ، وتمكنوا من مطاردتهم ، وأخيراً تفرق الثوار ، وبُسِط الأمن في الجزيرة .

حملات الدفتردار الانتقامية :

بمقتل اسماعيل أصبح محمد بك الدفتردار المسؤول الأول عن الإدارة والجيش في السودان، ولمّا علم بما حدث ، اتجه من كردفان إلى شندي، فجرد السيف في الأهالي، وقتل أعداداً كبيرة من أهل السودان، فأوقع الخراب في معظم مناطق النيل الأبيض وشندي والمتمة والحلفايا، والعيلفون، وجزيرة توتي، ثم عاد إلى كردفان، وقد عرفت هذه الحملة بحملة الدفتردار الانتقامية الأولى، ولمّا علم الدفتردار بعودة المك نمر إلى شندي، عاد مرة أخرى ولحق بملكي الجعليين نمر ومساعد في النصوب، (على نهر عطبرة)، واشتبك معهما هناك، وانتهت المعركة بهزيمة الجعليين وقتل المك مساعد، كما أُسرت أعدادٌ كبيرة، وعاد بهم الدفتردار إلى قرية ود عروق، جنوب واد مدني، وقد عومل الأسرى معاملة سيئة فمات أكثرهم .

أما الملك نمر فقد اتجه نحو الحبشة مع بعض أفراد أسرته ، واستقرّ بهم المقام في أرض الحبشة ، كما لحق بهم كثير من الأهالي بعد ذلك بسبب سوء إدارة العهد التركي – المصري للبلاد .

ثم جاء الأمر للدفتردار بالعودة إلى مصر ، فخلفه على إدارة السودان ، عثمان بك جركس، في الفترة من أكتوبر ١٨٢٤م حتى مارس ١٨٢٥م، فقام بنقل العاصمة من مدني إلى الخرطوم . وقد اشتهر عهده بالقسوة والظلم وكان امتداداً لحملات الدفتردار الانتقامية. وتوفي في الخرطوم ودفن فيها. ثم خلفه بعد وفاته محو بك بالإنابة لبضعة أشهر، وقد اهتم بتثبيت دعائم الأمن في سنار ، وبنى داراً للحكومة، وثكنة لإقامة الجند بالخرطوم، وقرّب إليه الأهالي ومشايخ القبائل، وحفر الآبار في المناطق البعيدة، ثم جاء على خورشيد باشا خلفاً له .

أدت سياسة العنف التي اتبعها الدفتردار وقسوة عثمان بك، إلى طبع الإدارة بطابع القسوة والظلم، ودمغها بكل ما هو جائر في نفوس السودانيين ، وزادت كراهيتهم للإدارة التركية المصرية. ولولا جهود محو بك، لانقطع الاتصال بين أهل السودان وبين تلك الإدارة .

(١-٤) الإدارة في عهد محمد علي :

توفي محمد علي باشا بعد أن حكم السودان حوالي ثمانية وعشرين عاماً، ومضت السنوات الأولى منها في أحداث الغزوات والإضطراب الأمني ، ثم استقرت إدارته ، وإن كانت تسير على نمط المركزية الصارمة .

أضحت السلطة الإدارية في السودان، في يد موظفين أخضعوا البلاد لسلطة العهد الجديد بقوة البارود . وفيما يلي ذكر لأهمّ الوظائف الإدارية :

(١) **الحكمدار** : هو رأس الإدارة في السودان ، وتتركز في يده السلطة المطلقة السياسية ، والعسكرية. ويتبع الحكمدار رأساً لديوان الداخلية بمصر ، وقد أنشئت هذه الوظيفة في عام ١٨٣٤م وكان مقر الحكمدار في الخرطوم.

(٢) **المدير** : تمّ تقسيم السودان إلى ست مديريات هي :
دنقلا – بربر – الخرطوم – سنار – فازوغلي – كردفان ، ثم ألحقت مديرية التاكا بالسودان بعد عام ١٨٤١م ، فصارت سبع مديريات .

وكان لكل مديرية حدودها الإدارية. والمديرية تضم بداخلها عدداً من الهياكل الإدارية . وللمدير وكيل ينوب عنه ومعاونون وكتبة من أهل المديرية. وقد قسمت المديرية إلى أقسام وعلى كل قسم ناظر . وبالمديرية حامية عسكرية . وبالمديريات مجالس محلية لتنظيم المسائل الإدارية البسيطة .

أما مدينتا سواكن ومصوع الساحليتان ، فقد خضعت كل واحدة منهما لإداري يحمل لقب المحافظ .

ظلت إدارة السودان مركزية في أول عهد محمد علي على النحو الذي فصلناه ، ولكن محمد علي لجأ في عام ١٨٤٣م للنظام اللامركزي ، وفي هذا النظام ربطت المديريات بمصر مباشرة ، واستبدل وظيفة الحكمدار بوظيفة المنظم ، حيث تولى أحمد باشا المنكلي هذا المنصب. وواجهت المنظم كثيرٌ من الصعاب ، فعاد محمد علي باشا إلى المركزية مرة ثانية سنة ١٨٤٥م ، وعيَّن خالد خسرو حكمداراً للسودان ، وكان ضعيفاً ، وبذا تفادى عيوب اللامركزية وأيضاً زال تخوف الباشا من الحكمدار القوي صاحب الطموح مثل الحكمدار أحمد باشا شركس الشهير بأحمد باشا أبو ودان ، الذي أراد الإنفصال بالسودان عن مصر .

(٣) القضاء :

أُدْخِلَ القانون التركي إلى البلاد ليحل محل التقاليد القبلية ، وذلك في القضايا الجنائية والمدنية .

أما القضاء الشرعي ، فقد كان ينظر في قضايا الزواج والإرث ، وقد أُنشِئ منصب قاضي عموم السودان ، وكان يقوم بالقضاء والإفتاء ومقره الخرطوم، ويعاون القاضي مفتي وقاض آخر ومجلس من العلماء ، يجتمع للنظر في قضايا الجنايات الكبرى. وكان مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنفي ، وعليه كان يجري القضاء .

أما في المديريات فكانت السلطات بيد المدير الذي أضعف من سلطات القاضي بالمديرية ، فانحصرت مهمة القضاء في المديريات في النزاعات المدنية والتسجيلات وتمليك الأراضي وغيرها من القضايا المدنية.

(٤) الجيش :

لم يكن في الجيش الغـــازي لبلاد السودان جنود من الأصل المصري ، بل كانوا خليطاً من المغاربة والأرناؤوط . بعد إكمال الغزو أرسل السود من أهل السودان إلى مصر للعمل في الجندية ، إلا أنَّ المشاكل الصحية بسبب تغير بيئتهم ، جعلت محمد علي يفكر في إعادتهم إلى بلادهم ، فكوّن منهم الجهادية الذين يعملون على حفظ الأمن ، ووضعوا تحت قيادة ضابط من المماليك .

ومن ثم فقد تكون الجيش المصري في السودان من الأتراك والمغاربة والمصريين والشايقية والجهادية السود ، الذين جُلبوا من مناطق مختلفة من بقاع السودان . وأخذت أعداد الجيش في الازدياد حتى بلغ ١٦,٠٠٠ جندي في عام ١٨٤٥م ، وكانت أعمال الجيش حفظ الأمن وجمع الضرائب ، وقد عانى الجيش بتكوينه هذا من الأجور الزهيدة والمعاملة القاسية ، ففرّ بعض الجنود من الحكومة وتمرد آخرون فحدثت ثورتهم في مدني عام ١٨٤٤م ، وكان الاتفاق بين الجند السودانيين على القيام بالثورة في كل من سنار ومدني والخرطوم والكاملين ، إلا أنّ الثورة اندلعت في مدني قبل الموعد المحدد ، الأمر الذي سهل من القضاء عليها ، وانتهى الأمر بقتل زعيم الثورة دفع الله الأرباب .

(٥) النظام الاقتصادي :

ازدهر اقتصاد البلاد في مجالات مختلفة في فترة محمد علي باشا . ففي مجال الزراعة أقيمت السواقي وأرسلت الأدوات اللازمة لحفر قنوات الرَّي ، وبُذلت الجهود لمكافحة الآفات الزراعية ، كما أرسل الفلاحون من مصر للسودان للمشاركة في تعمير البلاد، وتعليم الأهالي الزراعة الحديثة، وكان ذلك في عهد خورشيد باشا ، فأدخلت محصولات جديدة كمحصول النيلة – (تستخدم في صناعة المنسوجات) – وقصب السكر والفواكه كالليمون. وأدخلت زراعة القطن في فترة محو بك ، كما تمّ التوسع في زراعة النخيل . وقد احتكر محمد علي باشا تجارة السودان ، فكانت المحصولات تباع لوكلاء الحكومة .

هذا وقد بذلت الجهود لتحسين نسل الماشية ، فاستوردت المواشي والأغنام من الخارج لتحسين النسل ، وتم التوسع في تصدير الماشية ، وقد أُرسل خبراء من مصر لتدريب الأهالي للاستفادة من الجلود .

وفي مجال التعدين والصناعة ، بُذلت الجهود للاستفادة من الحديد في كردفان في منطقة جبال الحرازة ، وجبال النوبة ، فاستخدم في صناعة المسامير منذ عام ١٨٢٨م في ترسانة السفن التي أقامها خورشيد على النيل الأبيض، كما بُذلت الجهود للبحث عن الرصاص والنحاس في جنوب غرب دارفور ، في المنطقة المعروفة باسم حفرة النحاس ، كما تمّ البحث عن الذهب في مناطق شيبون ، وكان ذلك في فترة الحكمدار خالد خسرو ، الذي عيَّن حسن حيدر للقيام بمهمة البحث عن الذهب .

بجانب ما تقدم فقد اهتمت الإدارة التركية المصرية بالعنصر البشري ، فأوفدت بعض أبناء السودان لمصر للتدريب على بعض الصناعات والحرف كالغزل والنسيج وصناعة السفن والتعدين .

وقد اهتمت الإدارة الجديدة بالملاحة النهرية . وبُذِلَ الجهد في ذلك منذ عام ١٨٢١م ، كما تمّ العمل على تأمين القوافل التجارية ، وترك أمر التأمين لشيوخ القبائل الموالين للحكومة ، وكان شيوخ القبائل يقومون بتمهيد الطرق البرية ، وقد اشتهرت قبائل الكبابيش بالعمل في نقل واردات السودان وحراسة القوافل .

وبالرغم من هذه المجهودات التي بذلت في تطوير الاقتصاد ، إلا أن العهد التركي – المصري ارتبط في أذهان أهل السودان بالضرائب الباهظة التي فرضت على الأهالي دون مراعـــاة للإمكانيات الاقتصادية ، أو أحوال أهل البلاد ، وتعسف الجنود في جمع الضرائب ، وبرزت مقولة ((اثنين في تربة ولا ريال في طلبة)) .

(٦) العاصمة :

بعد سقوط سلطنة الفونج الإسلامية في يد اسماعيل بن محمد علي باشا سنة ١٨٢١م ، استقر في عاصمتها سنار لحين . ولما نزلت الأمطار ، تفشت الأمراض بين جنوده ، فانتقل بهم إلى مدني وشيد بها ثكنات جيشه ودواوينه المختلفة .

وعندما تم تعيين عثمان بك جركس أواخر ١٨٢٤م – أول حاكم على السودان – وفي طريقه إلى مدني ماراً بالخرطوم ، أعجبه موقعها الجغرافي المتميز وقرر نقل عاصمته من مدني إليها . وكانت الخرطوم حينها قرية صغيرة يأتيها المسافرون ليعبروا عندها النيل ، ويرتادها صيادو السمك من وقت لآخر . كما أسس فيها الشيخ أرباب العقائد الذي قدم من توتي ، خلوة لتعليم التلاميذ علوم الدين الإسلامي سنة ١٦٩١م (مكان مسجد فاروق سابقاً والذي يُسمى حالياً باسم أرباب العقائد) .

نقل عثمان بك جركس ثكنات جيشه ودواوينه إلى الخرطوم بعد موافقة محمد علي باشا ، إلا أن المنية عاجلته وقبر في الخرطوم عام ١٨٢٥م . ثم تطورت الخرطوم ونمت في عهد خورشيد باشا ، فبنى الدواوين ومساكن الموظفين وثكنات الجيش في المكان الذي به محطة السكة حديد الآن ، وكان حي الأهالي يقع إلى الشمال منها . وقد اهتم خورشيد بتحسين مباني الخرطوم ، وسهل للأهالي مهمة الحصول على الأخشاب والطوب الأحمر ، فأصبحت المباني أفضل من بيوت القش والقطاطي والشكاب والزرائب التي كانت سائدة . وشيد خورشيد مسجداً في الخرطوم .

وشهد عهد الحكمدار جعفر الصادق انهيار أعداد كبيرة من المنازل في الخرطوم بسبب الأمطار والسيول سنة ١٨٦٦م . وبدأ التفكير في نقل العاصمة إلى جزيرة توتي ، ولكن الحكمدار جعفر الصادق رأى أخيراً أن يعيد تأهيل الخرطوم مرة ثانية .

وفي عهد الحكمدار اسماعيل أيوب ، زاد من المباني الحكومية فشيد معمل الورق ومعمل البارود.

وكانت مدينة الخرطوم مقسمة إلى عدة أحياء ، نذكر منها على سبيل المثال :

(١) حيَّ الحكمدارية : من أهم أحياء العاصمة، تجمعت فيه الدواوين الحكومية ومصالحها وبيوت كبار الموظفين ، وثكنات الجيش ، والمرافق التابعة له . وفيه أيضاً قصر الحكمدار ، وإلى الشرق منه كانت السراي وإلى الشرق من السراي كانت الشونة ، وهي مخزن

للغلال . وتجاور الشونة من ناحية الشرق الترسانة وهي من أهم المصالح الحكومية ، بها ١٢ سفينة بخارية كبيرة وعدد من الصنادل ، وعدد مهول من السفن الشراعية وكانت تؤجر للتجار بجانب خدمتها للمصالح الحكومية .

(٢) حيَّ المسجد : يقع غرب حي الحكمدارية ونشـــأ هذا الحيَّ حول المسجد ، الذي بناه خورشيد ، وهو من أهم الأحياء السكنية ، وكان السوق في هذا الحيَّ. كما كان يسكنه كبار التجار والأعيان والأجانب. وكانت به بعض القنصليات الأجنبية ، ومبنى الإرسالية الكاثوليكية الرومانية، وإرسالية بروسيا البروتستنتية ، وكنيسة الأقباط.

(٣) الأحياء الشعبية : قامت في أطراف المدينة في الجزء الجنوبي الغربي وتعد من أقدم الأحياء .

وسكنت الخرطوم أجناس كثيرة بلغ عددهم حوالي ٢٥٠ ألف نسمة بلغ عدد السودانيين منهم نحو ٥٠ ألف والبقية من الأتراك ، والمصريين ، والسوريين ، والمغاربة والأوربيين (بريطانيون ، وايطاليون ، ونمساويون ، وفرنسيون ، ويونانيون ، وروس ، وأرمن) وكان الأجانب يعملون في الوظائف الحكومية المختلفة وأيضاً يعملون في التجارة .

(١-٥) حكام السودان في عهد محمد علي باشا :

تعاقب على حكم السودان خلال الفترة من ١٨٢١م – ١٨٤٨م العديد من الحكام الذين أرسوا دعائم الحكم والإدارة وحققوا بعض النجاحات نذكرهم فيما يلي :

إسماعيل بن محمد علي باشا : (١٨٢١م)

قائد حملة الفتح وقد عين حاكماً على سنار في يوليو ١٨٢١م وقد مات في شندي اكتوبر ١٨٢٣ وقد مرّ ذكره .

محمد بك الدفتردار :

أصبح المسؤول عن الحاميات العسكرية بعد مقتل اسماعيل واستمر في إدارة البلاد حتى أكتوبر ١٨٢٤م وشهدت فترته العديد من الإضطرابات وعدم الاستقرار واشتهر بسفك الدماء .

عثمان بك جركس (١٨٢٤م – ١٨٢٥م) :

جاء إلى السودان في عام ١٨٢٤م وكانت برفقته قوة من الجيش المصري الحديث وبعض المعاونين لمساعدته في تنظيم إدارة البلاد ، ومن هؤلاء سليمان بك الخربوطلي الذي عُيّن قائمقاماً في الابيض ، نقل عثمان بك العاصمة إلى الخرطوم وتوفي في مارس ١٨٢٥م .

محو بك (١٨٢٦م) :

بنى داراً للحكومة وثكنة لإقامة الجند بالخرطوم كما قرب الأهالي ومشايخ القبائل وحفر الآبار في بعض المناطق وكانت فترة حكمه قصيرة وقد اشتهرت باسمه شجرة في الخرطوم وأطلق الاسم على حي من أحياء الخرطوم اليوم "شجرة محو بك".

علي خورشيد (١٨٢٦م – ١٨٣٨م) :

امتدت فترة حكمه إلى اثنتي عشر عاماً وشملت سلطته سنار أولاً ثم بربر ثم كردفان في عام ١٨٣٢م ودنقلا في عام ١٨٣٣م فأصبح مديراً للسودان بلقب بك وما إن حلّ عام ١٨٣٤م حتى أصبح حكمداراً عاماً بلقب باشا ، ومن منجزاته تعمير الخرطوم حيث بنى مسجداً ونظم دواوين الحكومة وحسَّن من مباني الأهالي وشجع السكان على الاستقرار واقترن اسمه بمدينة الخرطوم . وقد بذل خورشيد مجهوداً في تيسير المواصلات بين مصر والسودان وربط أجزاء شمال السودان بالسفن ، واهتم بتعليم الأهالي صناعة السفن كما أشرك الأهالي في الحكم .

أحمد باشا جركس (أبو ودان) (١٨٣٨م – ١٨٤٣م) :

اشتهر بالحزم والشدة وشهدت فترته زيارة محمد علي للسودان في الفترة من أكتوبر ١٨٣٨م إلى مارس ١٨٣٩م وكان محمد علي آنذاك في السبعين من عمره. شهد عهد أبو ودان ضم التاكا للحكمدارية (١٨٤١م) . كما ألقى امتيازات الشايقية التي تحصلوا عليها منذ الفتح . فتمرد زعيمهم حمد المك ورحل إلى الحدود الحبشية فأصبح مصدر خطر للحكمدار فاضطر أبو ودان إلى إعادة امتيازات الشايقية إليهم مرة أخرى . شهد عهده أيضاً رحلات محمد سليم قبطان لاكتشاف منابع النيل ١٨٣٩م – ١٨٤٢م ولكنها فشلت في تحقيق تلك المهمة . وفي عهد أبو ودان تطورت الصناعة فأقام مصنعاً للصابون بالكاملين وأقيمت مصانع صغيرة لتكرير السكر . وانطلقت الإشاعات عن نوايا أبو ودان وأطماعه لفصل السودان عن مصر وضمه للدولة العثمانية كما تلكأ في تنفيذ أوامر محمد علي والعودة إلى مصر وفي هذه الظروف توفي أبو ودان في الخرطوم سنة ١٨٤٣م .

أحمد باشا المنكلي (١٨٤٣م – ١٨٤٥م) :

لقد حاول محمد علي تفادي تجربة الحكمدار القوي فعدل من النظام المركزي إلى اللامركزية بتقسيم السودان إلى ست مديريات ترجع في أمورها رأساً للقاهرة . على أن يتعاون المديرون فيما بينهم لحفظ الأمن وغيره . عُيِّن أحمد باشا المنكلي (المنظم) ، لترتيب نظام اللامركزية ، وفعلاً تم ذلك . وبعد فراغه من هذه المهمة ، انحصر اهتمامه في التنقيب عن الذهب .

وفي عهده واجهت اللامركزية بعض الصعاب ومن ذلك :

١) عدم انقياد المديرين للمنظم ، لإحساسهم بالاستقلال وتبعيتهم المباشرة للقاهرة .
٢) عدم تعاون المديرين للقضاء على الثورات التي قامت في بعض المديريات .
٣) صعوبة المواصلات وبعد المسافات لاتساع رقعة السودان .

ونتيجة لفشل اللامركزية ، عاد محمد علي باشا إلى المركزية مرة أخرى ، على أن يعين في منصب الحكمدار شخصية ضعيفة . فوقع اختياره على خالد خسرو .

خالد خسرو (١٨٤٥م – ١٨٤٨م) :

شهد عهده ضم مينائي سواكن ومصوع إلى إدارة محمد علي باشا طيلة حياته ، مقابل زيادة الجزية التي يدفعها للسلطان العثماني . وفي عهده تدهورت العلاقات بين السودان والحبشة ، فأرسل جيشاً تمكن من هزيمة الأحباش . واستمرت حكمداريته حتى عهد عباس الأول ، الذي خلف جده على حكم مصر.

(١-٦) السودان في عهد عباس (١٨٤٨م – ١٨٥٤م) :

الإدارة في عهد عباس :

في أخريات عهد محمد علي باشا ، ونتيجة للمرض قام بأمر الحكم إبنه ابراهيم ، وذلك في منتصف عام ١٨٤٨م ، إلا أنه توفي ، فخلفه عباس ابن طوسون حفيد محمد علي باشا الذي حكم ولاية مصر بعد وفاة جده .

بلغت حالة السودان في هذه الفترة قدراً كبيراً من فساد الحكم وسوء الإدارة ، وذلك خلال فترة الحكمدار خالد خسرو ، فعمل عباس على تنظيم الإدارة ومحاربة الرشوة والفساد في بلاد السودان . ولما لاحظه من عدم رغبة الإداريين المصريين العمل بالسودان ، وضع لائحة تنظم ذلك فكانت مدة العمل في دنقلا ثماني سنوات بينما كانت في الخرطوم ست سنوات ، كما حُدِّدَت في كل من سنار وكردفان والتاكا وفازوغلي ، بأربع سنوات ، على ألا يُسمح خلال هذه الفترة ، بمبارحة مقر العمل والسفر إلى مصر ، إلا بشهادة طبية . .

وفي مجال محاربة الرشوة عمل على تعيين موظفين من رُتب عليا ، ظناً منه أن علو الرتب يحد من قبول الرشوة ، ويقلل من الفساد ، فرفع رتبة المدير إلى الأميرلاي ، بعد أن كان المدير يعين ممن كانوا في رتبة القائمقام ، وكما عمل على تقسيم المديريات حيث فصل دنقلا عن بربر ، وجعل كل منهما

مديرية مستقلة ، كما دمج كلاً من فازوغلي وسنار ، لعدم اتساعهما ، وليوحد بين مشكلات السكان .

وفي عهد عباس ، ازداد النفوذ الأجنبي بسبب إلغاء احتكار التجارة الذي فرض في السودان خلال فترة محمد علي ، ففتح النيل الأبيض للملاحة ، وتوافد الأجانب على السودان ، وتوسعت تجارتهم فقوي نفوذهم ، فأنشئت القنصليات في الخرطوم ، وكان ميللر النمساوي هو أول قنصل أجنبي في الخرطوم في عام ١٨٥١م ، ثم بتريك البريطاني ، وقناصل آخرون ، ولمّا تكاثر الأجانب ، اضطر الحكمدار عبد اللطيف لاحتكـــار التجارة وإغلاق الملاحة في النيل الأبيض، مما دفع قناصل الدول الأوربية للاحتجاج، فتمَّ عزل عبد اللطيف باشا، وتعاقب على الحكمدارية في السودان بعده خلال فترة عباس ، كل من رستم باشا ، الذي جاء إلى الخرطوم في عام ١٨٥٢م ، ثم اسماعيل باشا أبو جبل ، في يوليو ١٨٥٢م ، وقد أعقبه سليم باشا صائب الجزائري في أبريل ١٨٥٣م ، الذي أعفي في فبراير ١٨٥٤م . وأعقبه علي باشا سري الأرناؤوطي في يوليو ١٨٥٤م ، حيث توفي عباس في فترة حكمداريته في ١٤ يوليو ١٨٥٤م ، وبدأت فترة سعيد وقد اتهم علي باشا سري بالرشوة والاختلاس وعُرف بأنه أسوأ حكمدار يمر على السودان فتم عزله في ديسمبر ١٨٥٤م ، وخلفه الحكمدار علي باشا جركس في فترة محمد سعيد .

الخدمات في عهد عباس :

شهد عهد عباس توافد أعداد من الأقباط لبلاد السودان للعمل في تنظيم الإدارة الحكومية ، خاصة المالية ، كما بدأ في هذه الفترة دخول الخدمات الطبية الحديثة إلى السودان ، وذلك لخدمة الموظفين الأتراك والمصريين ، ففتحت أول صيدلية في الخرطوم ، وجاء عدد من الأطباء للعمل بالبلاد . وفي هذه الفترة فتحت أول مدرسة نظامية بالخرطوم في عام ١٨٥٣م ، وعُيِّن رفاعة بك رافع الطهطاوي مديراً لها ، وكان قبل ذلك مديراً لمدرسة الترجمة بالقاهرة ، وقد عُين محمد بيومي أفندي معاوناً له في التدريس ، وضابطاً بالمدرسة ، وبرفقتهم أحد عشر أستاذاً ، وقد أغلقت المدرسة في فترة سعيد عام ١٨٥٥م ، هذا وقد أقام عباس أول مطبعة بالسودان . كما نشطت التجارة بدخول التجار الأوربيين الذين فتحوا المتاجر والمخازن في أماكن مختلفة بالبلاد .

(١-٧) السودان في عهد محمد سعيد (١٨٥٤م – ١٨٦٣م) :

الإدارة في عهده :

هو سعيد بن محمد علي باشا ، وقد درس في أوربا وتأثر بحضارتها ، وقد وجد السودان في عهده عناية خاصة في مجالات مختلفة ، وكان سعيد على قناعة بأن تحسين إدارة البلاد يتم بإصلاح شأن الحكمدارية ، ففي عام ١٨٥٥م عيَّن أخاه عبد الحليم حكمداراً على السودان ، ليعمل على نشر العدل وتعمير البلاد ورفاهية العباد ، وقد بدأ عبد الحليم عهده بدراسة أحوال البلاد ، فاهتمّ بالأمن ونشره في التاكا وفي مناطق الحدود مع الحبشة ، وفي منطقة النيل الأبيض، إلا أن عبد الحليم رجع إلى مصر في ديسمبر ١٨٥٦م وذلك لانتشار الوباء الأصفر بالسودان (الحمى) .

وفي عام ١٨٥٧م زار سعيد السودان وأدخل العديد من الإصلاحات على إدارته ، ومن هذه الإصلاحات تقسيم السودان إلى خمس مديريات هي :

التاكا ، كردفان ، دنقلا ، وأضيفت إليها بربر ، ثم النيل الأبيض ، بينما أصبحت الخرطوم وسنار مديرية واحدة ، وأصبح على رأس كل مديرية مدير يتبع مباشرة للقاهرة ، حيث أصبح الحكم لا مركزياً ، بينما عُيِّن أراكيل بك مديراً للخرطوم وسنار . وبعد وفاة أراكيل في عام ١٨٥٩م ، خلفه حسين بك سلامة ثم محمد بك راسخ السوداني الجنسية في عام ١٨٦١م .

في عام ١٨٦٣م قرر سعيد العودة مرة أخرة للنظام المركزي بعد فشل اللامركزية ، فعيَّن موسى باشا حمدي حكمداراً على السودان في عام ١٨٦٣م ، وقد أثبت أنه من أكفأ الحكمدارين الذين تولوا إدارة البلاد ومن أشهر أعماله تنظيم الإدارة ، وإشراك أهل البلد في الحكم ، إذ أنشأ المجالس المحلية التي أسهمت في تقديم الخدمات .

وقد برزت معظم إنجازات محمد سعيد ، عند زيارته لبلاد السودان ، ومشاهدته لحال الأقاليم السودانية ، ممّا مكنه من إصلاح نظام الإدارة والحكم ، وقد اتخذ من أجل هذا العديد من الإجراءات ، حيث قام بإعفاء الأهالي من الضرائب المتأخرة وأعاد تقديرها بصورة أفضل ، وعهد بتحصيلها إلى مشايخ القبائل بدلاً من الجند ، ممّا حسن من سمعة الإدارة التركية ، فضلاً عن ذلك فقد

أشرك أهل السودان في الحكم ، كما قام بتنظيم المواصلات وأصلح البريد ، وربط بين السودان ومصر ، وبذل مجهودات لتحسين الملاحة ، وبسط الأمن ، فازدهرت التجارة فأنشأ مخازن للتجار بالخرطوم ، ودخل التجار الأوربيون إلى السودان ، فانتعشت الأسواق وازدهرت القضارف خلال هذه الفترة ، كسوق للتجارة الحبشية مع الحبشة ومع جزيرة العرب .

ختاماً فإن عهد سعيد شهد تقدم العمران في السودان ، وازدهرت مدينة الخرطوم ، وتم إنشاء دور الحكومة وثكنات الجيش ومسجدين وتطورت الصناعة. كما ازدهرت القضارف ، وأصبحت كسلا عاصمة لإقليم التاكا ، وبرزت مدينة فامكا على النيل الأزرق بالقرب من الروصيرص ، وأصبحت عاصمة النيل الأزرق . وفي كل هذه المدن ، تقدمت الإدارة ، وبنيت المساجد والدور ، وفتحت المتاجر .

(١-٨) عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣م – ١٨٧٩م) :

امتدت فترة حكم اسماعيل لمصر والسودان لستة عشر عاماً ، اتسمت سياسته فيها بتوسيع رقعة الامبراطورية المصرية في السودان ، وظاهرة التقلبات الإدارية .

(١-٨-١) الإدارة في عهد اسماعيل :

كان موسى حمدي باشا (١٨٦٢ – ١٨٦٥م) قد تولى الحكمدارية في أخريات عهد سعيد ، واستمر في منصبه بعد مجئ اسماعيل ، واستعان في فترة حكمداريته بعناصر سودانية في الإدارة . ومن إنجازات موسى حمدي ، تنظيم الجيش ، كما يذكر أن العلاقات مع الحبشة (اثيوبيا) توترت في عهده . وبعد وفاته خلفه على الحكمدارية جعفر صادق باشا (١٨٦٥م – ١٨٦٦م) ، حيث شهد عهده ثورة الجهادية السود في كسلا سنة ١٨٦٥م ؛ ثم خلفه جعفر مظهر على الحكمدارية واستمرت فترته من (١٨٦٦م – ١٨٧١م) وقد بذل جهوداً مقدرة في تيسير المواصلات ، ومد خطوط التلغراف ، وتخطيط المدن الكبرى ، وتيسير البناء بالحجر ، وكانت له جهود في نشر التعليم. وقد اقترنت فترة مظهر ببداية التوسع في مناطق خط الاستواء .

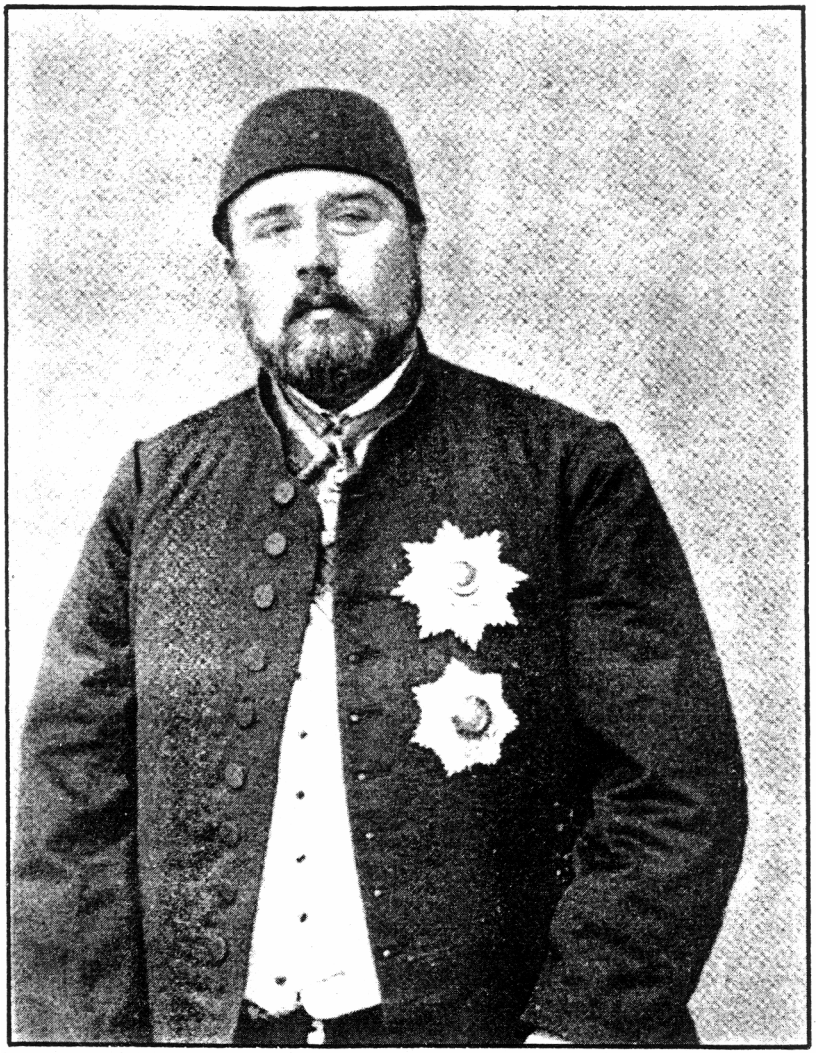

وفي عام ١٨٧١م ، تمّ تقسيم البلاد إلى إدارات مستقلة ، قبلي السودان ، ويشمل الخرطوم ، وسنار ، وفازوغلي ، والنيل الأبيض ، ومديرية كردفان ، والتاكا ؛ وأصبح ممتاز باشا مديراً لها . وبحري السودان ، ويشمل مديريتي دنقلا وبربر ، وعين حسين بك خليفة العبادي مديراً لها ، كما عين شكيب باشا محافظاً على سواكن .

وقد بذل ممتاز باشا مجهوداً لإنجاح زراعة القطن، إلا أنه اتهم بالرشوة، وحُبس حتى مات ، فخلفه اسماعيل أيوب باشا (١٨٧٣م – ١٨٧٤م) مديراً لقبلي السودان ثم حكمداراً (١٨٧٤م – ١٨٧٧م) بعد الرجوع إلى المركزية . وقد شهدت فترته ضم دارفور ، وامتد نفوذ الحكومة إلى خط الاستواء ، وضمت زيلع وبربرة وفتحت هرر ، كما نفذت مشروعات عديدة في فترت حكمه في مجال الزراعة والصناعة والتجارة.

وأخيراً عين الخديوي اسماعيل البريطاني غردون حكمداراً على السودان (١٨٧٧ – ١٨٧٩م) ، وأعطاه سلطات مطلقة ليتصرف كيف يشاء في سبيل تحقيق الأغراض التي كان يرمي إليها ، وأهمها :

١. إنعاش الاقتصاد
٢. تحسين المواصلات
٣. حل مشكلة مرتبات العاملين في السودان
٤. جعل الإدارة نظيفة وفعَّالة
٥. تحقيق العدالة .

تولى غردون الإدارة ولكنه ولاضطراب فكره، وعدم ثقته في الآخرين ، وسماعه للوشايات ، فقد شهدت البلاد في عهده اضطراباً شديداً في الإدارة الحكومية . ومن ناحية أخرى جعل غردون كل همه البطش بالتجار متناسياً معاناة الأهالي والموظفين ، الذين لم يستلموا مرتباتهم . وأخيراً أثار توسعه في الاستعانة بالأوربيين المسيحيين في الإدارة، مشاعر السودانيين الدينية والقومية ، وهيأهم للاستجابة للثورة المهدية ، التي عمت البلاد بعد عامين من نهاية حكمداريته .

(١-٨-٢) التوسع في عهد اسماعيل باشا :

أراد اسماعيل توسيع امبراطوريته في السودان ، بغرض السيطرة على منابع النيل وسواحل البحر الأحمر ، والاستيلاء على مناطق غرب السودان ، لذلك جاءت فتوحاته في ثلاثة اتجاهات : ناحية الشرق والغرب والجنوب .

والخريطة رقم (١-٢) توضح المديريات في السودان في عهد الخديوي اسماعيل .

(١) التوسع نحو الشرق :

من أهداف سياسة الخديوي اسماعيل ، للتوسع في شرق البلاد ، حيث تمكن من إقناع السلطان العثماني بضم مصوع وسواكن بصورة نهائية ، لتحقيق الأهداف الآتية :

أولاً : إقامة حكومة قوية على الساحل .

ثانياً : الاستيلاء على شرق السودان والسيطرة على البحر الأحمر .

ثالثاً : ربط أجزاء السودان بالبحر الأحمر .

(٢) التوسع نحو الجنوب :

صمويل بيكر ١٨٦٩م – ١٨٧٣م :

اقترن التوسع في الجنوب بالمغامر الرحالة الانجليزي صمويل بيكر ، الذي وصل منابع النيل مكتشفاً ، وفي عام ١٨٦٩م تمّ تعيينه على خط الاستواء من قبل اسماعيل باشا ولمدة أربع سنوات ، بهدف تأمين مجرى نهر النيل ، وقد طلب منه العمل على ضم القبائل الجنوبية ، ورفع العلم المصري عليها كما كان عليه أن يقوم ببناء بعض المحطات العسكرية .

وقد تمكن بيكر من توسيع رقعة الدولة ، بعد أن خاض العديد من المعارك وأغار على الكثير من القبائل ، واستخدم القوة في إدارته ، ونجح في إقامة محطات عسكرية في كل من غندكرو ، وفاتيكو ، ونويرا. وقد فشل بيكر في مهمتة لأسباب أهمها :

١. استخدام القوة.

٢. الأمراض الوبائية التي فتكت بجنوده.

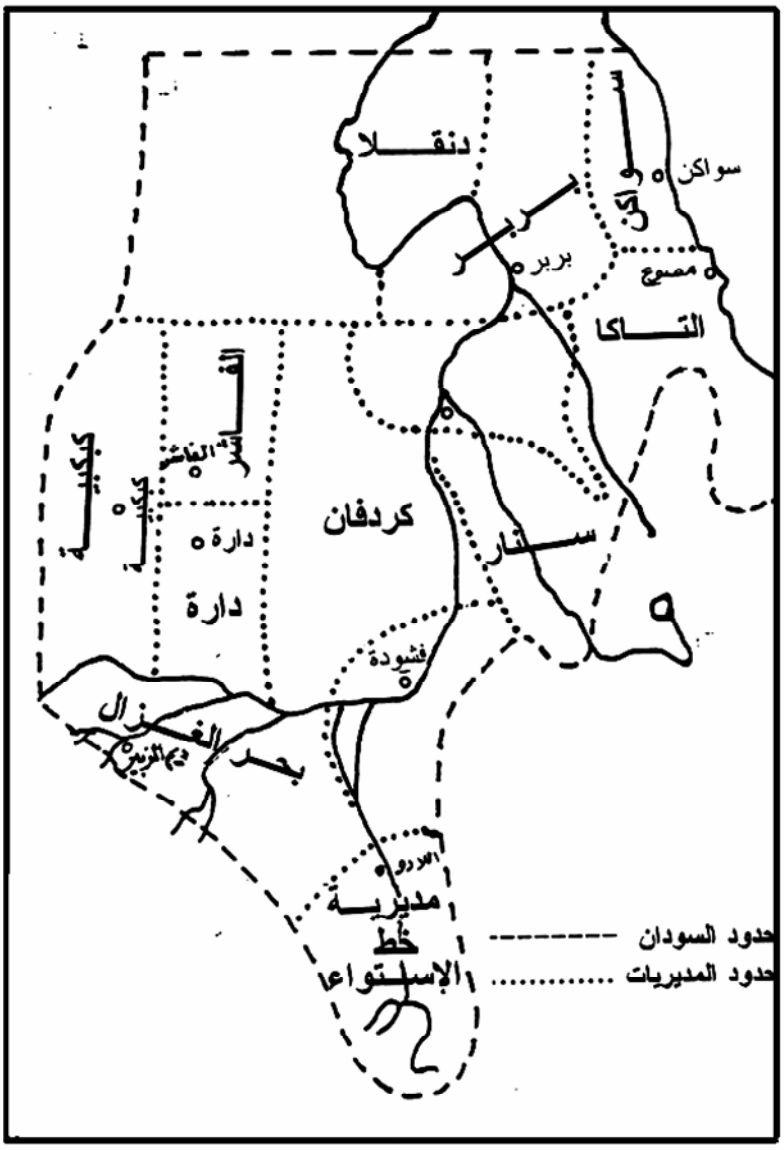

خريطة رقم (١-٢) لمديريات السودان في عهد الخديوي اسماعيل

غردون باشا (١٨٧٤م – ١٨٧٦م) :

خلف بيكر على خط الاستواء الضابط البريطاني ، شارلس جورج غردون الذي تمكن من ضم خط الاستواء وأصبحت في عهدته إدارة مستقلة ، واتخذ معاونين له في إدارته من الالمان والامريكان. وبعد وصوله ، نقل عاصمة الجنوب من غندكرو إلى لادو، وتمكن من إدارة الاستوائية بلطف ولين، مكنه من التعاون مع الأهالي ، خاصة قبائل الباريا ، كما تمكن من التعاون مع يوغندا. نجح غردون في إقامة عشر محطات عسكرية في تلك الأنحاء ، ساعدت على تثبيت الأمن ، وجعل اتصال الشمال والجنوب أمراً مأموناً من المخاطر ، حيث سارت التجارة بنجاح بين الشمال والجنوب . ومما يؤخذ عليه إهماله ليوغندا ، التي كانت تود أن ترتبط بالشمال، فأصبحت تتجه نحو الشرق ، في إتجاه كينيا وشرق أفريقيا ، بدلاً من أن تتصل بمجرى النيل . انتهت مدة خدمته في سبتمبر ١٨٧٦م ، وترك الكولونيل الأمريكي بروت نائباً عنه ، ثم ترك بروت الخدمة فخلفه امين الألماني ، الذي ظلَّ على خط الاستواء حتى قيام الثورة المهدية .

وهكذا استطاع غردون أن يفتح الاستوائية في وجه التجارة ، ويحقق بعض الاكتشافات الجغرافية . وقد عاد للسودان مرة أخرى ليشغل وظيفة الحكمدار في الفترة ما بين (١٨٧٧م – ١٨٧٩م) كما أشرنا سابقاً .

ضم بحرالغزال (١٨٧٢م) :

عمل الزبير بالتجارة في الجنوب ، وحقق العديد من النجاحات ، فتوسعت تجارته ، وصاهر ملوك الجنوب ، كما تمكن من تكوين قوة عسكرية خاصة به من أهل تلك المناطق ، بعد أن دخلوا في الإسلام ؛ وقد تمكن من دخول بحر الغزال ، وأسس فيها حكماً ، وجعل " ديم الزبير " عاصمة له ، وكانت تعرف باسم " بايه " . وفي هذا الوقت ، فكر الخديوي اسماعيل في ضم بحر الغزال ، فعيَّن محمد البلالي مديراً لها. وصل محمد البلالي لبحر الغزال في عام ١٨٧٢م ، واصطدم بالزبير الذي كان قد أقام حكمه في تلك المناطق ، وانتهى الصدام بمقتل البلالي وانتصار الزبير ، ولما لم يكن الزبير حريصاً على عداوة حكومة الخرطوم ، فقد تم تعيينه بوساطة من حسين بك خليفة مديراً على بحر الغزال ، ومنح لقب البكوية وذلك في ديسمبر ١٨٧٣م .

(٣) التوسع نحو الغرب :

ضم دارفور (١٨٧٤م) :

بعد ضمه لبحر الغزال ، أراد الزبير تأمين طرق التجارة ، فاتجه ببصره نحو أراضي الرزيقات ، وكان بينهما اتفاقية نقضها الرزيقات ، فنشب القتال بينهما وانتصر الزبير واستولى على عاصمتهم شكا .

أثار الزبير بانتصاره على الرزيقات ، عداوة الفور ، خاصة بعد أن فرَّ شيخان من الرزيقات إلى بلاط الفور ، ورفض السلطان إبراهيم تسليمهما إلى الزبير ، فدارت الحرب بين الفور والزبير في معارك متعددة ، انتهت بواقعة منواشي في اكتوبر ١٨٧٤م . واستطاع الزبير أن يستولى على عاصمة الفور الفاشر في ٢ نوفمبر ١٨٧٤م ، ولما وصل الحكمدار اسماعيل أيوب إلى الفاشر وجد الزبير قد استولى عليها فكتب للباشا اسماعيل بذلك النصر .

بعد ذلك تجمع الفور بقيادة الأمير حسب الله في جبل مرة ، وبايعوه أميراً ، إلا أن الزبير هزمهم وأسر أميرهم الذي اقتيد إلى الفاشر ، وانتهى الأمر بإرساله إلى القاهرة . ثم تجمع الفور مرة أخرى بقيادة الأمير بوش ، ولكن الزبير انتصر عليهم أيضاً ، وقتل بوش في عام ١٨٧٥م ، وتوجه الزبير غرباً ، ودخل سلطنة ودَّاي ، وأراد ضمها للحكومة ، إلا أن الخديوي منعه من ذلك ، فعاد إلى الفاشر .

بدأ الحكمدار اسماعيل في تنظيم المناطق المفتوحة ، وفرض الضرائب على السكان ، فوقع الخلاف بينه والزبير ، فطلب الزبير السفر إلى القاهرة وتمَّ له ذلك ، إلا أنه لم يتمكن من العودة إلى السودان ، حيث حُبس هناك ، ثم نُفي إلى جبل طارق. وهكذا انتهى أمر الزبير وأبعد عن موقع الأحداث في السودان، بعد أن ضم للحكومة كلاً من بحر الغزال ودارفور . ولم يعد الزبير للسودان إلا في عام ١٩٠٣م ، ولمدة سنتين ، ثم رجع إلى حلوان واستقرّ هناك ، وعاد مرة ثانية في عام ١٩١١م وظل في الجيلي إلى أن توفي في عام ١٩١٣م .

صورة الزبير باشا رحمة

(١-٩) التعليم في العهد التركي – المصري :

كان نظام التعليم في السودان قبل الحكم التركي – المصري تعليماً إسلامياً تقوم به الخلاوي والمساجد ، وكانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه، وكان هذا النمط من التعليم متأثراً بنظام التعليم في مصر ، والمغرب ، والحجاز ، وكانت الخلوة تعادل ما يسمى بالكتاب في البلدان الإسلامية الأخرى. وبتطور النظام السياسي والاجتماعي ، تطلعت قلة من الطلاب إلى التعليم في الأزهر الشريف خارج السودان ، حيث كونوا ما عُرف برواق السنارية في فترة سلطنة الفونج . لذا فقد تطور منهج الخلاوي ليدرس فيها بجانب العلوم الدينية الحساب والفلك وغيرهما .

عند قدوم الحكم التركي – المصري للسودان ، كانت أولى الخطوات ، إرسال الخبراء المختصين للسودان لتعليم الناس الزراعة ، فأرسل محمد علي باشا مائة من الفلاحين المختصين والخولية .

وفي عهد خورشيد باشا الذي عين حكمداراً في يناير ١٨٢٦م ، أرسل بعض السودانيين لمصر لتعلم الصناعات والحرف .

وقد شجعت الإدارة التركية المدارس القرآنية لتواصل رسالتها بجانب محاولة تأسيس مدارس لتمد الدولة بالموظفين لتحريك دولاب الدولة التي كانت تعتمد في إدارتها على الموظفين المصريين .

وفي عهد عباس باشا الأول بن طوسون بن محمد علي فتحت أول مدرسة ابتدائية في الخرطوم في عام ١٨٥٣م .

عين بها رفاعة رافع الطهطاوي ناظراً ، وبيومي أفندي مدرساً أوّلَ وضابطاً . وكانت المدرسة على نمط المدارس المصرية ، تستوعب أبناء زعماء القبائل والمستخدمين الأتراك ، الدراسة فيها لثلاث سنوات ، وبها سكن لإيواء التلاميذ ، وتقوم المدرسة بتعليم القراءة والكتابة واللغة العربية والحساب ، وقد أغلقت هذه المدرسة في عهد سعيد .

وفي فترة الخديوي اسماعيل – (١٨٦٣م – ١٨٧٩م) – وفي حكمدارية موسى باشا حمدي ، تمّ افتتاح خمس مدارس في كل من بربر والخرطوم ودنقلا والأبيض وكسلا ، على نمط المدارس المصرية . إلى جانب اهتمام اسماعيل بالمدارس التي تدرس القرآن الكريم والعلوم الشرعية ودعمه لها .

وقد مدت هذه المدارس الإدارة التركية المصرية في السودان ، بالكتبة والمحاسبين ، ليحلوا محل المصريين ، وذلك لعدم رغبة المصريين في العمل في السودان ، إضافة لمرتباتهم العالية. لذا فقد كانت الحاجة ماسة لتدريب السودانيين، وتعليمهم ، لتقليل نفقات الإدارة. ومن ثم فقد فتِحَتْ في عام ١٨٧٠م، مدرستان لتدريب العاملين تدريباً مهنياً ، في كل من الخرطوم وكسلا ، كما نظمت فرق تدريبية في أعمال الطب والصيدلة ، يلتحق بها كل من أكمل التعليم الابتدائي.

وفي فترة الحكمدار ممتاز باشا ، أوفد بعض أبناء السودان لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكية ، وإدارة ماكينات الحلج وكبس الأقطان . وقد مدت المدارس الإدارة بالكتبة والمحاسبين وعمال التلغراف ، وأحدثت نهضة في الثقافة والأدب ، وكان التعليم قبل ذلك محصوراً في خلاوي القرآن الكريم ، ومجالس العلوم الشرعية .

وبعد اتساع رقعة البلاد بعد ضم بحر الغزال ودارفور وخط الاستواء ، أضحت الحاجة ملحة للموظفين والكتبة والعمال المهرة ، فتضاعف عدد التلاميذ بالمدارس .

أما في جنوب البلاد ، فقد انتشر التعليم التبشيري – المسيحي .

(١-١٠) مقاومة السودانيين للحكم التركي – المصري :

عندما دانت سنار لجيش اسماعيل بن محمد علي سنة ١٨٢١م ، خرج بجيشه إلى فازوغلي تاركاً ديوان أفندي سعيد ، والمعلم حنا الطويل ، لوضع الضرائب . وعندما أعلنت السياسة الضريبية ، ثارت سنار على ضريبة الحكم الجديد ، وبدأت الثورة تنتشر في المناطق الأخرى ، فخف اسماعيل إلى سنار وخفض الضريبة إلى نصفها ، وأمر الجباة بالرفق في جبايتها .

ولكن ثورات الضريبة استمرت طوال عهد الحكم التركي – المصري في السودان دونما انقطاع ، لأنها باهظة ، وتعددت أنواعها ، كما أن الذين أوكل لهم أمر جبايتها استخدموا طرقاً وحشية لجمعها، ومعاقبة من يتأخر في سدادها ، فقابلها السودانيون بالهروب إلى الحدود السودانية ، وفضلوا ترك مزارعهم وقراهم وتمردوا ضد الحكومة .

وهناك أمثلة كثيرة للحالتين ، فقد حدث في إقليم بربر الذي اشتهر بالزراعة والتجارة والعمل في السفن النهرية ، أن هاجر أناس كثيرون منه بسبب الضريبة ، إلى حدود كردفان الجنوبية ، وحدث أيضاً هروب أهالي التاكا إلى الحبشة تفادياً لضريبة الحكم.

ومن القبائل التي ثارت وتمردت على الضريبة :

١. المحس ، بقيادة الملك بخيت ، فأضرّ تمردهم بالسواقي ، وعرَّض الطريق المؤدي إلى مصر لأخطار كبيرة ، مما أجبر الحكومة أنْ تستخدم القوة للقضاء عليهم .
٢. البشاريون الذين قتلوا جباتها من جنود الحكومة .
٣. القراريش بزعامة شيخهم عيسى الذي هاجم قوافل الحكومة وسلب ممتلكاتها ، فتمكنت الحكومة من القضاء عليه بصعوبة بالغة

مما تقدم يتضح أن الثورات التي اندلعت في جميع أنحاء السودان هنا وهناك ، ضد ضريبة الحكم التركي – المصري ، ظلت منذ عام ١٨٢١م حتى قيام الثورة المهدية في السودان عام ١٨٨١م . وكانت نتيجة هذه الثورات تدمير الزراعة وبنياتها الأساسية ، خاصة وأن الاقتصاد السوداني آنذاك ، كان يعتمد علي الزراعة . وتعرضت الثروة الحيوانية أيضاً للتلف والإهمال ، فضلاً عن تعطيل الحركة التجارية ، وانقطاع طرقها في كثير من الأوقات . كما أنفقت الحكومة أموالاً طائلة ، وفقدت الجنود ، وأضاعت الوقت ، في سبيل القضاء عليها . وعليه فقد أصبحت ثورات الضريبة هاجساً لولاة مصر ، وكثيراً ما طرحوا معالجات ودراسات لوقف الثورات بإزالة مسبباتها ، إلا أنَّ ذلك لم يجدي .

ثورة الجنود السودانيين سنة ١٨٤٤م :

تم الاتفاق بين الجنود السودانيين على الثورة ضد الحكم لسوء المعاملة التي بلغت حد السخط والتبرم . وحُدد يومٌ معين تنطلق فيه الثورة من أربع حاميات – الخرطوم ، وسنار ، ومدني ، والكاملين – ولكن شاءت الاقدار أن يثور الجنود السودانيون في مدني – والبالغ عددهم خمسمائة جندي – قبل الموعد المتفق عليه ، أي يوم ١٨ مارس ١٨٤٤م . وسبب ذلك أن أحد هؤلاء

الجنود ، أخطأ أثناء التدريبات العسكرية ، فوجه له الضابط إساءة بالغة أمام زملائه ، ولم يتمالك الجندي نفسه ، فهجم على الضابط وأوسعه ضرباً ، فاختل النظام ، وانهال بقية الجنود بالضرب على الضباط ، واستولوا على بعض الأسلحة ، وهرب بعضهم إلى سنار . ولكن سرعان ما كشفت الحكومة خطتهم ، وتمكنت – بقيادة المنظم أحمد باشا المنكلي – من القضاء عليهم قبل تحركهم .

وبذل المنظم جهوداً كبيرة في احتواء ثورة مدني ، كما تمكنت قواته من هزيمة الثوار في سنار قبل أن يستفحل أمرهم . وشدد قبضته على الخرطوم والكاملين ، وضرب عليهما حراسة محكمة ، حتى تمكن من إعادة الأمن والنظام في الجزيرة والخرطوم ، وقضى على الثورات في مهدها .

ثورة الجنود السودانيين في حامية الأبيض سنة ١٨٦٤م :

تمرد في ١٨٦٤م جنود غير نظاميين من السودانيين في حامية الأبيض وغادروا ثكناتهم نحو مصر ، وتمّ القبض عليهم بالقرب من وادي حلفا ، حيث اعتقلوا وأودعوا السجن .

ثورة الجهادية في كسلا سنة ١٨٦٥م :

وفي ١٨٦٥م حدث تمرد آخر في كسلا ، عندما ثار الجهادية السود ضد الحكم القائم ، بحجة تأخير مرتباتهم ، وقسوة معاملة قوادهم الأتراك لهم . واستطاع الثوار احتلال مدينة كسلا لمدة تزيد على العشرين يوماً ، وضربوا حصاراً على الأهالي في منازلهم ، كما قتلوا بعض ضباط وجنود النظام الحاكم. ولم يكن في مقدور الحكومة القضاء عليهم بالقوة والعنف .

لهذا ، لجأت الحكومة إلى الوساطة ، حتى يتوصلوا إلى حل يَرْضَى عنه الثوار ، ويضعوا سلاحهم ، واتصلت الحكومة بالسيد الحسن الميرغني لما يتمتع به من نفوذ ديني قوي بين الجنود ، وكذلك استعانت بآدم بك العريفي أحد الضباط السودانيين ، وكان محبوباً بين الثوار وكلمته مسموعة وسطهم ، فاستجاب الثوار للوساطة ، ووضعوا سلاحهم بعد أن تأكدوا بأن الخديوية سوف تعفو عنهم . إلا أن الحكومة لم تبر بوعدها ، فغدرت بهم وقتلت بعضاً وسجنت بعضاً سجناً مؤبداً ، مع الأعمال الشاقة ، وسرَّحت آخرين .

وقد ترتب على هذه الثورة نتائج نجملها فيما يلي :

(١) خفض الخديوي اسماعيل عدد الجنود السودانيين إلى اورطه واحدة ، وحرمهم من المدافع ، وشدد عليهم باتباع القانون ، وألا ينضم إليهم أحدٌ من قبيلة الدينكا ، أو من الذين كانوا بالمدفعية .

(٢) رقى الخديوي الضابط آدم العريفي إلى رتبة اللواء ، وبالنيشان المجيدي الثاني ، مقابل جهوده في إقناع الثوار بوضع سلاحهم .

(٣) عزل الخديوي اسماعيل الحكمدار جعفر باشا صادق ، لدوره السلبي في إخماد ثورة الجهادية السود في كسلا ، وعين جعفر مظهر حكمداراً على السودان خلفاً له .

(٤) انتدب الخديوي شاهين باشا ناظر الجهادية في مصر ، للذهاب للعمل في السودان، والتعاون مع الحكمدار جعفر مظهر في إصلاح أحوال الجنود ، وإعادة تنظيم مالية السودان المتدهورة .

ثورة هارون في دارفور :

نعلم أن دارفور انضمت حديثاً للحكم التركي – المصري سنة ١٨٧٤م ، ولكنَّ أهل دارفور ثاروا بسبب فداحة الضرائب التي فرضها عليهم حكمدار السودان ، اسماعيل أيوب ، والمعاناة التي لاقوها في سدادها . لهذا تجمعوا حول هارون وجعلوه سلطاناً عليهم. اتخذ هارون جبل مرة معقلاً لثورته وحاصر الفاشر ، فقاد غردون جيشاً بنفسه وتمكَّنَ من فك الحصار المضروب على عاصمة دارفور ، فأجبر هارون على العودة إلى مقره في جبل مرة . مرة أخرى حاول غردون معالجة أسباب الثورة ، فخفض الضرائب ، وأمر باتباع سياسة الرفق في جمعها ، كما عزل عدداً مقدراً من الباشبوزق ، وأعاد عدداً من الجنود النظاميين إلى الأبيض ، بغية تخفيض منصرفات الإدارة التي وقعت على كاهل الأهالي .

ولكن هذه الإجراءات التي اتخذها غردون لم تسكت ثورة هارون ، فجدد ثورته، فعاد غردون مرة ثانية إلى الفاشر ، وتأكد لغردون أن الأحوال في

دارفور ، لن تستقر ولن تهدأ إلا إذا حكمها أحد أبنائها نيابة عن الحكومة فسعى لاختيار أحد أبناء السلطان ابراهيم المقيمين في القاهرة ، فتم اختيار المقدوم رحمة قومو بعد أن عزل حسن باشا حلمي من منصب مدير دارفور بدعوى عدم مقدرته وكفاءته .

ولكن هذه الإجراءات التي اتخذها غردون ، لم تأت أكلها، فعين مساداليه الايطالي مديراً عاماً على دارفور ، فالتقى مع هارون في عدة معارك ، انتهت بقتل هارون وهزيمة الفور سنة ١٨٨٠م ، ولكن سرعان ما التف الفور حول الأمير دود بنجة فاحتمى بجبل مرة وحصر نشاطه فيه ، حتى جاء محمد خالد زقل بجيش المهدية ، فدانت له دارفور سنة ١٨٨٤م .

تمرد صباحي في كردفان :

كان صباحي أحد قواد الزبير باشا ود رحمة ، وقد رفض مبدأ التسليم إلى جسي بينما وافق عليه سليمان ود الزبير . جمع صباحي حوله عدداً من الرجال وهاجم بهم مركز الأضية وقتل مأمورها وهرب إلى جبال النوبة ، وهناك لحق به عساكر غردون ، وتمكنوا من اعتقاله ، والحكم عليه بالإعدام .

وهكذا نلاحظ أنَّ السودانيين لم يستكينوا ، ويستسلموا للحكم التركي – المصري ، بل تعددت ثوراتهم رفضاً للاستعمار ، وفداحة الضرائب ، وسوء المعاملة ، والاستعانة بالأوربيين المسيحيين في الحكم .

وإن تمكن الاستعماريون من إخماد المقاومة السودانية بقوة السلاح الناري ، غير إن أهل السودان لم يصبهم اليأس والقنوط ، وحينما اندلعت الثورة المهدية في عام ١٨٨١م هبوا جميعهم لنصرتها واستبسلوا خلف قائدهم حتى حرروا البلاد .

أسئلة الباب الأول

(١) تعددت الأسباب التي دفعت محمد علي لفتح السودان . اكتب مقالاً يوضح ذلك .
(٢) ما الانعكاسات الداخلية والخارجية لمقتل اسماعيل باشا في شندي ؟
(٣) عدد أسباب ونتائج حملات الدفتردار الانتقامية .
(٤) اكتب تحليلاً للنظام الاقتصادي في عهد محمد علي باشا .
(٥) ما الاجراءات التي اتخذها عباس لتنظيم الإدارة ومحاربة الرشوة ؟ وهل نجح في ذلك ؟
(٦) تحدث عن أهمّ الإصلاحات الإدارية التي قام بها محمد سعيد ؟
(٧) تتبع توسعات الخديوي اسماعيل نحو الشرق والجنوب .
(٨) اكتب باختصار عن :
أ . ثورة الجهادية في كسلا ١٨٦٥م .
ب. ثورة هارون في دارفور ١٨٨٠م .

الباب الثاني

دولة المهدية

(٢) دولة المهدية

(٢-١) عهد المهدي (١٨٨١م – ١٨٨٥م) :

نشأة المهدي :

ولد محمد أحمد بن عبد الله بن فحل في جزيرة لبب في منطقة دنقلا عام ١٨٤٣م ، وتنتسب أسرته إلى الأشراف ، وهي أسرة ذات شهرة دينية .

وقد اشتهرت بصناعة المراكب والسواقي ، فبرع والده في هذه المهنة التي ازدهرت إبان الحكم التركي – المصري في السودان . وعندما شحت الأخشاب في منطقة دنقلا ، رحل والده إلى كرري شمال الخرطوم حيث واصل مهنته . لم تطل إقامته فيها ، إذ سرعان ما عاجلته المنية ، وبعد حين لحقت به زوجته . شب محمد أحمد يتيماً وأظهر – في وقت مبكر – عزوفه عن مهنة الأسرة ، ومال للعلم ، فدخل خلوة كرري ثم خلوة الخرطوم وانتقل منها إلى قرية كترانج في الجزيرة ، فتتلمذ على الشيخ الأمين الصويلح ، ووجد عنده مناخاً للدراسة أرحب .

ترامى إلى مسامعه شهرة خلاوي الغبش بالقرب من بربر ، فهاجر إليها وتتلمذ على شيخها محمد الخير عبد الله ، فنهل من علوم التوحيد ، والفقه ، ومبادئ التصوف ، فكان يمضي نهاره في حلقات الدرس والعلم ، وليله في التهجد ، فظهرت عليه علامات الصلاح والتقوى ، ومالت نفسه إلى الزهد والتقشف ، فرفض الأكل من جرايات الخلوة المشتبه في أمرها ، لأنها كانت مدعومة من الحكومة بالذرة والمال . علم الشيخ بأمر محمد أحمد ، وسره سلوكه ، فخصص له طعاماً من محصول سواقيه الخاصة .

وبعد فراغه من علوم خلوة الغبش ، فكر في الرحيل إلى مكان آخر ، عسى أن يجد فيه سعة من العلوم الدينية ، ومزيداً من التصوف . فرأى أن الحقيقة لا تنقلها الكتب وحدها إذ لا بد من أخذ الطريقة على شيخ مشهور ، فنمى إلى علمه شهرة خلوة أم مرحى – شمال الخرطوم – فقصدها ، وتتلمذ على شيخها محمد شريف نورالدائم ، حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير ، مؤسس الطريقة السمانية في السودان. فانكب على أذكارها وأورادها ، وفني في

صورة الإمام المهدي

خدمتها سبع سنوات . وكلما تفقد الشيخ حيرانه بالليل ، لم يجد محمد أحمد نائماً مثلهم ، بل يجده منكباً على العبادة والتهجد . فلفت نظر شيخه الذي اطمأن إلى إخلاصه وتجرده للطريقة ، فمنحه إجازتها ، وأذن له بالذهاب إلى أي منطقة يريدها ليعلم القرآن الكريم ، ويبشر بالطريقة السمانية نيابة عنه.

توجه محمد أحمد بعد حصوله على الإجازة نحو الخرطوم ، وتزوج ابنة عم له ، وحاول بادئ الأمر أن يكسب رزقه من عمل يده ، فعمل بالتجارة ولكنها تناقضت مع ميوله وما يؤمن به ، فهجرها للعمل بالاحتطاب وواجه فيه ما واجهه في التجارة، فتركها ولحق بإخوته في الجزيرة أبا على النيل الأبيض ، وكانوا قد رحلوا إليها سنة ١٨٧١م ، لنفس الأسباب التي انتقلت بها الأسرة من دنقلا سابقاً .

بدأ محمد أحمد في بناء خلوة لتعليم الحيران القرآن الكريم وعلومه ، كما بنى مسجداً لصلاة الجماعة ، فهرع إليه التلاميذ من أبا والقرى المجاورة لها ، وانخرطوا في خلوته . وسرعان ما لمع اسمه في منطقة النيل الأبيض ، وساعده موقع الجزيرة أبا الاستراتيجي كثيراً على إزدياد شهرته .

ظل محمد أحمد يتردد على شيخه محمد شريف في المناسبات ، وقيل إنَّه زين لشيخه منطقة النيل الأبيض ، وسعة الرزق فيها ، فأقام شيخه خلوة في العراديب بين الكوة وأبا ، إلا أنَّ شهرة محمد أحمد تجاوزت شهرة شيخه بشكل واضح في تلك المنطقة .

وعندما كان محمد أحمد مواصلاً لنشاطه في أبا وصلته دعوة من شيخه لحضور ختان أنجاله فلبى تلك الدعوة . وهناك رأى في هذه المناسبة أموراً لم تعجبه ، ولم يستطع كتم غيظه فأظهر عدم رضاه بمسلك شيخه المجافي لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، فوشى به واشٍ في الحال للشيخ ، فطرده على الفور من الطريقة السمانية ، فوقع عليه الطرد وقوع الصاعقة ، وفشلت جميع محاولات الوساطة لإعادة محمد أحمد إلى الطريقة السمانية .

لقد حزن محمد أحمد حزناً شديداً لما حدث ، لأن الطريقة السمانية أصبحت تجري في دمه ، وله أتباع وأحباب أخذوا الطريقة على يديه ، لذا حزّ في نفسه فراقها ، فمال للعزلة والخلوة والتأمل ، وأخيراً هداه تفكيره إلى أخذ إجازة الطريقة السمانية على يد الشيخ القرشي ود الزين ، أحد فروع الطريقة السمانية في السودان. والأخير أخذ إجازتها من الشيخ أحمد الطيب البشير رأساً.

فتنفس محمد أحمد الصعداء بعد أن أعاده الشيخ القرشي إلى حظيرة السمانية مرة ثانية ، فباشر نشاطه التعليمي في خلوته ومسجده بِجِدٍّ ومثابرة ، حتى توفي شيخه القرشي ود الزين في طيبة . فقرر أن يبني قبة على قبر شيخه تخليداً لذكراه وحفظاً للجميل الذي أسداه له إبان محنته عندما كان طريد الطريقة.

وبينما كان محمد أحمد منهمكاً مع حيرانه في بناء قبة شيخه ، قدم عليه رجل عليه علامات الإعياء والتعب من طول السفر ، يسمى عبد الله بن السيد محمد فتعرف على محمد أحمد ولازمه وقد ورد أنهما تكاشفا في أمر المهدي. وقد قيل أن عبد الله قد سبق أن أفصح بأمر المهدي للزبير باشا ود رحمة عندما دخل الفاشر منتصراً سنة ١٨٧٤م غير أن الزبير لم يعره انتباهاً .

(٢-٢) أسباب قيام ونجاح الثورة المهدية :

اختلف المؤرخون حول الأسباب التي أدت إلى قيام ونجاح ثورة المهدية سنة ١٨٨١م ، ويعزى ذلك لاختلاف أفكارهم ، ودوافعهم ، ووجهات نظرهم ، ويمكن إيجازها فيما يلي :

(١) العامل الديني :

نعلم ضغوط الدول الأوربية وهجمتها الشرسة على العالم الإسلامي والتي انتهت بوقوع معظم الدول الإسلامية تحت سيطرة وقبضة المستعمر الأوربي مما أدى إلى ظهور الحركات الإسلامية والوطنية لطرد المستعمر من ديار الإسلام . فالسودان لم يكن بمعزل عما يدور في ساحة العالم الإسلامي آنذاك فخرج من صلبه محمد أحمد المهدي الذي تربى تربية إسلامية حقيقية دفعت به لإعلان ثورة دينية لإقامة دولة الإسلام على غرار دولة الرسول ﷺ في المدينة . إذن تعد شخصية المهدي الدينية هي المحرك الأساسي للثورة ضد النفوذ الأوربي .

ولقد أفصح المهدي عن سبب ثورته في منشوراته وخطاباته ، بأنه يريد تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب والدخن ، وإقامة دولة الإسلام وإعادة مجدها.

(٢) فداحة الضرائب :

الضرائب التي فرضها الحكم التركي – المصري منذ احتلال سنار ، لم تكن مألوفة لأهل السودان من قبل ، فقد اعتادوا دفع الزكاة عن طواعية في عهد السلطنات الإسلامية . ولكن الضرائب جاءت ثقيلة ولم يتقبلها الأهالي ، وسرعان ما ثاروا ضدها. هذا فضلاً عن أن العملة التي تجبى بها ، لم تكن متوافرة آنذاك ، وقد فرضت نقداً بادئ الأمر ، مما أرهق كاهل الأهالي .أما جبايتها ، فقد كانت مصحوبة بقدر كبير من القسوة والفظاظة والإذلال ، فعذب الباشبوزق الأهالي ، وأجبروهم على الفرار من ويلاتها إلى أطراف البلاد . كل ذلك جعل أهل السودان يكرهون الحكم الجديد ، ويسعون إلى إزالته .

(٣) سياسة العنف :

لازم العنف الحكم التركي – المصري في السودان ، بدءاً بالسياسة التي اتبعها اسماعيل بن محمد علي باشا تجاه المك نمر وأهله الجعليين ، مما دفعهم لشق عصا الطاعة عليه والانتقام لكرامتهم بذلك الحريق المشهور . ثم جاءت حملات محمد الدفتردار الانتقامية امتداداً لتلك السياسة ، فنكل بالجعليين وعمل فيهم قتلاً وسبياً وإذلالاً ، بل لم تسلم من حملاته الانتقامية بعض القبائل الأخرى . ولما جاء عهد عثمان بك جركس – أول حاكم على السودان سنة ١٨٢٤م – واصل السياسة الانتقامية السابقة فاقترن الحكم التركي – المصري في أذهان أهل السودان بالظلم والقسوة والقتل ، فأصبحوا يتحينون الفرص للتخلص منه .

(٤) سياسة فرِّق تَسُدْ :

ومن السياسات التي أظهرت استياءً واضحاً عند الأهالي ، استعانة حكام العهد التركي – المصري في السودان ببعض القبائل دون الأخرى ، وبتفضيل ومحاباة بعض الطوائف الدينية دون غيرها . فلا غرابة أن هذه السياسة الاستعمارية التي اتبعها الحكم التركي – المصري ، أدت إلى تأليب القبائل والطرق الدينية ، وسخطها وتبرمها من النظام ، فسعت جادة لإزالته بشتى الطرق .

أسباب نجاح الثورة :

(١) ضعف الجهاز الإداري في الحكمدارية ، وتقلبه المستمر بين المركزية واللامركزية الإدارية ، علاوة على تعاقب الحكمداريين على حكم السودان لفترات قصيرة ، فترتب على ذلك ضعف الإدارة في المديريات ، فاستفاد المهدي من ذلك كثيراً ، فسقطت في يده المديرية تلو الأخرى .

(٢) ضعف الحاميات العسكرية في السودان ، ويعزى ذلك لقلة الجنود وإهمال التدريبات العسكرية ، وبدائية الأسلحة ، وهي التي دخل بها الجيش التركي – المصري السودان منذ ١٨٢٠م . كما أنَّ الحاميات كانت موزعة على أماكن نائية وبعيدة مع صعوبة المواصلات ، ووعورة المسالك .

(٣) التطورات السياسية في مصر ، واندلاع الثورة العرابية عام ١٨٨٢م ، شغلت الخديوي توفيق كثيراً ، فلم يعر أمر السودان وثورته اهتماماً كبيراً ، فانتهز المهدي هذه السانحة ، وتمكن من القضاء على الحاميات التركية – المصرية في السودان بسهولة ويسر . وعندما فرغ الخديوي من الثورة العرابية، وجد ثورة المهدية قد استفحل أمرها واستحال القضاء عليها بسهولة .

(٤) الفراغ السياسي الذي حدث في مصر بإقالة الخديوي اسماعيل ، وما تبعه من فراغ سياسي مماثل في السودان باستقالة الحكمدار غردون . فالخديوي خلفه إبنه توفيق ، وكان ضعيفاً ، فأصبح ألعوبة في يد بريطانيا. والحكمدار غردون خلفه محمد رؤوف ، وهو أيضاً شخصية ضعيفة مترددة ، لذا أصبح الحاكمان في مصر والسودان ضعيفين . استفاد المهدي كثيراً من هذه الظروف في ثورته فتمكن خلال فترة وجيزة من إقامة دولته بعد تحرير عاصمة الحكم التركي – المصري في السودان .

(٥) فهم بريطانيا الخاطئ لطبيعة ثورة المهدية ، مما حجبها عن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، علاوة على انشغالها بحربها ضد روسيا في بلاد الأفغان ، الأمر الذي مكن المهدي من إنجاح ثورته .

خلاصة القول بعد أن توافرت أسباب قيام الثورة سابقة الذكر جاءت شخصية المهدي الدينية فحركت تلك الأسباب فاندلعت شرارة الثورة في الجزيرة أبا في أغسطس عام ١٨٨١م ، وظلت الثورة تنتقل من نصر إلى نصر آخر.

ولم يمض وقت طويل حتى تم للمهدي تحرير الخرطوم ، والاستيلاء على معظم أراضي السودان .

(٢-٣) وقائع الثورة المهدية من أبا حتى تحرير الخرطوم ١٨٨١م – ١٨٨٥م :

دعوة المهدية :

عاد الشيخ محمد أحمد إلى الجزيرة أبا بعد فراغه من بناء قبة شيخه القرشي ود الزين واتجه بتفكيره إلى التخطيط لمقاومة الحكم التركي – المصري الذي ظل جاثماً على صدور أهل السودان ما يربو على الستين عاماً ، يرهبهم ويفزعهم بسلاحه الناري . وهكذا بدأ الشيخ محمد أحمد يضع خطته الحربية التي يستطيع بمقتضاها أن يبطل فعالية السلاح الناري ، وهذا لا يتأتى له إلا في الأماكن النائية التي تكثر فيها الأشجار والأدغال والجبال ، وأن تكون أيضاً وعرة المسالك .

ومن أجل ذلك خرج الشيخ محمد أحمد وبعض أتباعه في أواخر عام ١٨٨٠م إلى كردفان ، فيما عُرف بالسياحة الأولى ، (الدعوة السرية) ومن خلالها تعرف طبيعة المنطقة التي يود مقاومة الحكومة منها ، إضافة إلى تعرفه أهلها ، ونشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، وشحذ همم الناس للآخرة ، وتزهيدهم في إقبالهم على الدنيا . فزار مدن كردفان وجبال النوبة ، وكثف نشاطه الدعوي في مساجدها فعرف أهل كردفان وعرفوه .

عاد الشيخ محمد أحمد إلى كردفان مرة أخرى في مطلع ١٨٨١م ، وقد عرفت بالسياحة الثانية، (الدعوة الجهرية)، فزار الأبيض وجبال النوبة، وواصل نشاطه الديني السابق ، وأسرّ بدعوة المهدية لبعض زعماء الأبيض ، أمثال الياس باشا أمبرير ، وأولاد سوار الذهب ، وأولاد العريق ، وآدم أم دبالو ملك تقلي. وبذلك اطمأن الشيخ محمد أحمد على طبيعة أرض المقاومة المرتقبة، كما اطمأن أيضاً على أهلها . ثم رجع إلى أبا وشرع في تنفيذ خطة المقاومة ، وقرر الهجرة إلى قدير عقب عيد الفطر المبارك مباشرة ، سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م ، على أن تنطلق شرارة ثورته من هناك .

وطفق الشيخ محمد أحمد في تحرير خطابات إلى أحبابه وبعض رجال الدين الذين يثق فيهم ، يدعوهم لنصرتة ، فحثهم على الجهاد ورغبهم فيه ، وناشدهم الهجرة إليه في قدير في عيد الفطر المبارك ، وتسرّب أحد خطاباته إلى الحكمدار محمد رؤوف .

معركة أبا – أغسطس ١٨٨١م :

لم يعر الحكمدار محمد رؤوف الأمر بالاً كبيراً لعدة أسباب منها ، لم يحدث من قبل أن ثار فقير أو رجل دين وناصب الحكومة العداء لما عرفوا به من الضعف والمسكنة ولو صح ذلك تكون انتابته حالة جذب روحي يفيق منها بعد قليل ويعود إلى رشده . كما عزاه للعداء بين الشيخ محمد شريف وتلميذه محمد أحمد . وعلى الرغم من تلك المبررات أرسل نائبه (معاون) محمد أبو السعود لمراجعته ، لما له من معرفة لصيقة بإخوة الشيخ محمد أحمد عندما كان وكيلاً لشركة العقاد سابقاً ، وكان بصحبته بعض أعيان الخرطوم وأقارب الشيخ محمد أحمد ، لإنجاح المهمة .

وعندما رست وابور محمد أبو السعود والوفد المرافق له في أبا ، وتمت مقابلته للشيخ – وجده متمسكاً برأيه ، ولم ينكر أمره رغم تهديد أبو السعود وتوعده له . ولمّا ضاق أبو السعود ذرعاً بصلابة الشيخ محمد أحمد وتمسكه ، تلا عليه قوله تعالى ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ...** ﴾ (النساء : ٥٩) فرد الشيخ على الفور بقوله : (أنا ولي الأمر في هذا الأوان ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ....) فخف أبو السعود راجعاً إلى حكمداره ليبلغه بما حدث .

جهز محمد رؤوف في الحال بلوكين مسلحين بأحدث أسلحة الحكمدارية، فيهما خيرة العساكر ، ومع كل بلك مدفع ، ويقود الحملة نائبه محمد أبو السعود بنفسه ، بغية إحضار الشيخ عنوة للخرطوم ، أو القضاء التام عليه . وأبرق في الحال القاهرة بالإجراءات التي اتخذها ، وطمأن الخديوية بقوله " ومن المأمول القضاء عليه . " أما الشيخ فتيقن ان الحكومة لا يمكن أن تسكت على فعلته ، وستسعى للقضاء عليه بقوة السلاح ، فكاشف أتباعه بالأمر وصارحهم قائلاً : من أراد الجهاد معنا فليبايعنا بيعة الحرب ومن كان بيته عورة فليذهب إلى أهله

وبيعتي معه بيعة عقيدة . فشرع في تدريب أتباعه ، ورسم خطته الدفاعية لهم . وزاد عددهم على الثلاثمائة قليلاً واستعد لمقابلة جيش الحكومة المرتقب .

وصلت حملة أبو السعود الجزيرة أبا قبل الفجر ، فعلم المهدي بأمرها فانتظمت راياته مختفية وراء الأشجار ، حسب ما خطط لها ، فسار الجنود إلى القرية بصورة غير منتظمة ، وفجأة باغتهم أنصار المهدي ، وأصابوا منهم مقتلة عظيمة ، وقليل منهم تمكن من اللحاق بالوابور التي عادت مسرعة إلى الخرطوم . وكسب المهدي كسباً مادياً ومعنوياً ، حيث التف الناس حوله ، وتيقنوا أنها كرامة تدل على صحة دعوى المهدي .

وفي اليوم التالي للمعركة ، قرر المهدي الهجرة إلى قدير . وعندما بلغ محمد رؤوف خبر هزيمة حملة أبي السعود ، انزعج كثيراً وأرسل على الفور خمسمائة من عساكره إلى الكوة وأمر مدير كردفان بالإنضمام إليهم بقواته والتوجه بسرعة إلى المهدي في أبا ، للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره . وعندما وصلت قوات محمد سعيد إلى أبا ، علمت بأن المهدي قد غادرها إلى قدير ، وظل يتتبع أثره ويطارده حتى دخل قدير ، وقفل راجعاً إلى الأبيض ، ولم يستطع التصدي لقواته .

حملة راشد بك أيمن ، ديسمبر ١٨٨١م :

كانت الجزيرة أبا تتبع لمديرية فشودة ، وكان مديرها راشد بك أيمن المصري ، فنمى إلى علمه الحالة السيئة التي يعيشها المهدي وأتباعه في قدير ، وقد تفشت الحمى بينهم ، وأضناهم الجوع ، فاستأذن الحكمدار أن يهاجم المهدي في عقر داره فلم يأذن له . ولكن رغم ذلك فقد قاد حملة للقضاء على المهدي كان قوامها ٣٥٠ جندي نظامي ، وألف من الشلك على رأسهم مكهم كيكون ، وخطتهم كتمان خبر الحملة والسير بسرعة لمهاجمة المهدي ومباغتته ، إلا أنَّ امرأة تدعى رابحة الكنانية ، عرفت أمر الحملة ، فظلت تسابقها جرياً حتى كشفت للمهدي أمرها. فحشد المهدي رجاله ، وكان عددهم ٨ ألف مقاتل ، وخرج بهم إلى غابة بالقرب من قدير ، ينتظر مقدم حملة راشد بك . وصلت الحملة وهي منهوكة القوى بسبب السير السريع المتواصل ، فاشتبك الجيشان في ٩ ديسمبر ١٨٨١م ، وهُزمَت الحملة وقتل راشد وكيكون وأغلبية رجالهما ، ولم ينج منهم إلا الذين فروا إلى فشودة. انتهت المعركة بنصر آخر حاسم للمهدي ،

وغنم أموالاً وأسلحة وذخائر ، وأسر منهم ١١١ رجلاً . فأخذ الناس يفدون على المهدي زرافاتٍ ووحدانا .

وعندئذٍ أدرك الحكمدار محمد رؤوف خطورة الموقف وتعقيده ، فأرسل إلى القاهرة يناشدها المدد ، وظل ينتظره حتى مطلع مارس ١٨٨٢م . وكانت مصر تشهد وقتها اضطراباً شديداً بسبب قيام الثورة العرابية . وقد رأى المسؤولون في مصر أن انتصارات المهدي تعزى لضعف الحكمدار محمد رؤوف فعينوا عبد القادر حلمي خلفاً له .

حملة الشلالي باشا – مايو ١٨٨٢م :

غادر محمد رؤوف الخرطوم قبل أن يصله عبد القادر حلمي ، فتولى الحكمدارية بالإنابة جقلر باشا الذي أرسل برقية للقاهرة يلح على الحكومة أن تأذن له بإرسال حملة قوية للقضاء على المهدي في قدير قبل أن يشكل خطورة على الدولة ، فأذنت له الحكومة بالحملة ، فحشد جيشاً يقدر بثلاثمائة (٣٠٠) جندي منظم ، وألف وخمسمائة (١٥٠٠) من الباشبوزق والخطرية ، وعقد لواء الحملة إلى يوسف حسن الشلالي .

تحرك الشلالي بجيشه من الكوة في منتصف مايو ١٨٨٢م ، قاصداً فشودة ومنها اتجه غرباً ، فأتته نجدات من كردفان ، حتى وصل فنقر ، فمكث فيها طويلاً ، وبعث برسالة إلى المهدي مطولة ، حملت اعتراضه على أسلوب المهدي ومعاملته للخصوم ، وقصد من ورائها أن يحارب المهدي حرباً نفسية ، فرد عليه المهدي برسالة مماثلة ، حاربه فيها معنوياً ، وختمها بقوله ((فليس لكم عندنا إلا الرماح الطعان والسيوف السنان)) .

وأخيراً التحم الجيشان في معركة شرسة انتصر فيها جيش المهدي بتفوق عدده وصبر رجاله ، وانجلت المعركة ولم ينج من جيش الشلالي إلا القليل الذي اختفى وراء الأشجار والوديان ، أو اتجه نحو فشودة . وغنم المهدي الكثير من النقود ، والملبوسات ، والدواب ، والأسلحة والذخائر ، إضافة إلى كسبه المعنوي ، المتمثل في الأعداد الكبيرة والوفود التي وصلت إليه من أنحاء السودان ، علاوة على اندلاع الثورات ضد الحكومة في مناطق متفرقة من الجزيرة ، أمثال ثورة عامر المكاشفي ، والشريف أحمد طه ، وفضل الله ود كريف ، وود الصليحابي ، وود برجوب ، وأحمد المكاشفي . وبعد أن وصل

الحكمدار الجديد إلى الخرطوم في مايو ١٨٨٢م ، تمكن من القضاء على تلك الثورات ، وشتت شملها . كما عمد الحكمدار الجديد أنْ يشن حرباً إعلامية على المهدي فكلف لجنة من العلماء لتكذيب دعواه .

غزو المهدي الأبيض في يوليو ١٨٨٢م :

هناك دوافع دفعت المهدي لغزو الأبيض ، منها أن الحكمدار عبد القادر حلمي امتنع عن إرسال حملة له في قدير مرة أخرى ، وبالتالي لا معنى لوجوده فيها . وأيضاً ضاقت قدير بالوفود والجيش ، حتى أصابهم الجوع ، علاوة على اندلاع الثورات في مناطق متفرقة في كردفان ولم تبق من المدن إلا الأبيض ، وبارا ، والدلنج . لهذه الأسباب مجتمعة ، قرر المهدي غزو الأبيض ، وتحرك بجيشه من قدير ، وكتم خبر جهته حتى وصل إلى كابا ، التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية من الأبيض ، وتبعد منها حوالي الستة أميال .

أما محمد سعيد ، فقد حفر خندقاً حول الأبيض في شكل مربع ، وشيد فيه خمسة أبراج جعل على كل زاوية فيه برجاً ، وشيد البرج الخامس في وسط الضلع الشرقي ، تجاه مركز المديرية . وباتت جيوش المهدي التي بلغ قوامها خمسين ألف مقاتل ، حول الخندق ، وفق الخطة الحربية التي رسمت في كابا . وفي يوم الجمعة ٨ سبتمبر ١٨٨٢م ، هاجم الأنصار مدينة الأبيض بعد صلاة الفجر ، فواجههم العساكر بالمدافع والبنادق ، ومات مخنوقاً في الخندق كل من لم تحصده نار المدافع . وما إن جاء ظهر ذاك اليوم ، إلا وقتل من الأنصار عشرة ألف رجل فنادى منادي المهدي بوقف القتال ، وعسكروا في منهل الجنزارة بالقرب من الأبيض .

أعلن المهدي بعد يومين من الهجوم ، حصار الأبيض، وبارا ، والدلنج ، ثم كون فرقة الجهادية (حملة السلاح الناري) ، تحت قيادة حمدان أبو عنجة ، فكانت أول مرة يستعمل فيها المهدي السلاح الناري . وكان يتمسك من قبل بأن يحارب بنفس السلاح الأبيض الذي حارب به الرسول صلى الله عليه وسلم . وهكذا فإن معركة الجمعة ، صححت مفهوم الأنصـــار ، بأن من أراد النصر ، لا بد من أن يأخذ بأسبابه .

سلمت حامية الدلنج للمهدية في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م . أما حامية بارا ، فقد صمدت طويلاً ، وظلت تترقب قدوم حملـــة الإنقاذ القادمة من الخرطـــوم ،

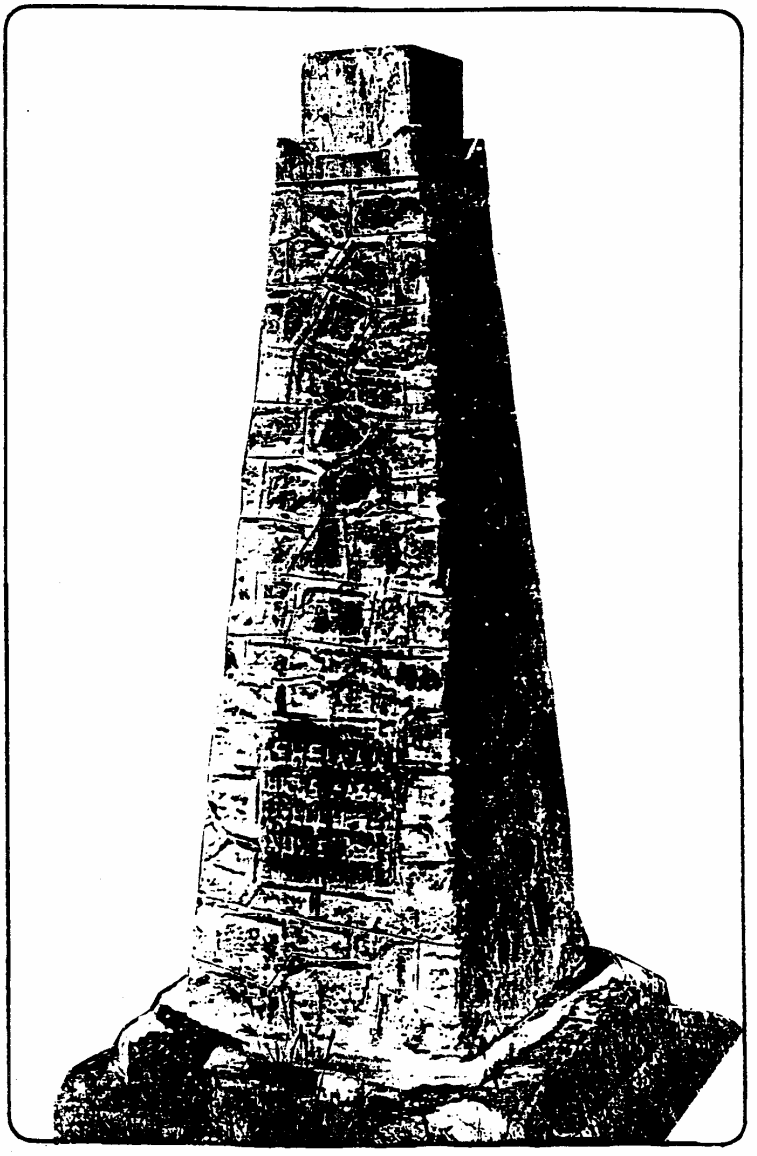

نصب تذكاري لموقع مقتل هكس باشا ·

ولكن الأنصار تمكنوا من القضاء على حملة الإنقاذ وهي في طريقها إلى بارا ، فانقطع عشم الحامية ، وضاقت حالها ، فكتبوا للمهدي أن يرسل لهم من يسلمونه الحامية فأرسل إليهم عبد الرحمن النجومي فتسلمها في ٥ يناير ١٨٨٣م .

بعد ذلك أحكم المهدي وأنصاره حصارهم على الأبيض ، فكتب محمد سعيد مديرها خطاباً للحكمدار عبد القادر حلمي ، في أواخر ديسمبر ١٨٨٢م ، صور فيه الحالة المتردية التي آلت إليها الأبيض حيث جاع الناس حتى أكلوا الفئران ، والجلود اليابسة ، وضايقوا النمل في بيوته . ولكن الحكمدار لم يكن يملك القوة التي ينقذ بها الموقف وأصابه اليأس فطلب من الخديوي أن يعفيه من منصبه ، متعللاً بظروفه الصحية ، ولكن الخديوية رفضت طلبه ، غير أنها عادت بعد عشرة أيام وعزلته ، وعينت علاء الدين باشا حكمداراً على السودان. ولعل تطورات الأوضاع في مصر والسودان ، وتأزم موقف حامية الأبيض ، أجبرت محمد سعيد آخر الأمر ، لتسليم الحامية للمهدي في ١٩ يناير ١٨٨٣م .

انطلاقاً مما سبق فإن تحرير الأبيض يعني أنَّ كردفان كلها أصبحت في يد المهدي . وقد ترتب على ذلك انعزال دارفور ، وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، عزلاً تاماً عن الخرطوم عاصمة الحكمدارية ، كما أصبح لزاماً على انجلترا التعاون مع الحكومة المصرية ، بسياستها وببعض ضباطها ، خاصة بعد احتلالها لمصر منذ سبتمبر ١٨٨٢م .

حملة هكس باشا – نوفمبر ١٨٨٣م :

بدأت حكومة بريطانيا التدخل في شؤون السودان ، فأرسلت الضابط البريطاني ، الكولونيل استيوارت ، إلى السودان لتقصي الحقائق حول الأوضاع هناك . فطاف على أنحاء السودان المختلفة ، ورفع توصياته . أما الحكومة المصرية ، فقد أصرّت من جانبها أن تقضي على الثورة المهدية ، والتمسك بالسودان . فعينت علاء الدين حكمداراً على السودان ، وسليمان نيازي قمندانا للعساكر ، (قائد عام) على أن يكون هكس باشا – الضابط البريطاني – رئيساً لأركان حرب الجنود . كما صدرت الأوامر إلى سليمان نيازي للعمل باستشارة هكس ، إلا أنَّه تمسك بحقه في أن تكون جميع السلطات العسكرية بيده ، ما دام هو القائد العام . لذا فقد نشب الخلاف بينهما ، فحسمه الخديوي بنقل سليمان إلى حكمدارية سواحل البحر الأحمر ، لينفرد هكس بمنصب القائد العام ، على الرغم

من أن الخديوية كانت تتحاشى أن يكون قائد الجيش مسيحياً ، لأنه سيواجه جيشاً إسلامياً فتتحول بذلك المعركة لمعركة دينية (صليبية) .

وتمت استعدادات هكس ، وبدأت تتجمع الحملة في الدويم في أواخر يوليو عام ١٨٨٣م ، فتألفت الحملة من الضباط العظام المصريين والبريطانيين ، واثني عشر ألف جندي ، معظمهم من بقايا جيش عرابي . كما صاحبت الحملة أجهزة الإعلام المختلفة . وتم حشد أعداد كبيرة من دواب النقل لحمل المواد الغذائية ، والأسلحة والذخائر . لهذا كانت الحملة ضخمة لم يشهد السودان مثلها من قبل .

غادرت الحملة الدويم في ٢٧ سبتمبر ١٨٨٣م ، وكان أمامها طريقان إلى الأبيض ، طريق بارا (الشمال) وطوله ١٣٥ ميلاً ، والطريق الثاني طريق شات (الجنوبي) تكثر فيه المياه ولكنه طويل يبلغ ٢٥٠ ميلاً وتسكنه قبيلتا الجوامعة والغديات اللتان أعلنتا عن ولائهما للمهدية. فتمسك هكس بالطريق الشمالي (بارا) ، بينما رأى الحكمدار علاء الدين أنّ الطريق الجنوبي أفضل . وبعد مداولات سلكت الحملة الطريق الجنوبي (شات) .

كما نشب خلاف آخر بينهما ، سببه أنَّ هكس كان يرى أن يترك خلفه حاميات صغيرة تتكون كل حامية من مائتي جندي لحفظ خط الاتصال والرجعة للخرطوم ، إن تعرضت الحملة للهزيمة ، بينما اعترض علاء الدين على ذلك ، وكان يرى أن هذه الحاميات الصغيرة لا تستطيع أن تحفظ نفسها ، ناهيك عن خط الإتصال . كما أن العربان يمكن أن ينقضوا عليها بسهولة ، وأن الاثني عشرة محطة المزمع قيامها ستؤدي حتماً إلى تناقص الجيش المراد به القضاء على المهدي في الأبيض . وإزاء هذا الخلاف ، عقد هكس مجلسه ، وبعد النقاش المستفيض ، أقروا رأي علاء الدين بأن يسير الجيش بأكمله .

نعود إلى المهدي في الأبيض لنرى ماذا فعل ؟ نقلت عيون المهدي أخبار حملة هكس قبل تحركها من الخرطوم أولاً بأول ، فأعلن الاستنفار العام ، وبنى معسكره في شجرة تبلدي خارج الأبيض . ثم شرع في جمع الأسلحة وصيانتها ، والتدريبات العسكرية المكثفة الشاقة نهاراً ، والمواعظ وشحذ الهمم ليلاً ، وكان مجلسه الحربي في حالة انعقاد دائمة . وعندما تحركت حملة هكس من الدويم ، أرسل المهدي إليه حملة للمناوشة ، قوامها ثلاثمائة فارس يحملون أسلحة نارية ، بقيادة الأمير محمد عثمان أبو قرجة . وكانت مهمتهم مناوشة

الحملة كلما سنحت لهم الفرصة ، وأن لا يشتبكوا معها في أي معركة فاصلة ، وأن تنقل إلى المهدي أخبار هكس بانتظام ، كما أصدر المهدي الأوامر بإخلاء القرى التي تقع على خط سير الحملة ، وأن تطمر الآبار ، حتى لا تجد الحملة شيئاً تستفيد منه .

ومن ثم واجهت حملة هكس كثيراً من الصعاب عندما ظهرت حملة المناوشة في قرية العقيلة ، فأجبر جيش هكس للسير في هيأة مربع وسط الغابات الكثيفة ، وأصبحت الدواب محصورة وسط الحملة ولا تجد فرصة للرعي وإذا أتيحت لها الفرصة اختطفها رصاص فرسان أبي قرجة مما عرضها للهزال والموت ، فأصبح هكس في حاجة لدواب ، ولكنه لم يجدها . وعندما يأوى الجنود للنوم ليلاً ليخلدوا للراحة بعد سيرهم طوال النهار ، كان رصاص حملة المناوشة ينهال عليهم ، فأصبحوا لا ينامون ليلاً هذا فضلاً عن شح المياه. لهذا عانى الجنود معاناة نفسية كبيرة ، خاصة وأنهم من العرابيين المغضوب عليهم. والدليل على معاناة أفراد الجيش ، هروب بعضهم إلى معسكر المهدي .

وذهب المهدي أبعد من ذلك ، حيث بث منشورات تحمل إنذاره للحملة قبل وصولها إلى الرهد ، فعمد لمحاربتها حرباً معنوية جاء فيها قوله ((لا يخفى على كل ذي عقل ، أن الأمر بيد الله ، لا يشركه في ذلك بنادق ، ولا مدافع ، ولا صواريخ ، ولا عصمة لأحد إلا لمن عصمه الله .. وأسوتكم ما سبقكم من الجنود والسلام)) وعلى الرغم من حرص هكس ألا تصل المنشورات إلى أيدي الجنود إلا أن بعضها قد وصل فعلاً .

خرج المهدي بجيشه لملاقاة جيش هكس ، بعد مغادرته الرهد مباشرة ، فالتقى الجيشان في غابة شيكان في ٥ نوفمبر ١٨٨٣م ، وبعد قتال مستميت أبيدت حملة هكس ، ولم ينج منها إلا نذر قليل .

نتائج معركة شيكان :

(١) كسب المهدي مادياً ، حيث غنم عتاد حملة كاملة بما فيها من الأسلحة الثقيلة والخفيفة الحديثة ، والذخائر ، والمعدات ، والدواب .
(٢) كسب المهدي معنوياً، حيث توافدت عليه وفود من داخل السودان وخارجه.
(٣) أرسل المهدي الأمير محمد خالد زقل لضم دارفور .

(٤) أرسل المهدي الأمير كرم الله كركساوي بقوة مماثلة لضم بحرالغزال .
(٥) أصبح طريق المهدي إلى الخرطوم مفتوحاً .
(٦) أصاب الذعر والخوف الحكمدارية في الخرطوم ، فعمدت لسحب الحاميات البعيدة وتجميعها في الخرطوم ، كما بدأ بعض الموظفين يتعللون بالمرض للنزول إلى القاهرة .
(٧) أبدت بريطانيا رغبتها في إخلاء السودان .

ضم دارفور في يناير ١٨٨٤م :

نعلم أن سلطنة الفور الإسلامية انضمت مؤخراً للحكم التركي – المصري في سنة ١٨٧٤م ، ولم تستقر أحوالها لحدوث ثورة هارون وثورات الأهالي على الضرائب الفادحة . ولم تمض سبع سنوات على الحكم التركي – المصري في دارفور ، حتى اندلعت الثورة المهدية ، وسرعان ما انخرط أهل دارفور فيها ، وأصبحوا أنصاراً لها .

لقد هاجر مادبو – أحد زعماء الرزيقات – إلى المهدي في قدير ، وشهد معه معركة الشلالي ، فعينه المهدي أميراً على دارفور ، وأعلن الثورة هناك ، وكان مديرها آنذاك سلاطين باشا النمساوي . فالتف الناس حول راية المهدي ، والتقى رجال مادبو بجيش سلاطين في معركة أم وريقات في أكتوبر ١٨٨٢م ، وهُزمَ سلاطين هزيمة نكراء ، فقفل راجعاً إلى دارا . وهناك بدأت روح العصيان تدب في حاميته ، خاصة بعد أن أصبحت الأبيض في يد المهدي ، فشعر سلاطين أنه أضحى في موقف حرج ودقيق، فأعلن إسلامه أمام الحامية ، ليفوت عليهم فرصة التمرد ضده ، بحجة أنه مسيحي .

تعلق سلاطين باشا بحملة هكس ، وعقد أمله على انتصارها ليخرجه من الحالة التي يعيشها ، ولكنها منيت بالهزيمة . وعقبها مباشرة أرسل المهدي قريبه الأمير محمد خالد زقل على رأس جيش قاصداً دارا ، وعلى مقربة منها كتب خطاباً لسلاطين يدعوه للتسليم فسلم له دارا في أواخر ١٨٨٣م ثم زحف زقل بجيشه إلى الفاشر فدانت له في يناير ١٨٨٤م .

ضم بحر الغزال في أبريل ١٨٨٤م :

لقد ضربت الفوضى أطنابها في بحر الغزال بعد سفر الزبير باشا إلى القاهرة سنة ١٨٧٥م ، وبناءً على نصيحة والده ، سلم سليمان بحر الغزال للايطالي جسي الذي أصبح مديراً عليها ، ولكنه قدم استقالته ، فخلفه عليها لبتن بك الانجليزي سنة ١٨٨٠م ، وكان صغيراً مغامراً يجهل طبائع البلاد ولغتها ، وحينما علم زعماء القبائل الجنوبية في بحر الغزال بثورة المهدي ، ذهبوا إليه في قدير وبايعوه ، فأمرهم بالعودة إلى بلادهم ، وطرد الأتراك منها ، وحكم بلادهم . فانطلقت ثوراتهم ضد لبتن منذ مطلع ١٨٨٢م ، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على قوة الحكومة .

وكذلك جاء وفد من دناقلة بحرالغزال إلى المهدي في الأبيض ، وشهدوا معه معركة شيكان ، وبعدها أرسلهم المهدي على رأس قوة لضم بحر الغزال تحت قيادة الأمير كرم الله كركساوي ، وفرض حصاراً على لبتن بك ورجاله ، وبعد جهد جهيد استسلم لبتون بك في أواخر أبريل ١٨٨٤م .

الثورة المهدية في شرق السودان :

والحديث عن المهديـــة في شرق السودان ، ارتبط بشخصيتين مهمتين هما : عثمان دقنة الذي ينحدر من أسرة أصلها من الأكراد ، جاءت إلى سواكن وعملت بالتجارة بين سواكن والحجاز ، فتصاهرت مع البجة واختلطت معهم . لحق عثمان بالمهدي في الأبيض وبايعه فعينه أميراً على الشرق . أما الشخصية الأخرى فهي ، الشيخ الطاهر المجذوب ، من سلالة المجاذيب بالدامر وهم أهل علم وصلاح وكان للطاهر نفوذ ديني وتلاميذ في شرق السودان .

بدأ عثمان دقنة والشيخ الطاهر يبشران بالمهدية في الشرق في مطلع أغسطس سنة ١٨٨٣م ، وحرضا قبائل البشاريين والأمرأر على الثورة ضد الحكومة ، ثم قصدا سنكات لنفس الغرض، ووجدت دعوتهما استجابة من البجة، فانخرطوا تحت راية المهدية لكراهيتهم للحكم التركي – المصري ، لأنه أساء معاملتهم ، وسجن عدداً من قادتهم بعد أن نقضت الحكومة الاتفاقيات التجارية معهم .

صورة عثمان دقنة

في البداية هاجم عثمان دقنة برجاله سنكات ، ولكن حاميتها ردته على أعقابه ، كما تعرض لهزيمة أخرى في معركة قباب في سبتمبر ١٨٨٣م ، ولكنه تمكن من قطع خط التلغراف بين سواكن وكسلا . ولم يجد اليأس إلى قلب عثمان دقنة سبيلاً ، فظل يكر ويفر على حامية سنكات حتى تمكن من هزيمتها وضمها إلى المهدية في فبراير ١٨٨٤م . كما ضم طوكر أيضاً في فبراير ١٨٨٤م . وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلها ، لم يتمكن من ضم سواكن بسبب الحامية البريطانية التي تحرسها . فظلت صامدة حتى مجئ الحكم الثنائي للسودان سنة ١٨٩٨م .

ومن أهمّ نتائج ثورة عثمان دقنة في الشرق ، تمكنه من قطع طريق سواكن – بربر – الخرطوم ، وعليه فقد رأت الحكومة المصرية إرسال قوة من الباشبوزق بقيادة فالنتين بيكر تساعده قوة من السود . حاولت قوات فالنتين فك الحصار المضروب على طوكر ولكنها منيت بهزيمة نكراء ، ثم أرسلت الحكومة البريطانية حملة أخرى بقيادة جراهام لإنقاذ طوكر ، وإبعاد الخطر عن سواكن ، وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الحملة ، إلا أنها انسحبت إلى سواكن ، وعادت طوكر وسنكات مرة أخرى لقبضة عثمان دقنة القوية ، فضلاً عن انقطاع طريق سواكن – بربر .

سياسة إخلاء السودان :

تطورت الأحداث في السودان بعد هزيمة هكس ، أجبرت بريطانيا للتخلي عن سياستها السابقة ، والقاضية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للسودان ، خاصة وأنها أصبحت بحكم احتلالها لمصر ، مسؤولة عما يجري في السودان ، وادعت أن خطر المهدي أصبح الآن يقترب من مصر نفسها ، وحري بها أن تتخذ الإجراءات التي تمكنها من الدفاع عن مصر . وهكذا تدرجت بريطانيا في التخلي عن سياستها نحو السودان .

لقد اقترح أفلن بيرنج ، المعتمد السامي البريطاني في مصر ، والضباط الإنجليز فيها ، بأن مصر ليس في مقدورها الاحتفاظ بالسودان بمفردها ، وينبغي أن تتجمع الحاميات البعيدة في الخرطوم ، ثم يتم التراجع التدريجي إلى مصر . لذا اتجهت سياسة بريطانيا بادئ الأمر نحو تكليف ضابط مصري يقوم بإخلاء السودان . وتم اقتراح عبد القادر حلمي لهذه المهمة ، غير أنهم اختلفوا

حول كيفية تنفيذ الانسحاب ، إذ أصرت بريطانيا على الإعلان أولاً ثم الانسحاب ثانياً . بينما رأى عبد القادر أن الإعلان بهذه الكيفية يعرقل مهمة الانسحاب ، لهذا صرف النظر عن انتداب عبد القادر لهذه المهمة ، ثم اقترح بيرنج أن يتم تعيين ضابط انجليزي لمهمة الانسحاب تلك .

لقد واجهت الحكومة البريطانية ضغوطاً من الرأي العام البريطاني والصحافة لتختار غردون لهذه المهمة ، وذلك لمعرفته السابقة بأهل السودان وطبيعتهم . ولكن هذا الاختيار وجد معارضة من بيرنج والخديوي توفيق . وأخيراً حددت حكومة جلادستون مهمة غردون بأن تكون استشارية حيث يذهب إلى السودان ، ويقف على طبيعة الأوضاع هناك ويرفع تقريراً عنه مع التوصيات ، على أن يقابل الخديوي والمعتمد السامي البريطاني في القاهرة ، واللذان ربما يكلفانه بمهمة أخرى .

وعندما أصبح الخديوي توفيق أمام الأمر الواقع ، منح غردون فرمانين* ليختار ما يناسب الأوضاع في السودان . فرمان بتعيينه حكمداراً عاماً على السودان . والفرمان الآخر سحب الحاميات وإخلاء السودان ، وإقامة حكومة من الوطنيين .

رحل غردون واستيوارت وابراهيم فوزي قاصدين الخرطوم ، في يناير ١٨٨٤م ، وعندما وصل غردون إلى بربر ، انهالت عليه الشكاوى فأعلن الفرمان الثاني القاضي بإخلاء السودان ، كما أرسل كسوة شرف إلى المهدي ومعها رسالة أعلن فيها تعيينه ملكاً على كردفان، وناشده إطلاق سراح السجناء. ولكنه عندما وصل الخرطوم ، وفرح الناس بمقدمه ، واحتفل به الأجانب ، وصرحوا بأنه الرجل الذي ينقذ السودان ، ويقضي على ثورة المهدي ، غيَّر رأيه في الانسحاب ، وأعلن الفرمان الأول بتعيينه حكمداراً عاماً للسودان .

ردَّ المهدي كسوة غردون إليه ، ومعها رسالة وضح فيها بأنه المهدي المنتظر ، ولا يريد جاهاً ولا سلطاناً ، ودعاه لاعتناق الإسلام ، وأنه سيعينه أميراً على جهة من الجهات إن أسلم ، وإلا فإنه سيهلك كما هلك الذين من قبله ، فغضب غردون غضباً شديداً على المهدي ، خاصة عندما دعاه لاعتناق الإسلام وهو مسيحي متعصب ، لذا قرر سحق المهدي في كردفان .

---

* الفرمان هو المنشور الحكومي الذي يحتوي على بعض التوجيهات أو الأوامر .

لقد تركنا المهدي عقب نهاية حملة هكس يرتب في أموره ويستعد لفتح الخرطوم ، حاضرة الحكمدارية ، فعين محمد الخير عبد الله عاملاً على بربر ، واستطاع ضمها للمهدية ، وقطع خط الاتصال بين القاهرة والخرطوم. كما سبق أن أرسل إلى الشيخ العبيد ود بدر لمحاصرة الخرطوم ، فنهض أبناء الشيخ ، ورفعوا راية الجهاد ، وحاصروا الخرطوم ، وانضمّ إليهم الشيخ مضوي عبد الرحمن من العيلفون ، والشيخ الأمين أم حقين ، والشيخ عبد القادر قاضي الكلاكلة . فأصبحت الخرطوم محاصرة من كل الجهات . ولتوحيد قيادة أمراء الحصار عين المهدي أبو قرجة ولقبه بأمير البرين والبحرين .

وبعد ارتفاع منسوب النيل أعد غردون حملتين برية وبحرية معاً ، بغية فك الحصار المضروب عليه ، واستطاع إنزال الهزيمة بقوات أبي قرجة في معركة بري ، ثم أردفها بمعركة الجريف غرب . وتنفس غردون ورجاله الصعداء ولكن لحين . فأرسل المهدي جيشاً تحت قيادة الأمير عبد الرحمن النجومي ، وسماه أمير أمراء حصار الخرطوم ، فتمكن بعد جهد كبير من إحكام الحصار على الخرطوم مرة ثانية . وأخيراً وصل المهدي بجيش قوامه يزيد على الستين ألف مقاتل ، وعسكر في ديم أبي سعد .

اشتد الحصار على غردون ، وبات من الضروري إرسال حملة لإنقاذه ودارت حولها مناقشات ومداولات عقيمة ، دامت أكثر من ثلاثة أشهر ، بين مجلس الوزراء البريطاني ومجلس العموم . وكانت حكومة جلادستون تتمسك بأنها كلفت غردون بمهمة استشارية . أما إذا كلفته الخديوية بمهمة تنفيذية ينبغي أن تتكفل بإنقاذه ، وأخيراً تدخل الرأي العام البريطاني ، وضغط على الحكومة ، إلى أن استجاب جلادستون لإنقاذ غردون ، فتكونت الحملة ، واختير اللورد ولسلي لقيادتها ، ولكنها تأخرت في القاهرة بسبب الجدل الذي دار حول الطريق الذي تسلكه إلى الخرطوم ، واستقرّ الرأي أخيراً على طريق النيل ، فأصدر المهدي أمراً لمحمد خير عبد الله لاعتراض الحملة . كما أرسل جيشاً بقيادة موسى ود حلو لهذه المهمة ، فاشتبك معهم في معركة أبي طليح في يناير ١٨٨٥م ، وهزم جيش الأنصار هناك ، ثم أرسل المهدي حملة أخرى بقيادة النور عنقرة التقت حملة الإنقاذ في المتمة في يناير ١٨٨٥م وقتل فيها قائد الفرقة ستيوارت ، ولكن الحملة واصلت مسيرتها جنوباً نحو الخرطوم . في هذا الأثناء شدد المهدي وجيوشه حصارهم للخرطوم وكانوا في سباق مع حملة

غردون باشا

الإنقاذ القادمة ، وتمكنوا من تحرير الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥م ، وفوتوا الفرصة على حملة الإنقاذ التي وصلت الخرطوم بعد يومين من تحريرها فقفلت راجعة شمالاً من حيث أتت . وبذا سقط الحكم التركي – المصري في السودان وقامت دولة المهدية .

هناك أسباب أدت إلى فشل مهمة غردون نوجزها فيما يلي :

أولاً : تناقض مهمة غردون ، فحكومة جلادستون كلفت غردون بمهمة استشارية ، بأن يرفع تقريراً وتوصيات عن الأوضاع في السودان ، بينما كلفته الخديوية بمهمة تنفيذية ذات شقين فنجده في بربر رفع الفرمان الثاني ، وفي الخرطوم رفع الفرمان الأول ، مما يدل على اضطراب تفكيره وهوسه .

ثانياً : كان غردون مسيحياً متعصباً متحمساً لدينه ، بينما المهدي كان متمسكاً بإسلامه ومتحمساً له ، مما جعلهما طرفي نقيض . فأصبحت المقاومة مقاومة دينية بين الطرفين .

ثالثاً : ثقة غردون المفرطة في نفسه ، إذ أنه نجح في مهمته الأولـــى في السودان ، وتمكن من فتح خط الاستواء وضمه للحكمدارية في فترة ثلاث سنوات . كما نجح أيضاً في مهمته الثانية في السودان ، عندما كان حكمداراً له ، فحقق لبريطانيا أهدافها في السودان ، وظن أنه سينجح في مهمته الثالثة ولكن هيهات .

رابعاً : فهم غردون الخاطئ لطبيعة الثورة المهدية ، وما صاحبها من تطورات سياسية ، ودينية ، واجتماعية في السودان .

خامساً : تباطؤ الإجراءات بين حكومة بريطانيا ومجلس عمومها ، وضياع الوقت قبل الإقتناع بإرسال حملة الإنقاذ .

سادساً : نجاح المهدي في فرض حصار مبكر على الخرطوم ، حتى تمكن من تحريرها .

(٢-٤) الأسس والمرتكزات الفكرية للثورة المهدية:

(أ) فكرة المهدية :

ظهرت هذه الفكرة في العالم الإسلامي ، عندما تفككت الدولة الإسلامية واشتد التمزق والصراع بين دويلات المسلمين ، فتبدل حالهم من القوة إلى الضعف ، ومن الوحدة إلى الفرقة والتحزب ، ففقد المسلمون كيانهم السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري ، مما شجع المستعمر الأوربي أن يبسط استعماره على الدويلات الإسلامية ، ولهذا فقدوا الأمل في عودتهم لماضيهم . وفي وسط هذا الظلام الدامس برزت عند علماء المسلمين ومفكريهم فكرة المنقذ الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً استناداً إلى ما ورد في بعض كتب السنن. فوجدت الفكرة استجابة وقبولاً من عامة المسلمين ، خاصة المظلومين والمغلوبين على أمرهم ، فتعلقوا بهذه الفكرة ، وتطلعوا إليها ، وتحمسوا لها ، وظلوا يترقبونها على أحر من الجمر .

وانطلاقاً مما سبق ، يتضح أن تفسير فكرة المنقذ (المهدي) برزت بصورة واضحة في ظروف معقدة وحرجة ، ومع أن ذكرها لم يرد في القرآن الكريم ، ولا في صحيحي البخاري ومسلم ، إلا أنها وردت في بقية الصحاح . وعليه فقد تفرقت السبل بعلماء المسلمين الذين آمنوا بفكرة المهدي المنتظر ، وتباينت أفكارهم حول شروطه وغاياته ، كما اختلفوا حول زمان ظهوره ومكانه واسمه ، وبدأ كل واحد يفصل له جلباباً يتناسب مع رؤيته وتصوره .

ونشير هنا إلى بعض العلماء الذين بشروا بالمهدي المنتظر ، منهم محي الدين بن العربي ، وأحمد بن إدريس ، وشهاب الدين بن أحمد بن حجر . فلا غرابة أن عبرت هذه الفكرة إلى السودان مثلما عبرت أفكار أخرى من مصدرين أحدهما عام والآخر خاص . فوجدت كتبهم صدراً رحباً من بعض علماء السودان آنذاك ، فأقبلوا عليها . وقد حظيت كتب ابن العربي على سبيل المثال بالتداول بين السودانيين وتعلقوا بها . فتأثر مهدي السودان بمؤلفاته ، وكان يتوق أن يكون من أتباعه . وكان محمد أحمد يؤمن بأن المهدي يختاره الله لهداية الناس ، وأخذهم إلى الإسلام الصحيح لقيام مجتمع العدل . وقد ساعدت

محمد أحمد المهدي تربيته الدينية ومؤهلاته العلمية التي اكتسبها ، إلى جانب مقدراته العقلية الفذة ، وتجرده وإخلاصه للدين .

(ب) فكر المهدي :

نحاول أن نعطي فكرة موجزة عن أفكار المهدي في كل مجالات الحياة والأنظمة التي أقامها ، ليصل بها إلى مجتمع إسلامي سليم متعاف ٍ يأتي على نمط مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . ولقد اجتهد المهدي ، وبذل قصارى جهده لتحقيق تلك الغاية النبيلة ، فمنح نفسه حرية مطلقة في وضع الأنظمة والتشريعات ، لاعتقاده بأنه مؤهل لذلك . فلا عجب أن تعرضت أنظمته المختلفة للتعديل والتغيير على حسب ما اقتضته الظروف والملابسات. فالأمثلة على التطورات التي صاحبت عهده كثيرة ، ولا يتسع المجال لذكرها جميعاً ، ولنضرب بعض الأمثلة :

(١) مجال السياسة :

تناولت وثائق المهدي الإمامة والخلافة ، فالإمام هو قائد الجماعة ورأسها ، أما الخلافة فهي أمر ديني رتبه المهدي على أن يكون هو خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يكون خلفاؤه خلفاء لخلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) مجال التعاليم الدينية :

كتب المهدي لإرشاد أتباعه ، حتى يتمكنوا من تأدية عبادتهم بالصورة المطلوبة ، ويكونوا على بينة من أمرهم . فشرح لهم العبادات وأبعادها الحسية وآدابها ، حتى تكون عبادتهم خالصة لله وحده .

(٣) مجال الجيش :

جاء فكر المهدي عن الجيش وتنظيمه، وفي آداب الجهاد وإحياء سنته، وذلك بالابتعاد عن المصطلحات التي كان يستخدمها الحكم التركي – المصري في السودان ، حتى يتسنى له تكوين جيش على نمط الجيوش الإسلامية ، خاصة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . لهذا حرص في بادئ الأمر أن يقاتل بذات السلاح الأبيض الذي كان يستخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) المجال الاجتماعي :

عندما أعلن المهدي ثورته ، وانخرط معظم أهل السودان فيها ، وانفصل الرجال عن زوجاتهم لفترات طويلة ، وتفشت ظاهرة الطلاق ، وقلّ عدد الرجال بصورة كبيرة باستشهاد الكثير منهم في المعارك ، تعرض المجتمع المهدوي الوليد ، لقضايا ومشكلات اجتماعية ، دفعت المهدي للتفكير في علاجها ، فكتب عن الزواج ، وحجاب المرأة ، والمحافظة على الحرمات .

(٥) المجال الاقتصادي :

كتب المهدي حول نظامه المالي ، بعد تأسيسه لبيت المال في قدير ، فأصدر منشورات حول الغنائم ، وتوزيعها على المجاهدين ، كما كتب عن العملة ، والمرتبات ، والزكوات ، وطرق جبايتها ، وآداب التجارة ، وما يتصل منها بالشراء والبيع .

(٦) مجال القضاء :

عين المهدي قاضي الإسلام ، أحمد جبارة في قدير ، وله مؤلفات ومنشورات كثيرة في هذا المجال ، لأهميته في الدولة الإسلامية . كما فوض أمراء الأقاليم للنظر في القضايا المختلفة .

مما سبق يتضح جلياً ذلك التراث الضخم الذي خلفه المهدي ، فغطى به كل مناحي الدولة ، في المجالات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والقضائية .

(ج) مرتكزات فكر المهدي :

(١) بذل المهدي جهداً كبيراً ليقيم دولة إسلامية في السودان ، تتبع في نظمها المختلفة الشكل الذي كانت عليه دولة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون من بعده .

(٢) جعل المهدي الدين والسياسة شيئاً واحداً ، وأنهما يشتملان على كل أمور الدولة وشؤونها المادية والروحية معاً .

(٣) أسس المهدي فلسفة دولته الاجتماعية على التقشف والزهد ، لاعتقاده بأنه الترياق الناجع لكل مشكلات السودان ، بل والعالم الإسلامي . لهذا حفلت

خطبه ومنشوراته بما يجنب مجتمعه الجديد فساد التكالب على الدنيا ، فكانت مقولته المشهورة " الدنيا جيفة وطلابها كلاب " .

(٤) كان المهدي يتطلع لإقامة دولة إسلامية في السودان ، لينطلق منها لنشر دعوته في الدول المجاورة حتى تقوم الدولة الإسلامية المرتقبة في العالم .

(٥) ومن معالم سياسة المهدي البارزة ، قراره القاضي بإلغـــاء المذاهب الفقهية ، والطرق الصوفية في السودان .

(٦) تأثر فكرالمهدي بالمذهب السلفي ، نسبة لاطلاعه على كتب ابن تيمية ، ومحي الدين بن العربي ، وأحمد بن ادريس ، والغزالي . بل امتد أثرهم على أسلوبه في الكتابة .

(٧) كان المهدي يعدل في أنظمته المختلفة من وقت لآخر ، ومن مكان لآخر ، وفق ما تمليه عليه المستجدات ، وتقلبات الأوضاع التي تمر بها دولته . والأمثلة كثيرة ، مما يدل على سعيه لمراعاة مصالح رعيته .

(٢-٥) نماذج من منشورات المهدي * :

أخذت كتابات الإمام المهدي ، أشكالاً مختلفة ، ونماذج متباينة ، فبعضها كتب في شكل مقال ، والآخر في شكل رسالة ، وهو الأكثر شيوعاً . وهناك أيضاً الخطبة، وتعليقه على العرائض التي تقدم إليه. كما له كتابات في التعزية ، وتعليقات على الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة . وله منشورات ، منها الخاصة ، ومنها العامة . هذا بجانب كتب الإنذار وكتب البيان .

خط المهدي :

كتابات المهدي واضحة ومقروءة ، إذا ما قورنت بكتابات أخرى في زمانه ، فكان يعطي كل حرف حقه ، فلا يضخم حرفاً ، ولا يضعف آخر ، ولا يميل إلى الاستعاضة ، ويجنح أحياناً إلى استعمال حركات الشكل ، متأثراً بالرسم العثماني . كما اهملت كتاباته الهمزة .

* انظر ملاحق الباب الثاني

أسلوبه :

استخدم المهدي الأسلوب المباشر ، بعيداً عن التكلف ، كما اتسم أسلوبه بالقوة والحرارة ، وأنه امتاز على كتاب عصره بحس أدبي واضح . ويعود ذلك لانفعاله بأمر الدين الذي يعتمل في دواخله ، ولا يسترسل في الأمور الإدارية ، ويميل أسلوبه إلى العامية ، بينما يستطرد في المواعظ ، ويخلط حديثه ببعض الألفاظ المحلية . أما أسلوبه في الخطب فقد كان أجود وأرفع بياناً ، وتتخلله كثرة علامات الاستفهام ، والتعجب ، والسجع ، والتعاطف مع المستمع ، بتوجيه الخطاب المباشر له .

الديباجة :

تبدأ بالبسملة ، والحمد لله والصلاة على النبي مع التسليم ، وتأتي في سطر واحد .

التخاطب :

وهو يلي الديباجة مباشرة ، وأساسه المُرسِل والمرسل إليه . ويبدأ بعد كلمة (بعد) . وكان اسم المُرسِل في بداية المهدية في المؤخرة ، فأصبح يأتي في المقدمة ، أي بعد الديباجة مباشرة . أما اسم المرسل إليه ، فاتبعه المهدي بصفة (النعت) ، والتي درج على مخاطبة أعوانه ومساعديه بها ، أمثال الأمير ، والنائب ، والخليفة ، وخليله وصفيه ، والأحباب .

الموضوع :

ينقسم إلى مقدمة وصلب . وهو أهمّ أجزاء الوثيقة . والهدف من المقدمة إيجاد جو صافي ، أو إطار عام يدور فيه الأمر المباشر . إذن فالمقدمة ، همزة

وصل لشحذ الفكر ، ونجاحها والتوفيق فيها ، يسهل الموضوع ، ويجعل الدخول إليه طبيعياً ، فتتحقق به الغاية .

الخاتمة :

ينهي المهدي رسائله غالباً ، بكلمة السلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم يأتي تاريخ الوثيقة بالهجري ، وغالباً ما يكون باليوم والشهر والعام .

الخاتم :

هو عند المهدي ، علامة من علامات الإثبات الدالة على صحة ما جاء في الوثيقة ، وقد تم تعديل شكل خاتم المهدي أربع مرات . ومكتوب عليه لا إله إلا الله في السطر الأول ، وفي السطر الثاني محمد رسول الله ، وفي السطر الثالث محمد أحمد المهدي عبد الله ، وفي السطر الرابع التاريخ .

(٢-٦) عهد الخليفة عبد الله (١٨٨٥م – ١٨٩٩م) :

نشأته والتقاؤه بالمهدي :

هو عبد الله بن السيد محمد ، ولد سنة ١٨٤٦م بقرية توردات جنوب دارفور . كان والده فقيهاً اشتهر بالورع والتقوى والصلاح . استخدم السيد محمد فقيهاً ليعلم أولاده القرآن الكريم وعلومه ، وكانوا يقبلون على العلم ، إلا عبد الله ، الذي كان كثيراً ما ينصرف عن حلقات العلم ، ويميل إلى التأمل في شؤون الحياة ، وتارة يهتم بالفروسية ، والمشاركة في مشاكل مجتمعه . وكان والده لا يرغمه على شئ ، وقد دلته فراسته على أنَّ ابنه هذا سيكون له شأن عظيم في المستقبل . بل قيل بشره بأنه سيصبح خليفة المهدي المنتظر .

انتقل السيد محمد من دار التعايشة إلى دار الجمع ، وقيل أنه كان في طريقه إلى الحج ، وهناك طلب ناظر الجمع من السيد محمد أن يبقى في داره حيناً ، نسبة لمرضه ، ولكن المنية عاجلته في أبي ركبة ودفن فيها .

ولمّا كانت سيرة الشيخ محمد أحمد بن عبد الله ، الفقيه الزاهد العابد ، المقيم في الجزيرة أبا ، قد انتشرت في المناطق المجاورة لها ، فقد سمع به عبد الله ، فساوره إحساس قوي بأن هذه الصفات ، تنطبق على المهدي المنتظر . فشد الرحال إليه ، فعلم أنه في طيبة الحلاويين يشيد قبة على قبر أستاذه الشيخ القرشي سنة ١٨٨٠م . وهناك التقى به ، ودخل في سلك مريديه ، وأظهر له الحب والولاء ، فأسرّ إليه محمد أحمد المهدي ، بأنه المهدي المنتظر ، فآمن به عبد الله ، وأصبح ساعده الأيمن في نشر الدعوة في مرحلتيها السرية والعلنية .

مكانته لدى المهدي :

وبعد اندلاع الثورة المهدية وانتصاراتها ، عين المهدي في قدير أربعة خلفاء له ، كان أولهم عبد الله بن السيد محمد ، بمنزلة خليفة أبي بكر الصديق ؛ وقسم الجيش إلى ثلاث رايات ، وجعل كل راية منها تحت قيادة أحد الخلفاء ، وكان أكبر تلك الرايات من نصيب الخليفة عبد الله .

وبعد تحرير الخرطوم ، عين المهدي سبعة أمناء ، ليكونوا بمثابة مجلس وزراء ، وجعل الخليفة عبد الله رئيساً لهم. فشؤون بيت المال والأسرى والقيادة العامة للجيش ، كلها تركزت في يده .

وهكذا كانت للخليفة عبد الله المكانة الأولى ، والقربى عند المهدي ، الذي أعطاه كثيراً من الصلاحيات ، وأطلق يده في الأمور الإدارية . وبات مفهوماً لدى الأنصار ، أن عبد الله هو الذي سيتولى الحكم ، في حالة وفاة المهدي . ولذلك ، وعند الوفاة بايعه كبار الأنصار ، وتبعهم الآخرون . وعلى الرغم من المبايعة ، فقد حدثت مشاكل داخلية عدة كما سنرى .

الخليفة عبد الله والمشكلات الداخلية :

توفي المهدي فجأة ، بعد خمسة أشهر من تحرير الخرطوم ، حينما كان يؤسس لدولة المهدية الناشئة ، ويعد لإخضاع الحاميات التركية المتبقية ، ويبعث بالرسائل لملوك وسلاطين وأباطرة الأقطار المجاورة والبعيدة ، طالباً منهم الدخول في مهديته . وكان على خليفته أن يواصل العمل لتحقيق كل ذلك . وأول أعماله هو إخضاع كسلا في يوليو ١٨٨٥م ، وإخضاع سنار في أغسطس ١٨٨٥م ، ثم بعدها واجهته صعاب كثيرة ، ومواقف عصيبة ، استنزفت الكثير من جهد الدولة الناشئة .

على الرغم من البيعة التي أخذها الخليفة ، فإن التسليم بزعامته لم يكن كما كان الحال بالنسبة للمهدي . فالمهدي كان حوله هالة من التقديس والاحترام الديني ، ولم ينافسه أحد في مهديته أو زعامته . أما الخليفة ، فلم يكن في نظر الكثيرين متميزاً عليهم ليخضعوا له ، بل رأوه واحداً منهم لا يتمتع بأي نفوذ ديني أو قبلي يوجب عليهم طاعته ، فأصبحوا متمسكين بسلطاتهم وحقوقهم القبلية .

وهكذا واجه الخليفة عبد الله في بداية عهده مشكلة الولاء ؛ فبعضهم كان يرى أنه أولى بخلافة المهدي منه ، كما أرد البعض الآخر الاستقلال من السلطة المركزية وهيمنتها .

الصراع بين الخليفة والأشراف :

الأشراف هم أبناء عمومة المهدي ، وكان زعيمهم الخليفة محمد شريف حامد ، خليفة المهدي الرابع وصاحب الراية الحمراء ، وهي راية حربية عظيمة ضمت كبار قواد المهدية ، أمثال عبد الرحمن النجومي ، ومحمود عبد القادر ، ومحمد عبد الكريم ، ومحمد عثمان أبو قرجة ، ومحمد خالد زقل ، وكرم الله كركساوي . وكان كل هؤلاء القواد ومعهم أكثرية المحاربين من سكان النيل ، خارج العاصمة أم درمان حين وفاة المهدي ، وتولي الخليفة . ولو كانت هذه القوات موجودة بأم درمان وقتها ، ربما وقعت مواجهة طاحنة بين الخليفة محمد شريف وأنصاره ، والخليفة عبد الله وأتباعه ، ذلك لأن الأشراف ، ومنذ حياة المهدي ، أبدوا رفضهم لخلافة عبد الله ، وأرادوها فيهم ، فزجرهم المهدي في آخر جمعة صلاها في حياته في أم درمان ، بل سبق أن منع التعامل المباشر بين الخليفة عبد الله ومحمد شريف ، منعاً للإحتكاك بينهما .

بايع الأشراف الخليفة عبد الله وهم غير راضين ومغلوبين على أمرهم . ومن جانبه كان الخليفة يعرف نواياهم وأطماعهم في الحكم ، فبدأ في تقوية مركزه في العاصمة أم درمان . ولتأمين نفسه وسلطته ، اتخذ الخليفة عدة إجراءات ، منها فرض هجرة جماعية لبعض القبائل إلى العاصمة ، ليشدوا من أزره ، فوضعهم في المناصب القيادية التي كان يشغلها الأشراف بالأمس . ثم كون لنفسه حرساً خاصاً عرف بالملازمية . وأخيراً عين أخاه يعقوب نائباً أول له ، وابنه عثمان شيخ الدين قائداً لقوات الجهادية .

أدت هذه الإجراءات إلى توسيع دائرة الخصومة والمواجهة بين سكان النيل وأهل الغرب ، حتى استفحل الأمر فشرع الأشراف سنة ١٨٨٦م في تدبير مؤامرة هدفها إبعاد وإقصاء الخليفة من منصبه . وتكرر ذلك مرة أخرى في عام ١٨٩١م ، وحسم الأمر في المرتين .

الثورات القبلية :

تزامن مع ثورات الأشراف ، تمرد العديد من القبائل ضد الحكم القائم ، بهدف الإنعتاق من السلطة المركزية وتحقيق الإستقلال القبلي والإقليمي . وقد استغرقت الثورات السنوات الثلاث الأولى من حكم الخليفة ، أي حتى عام

١٨٨٨م . ولمّا كانت الثورات القبلية متفرقة ، ولم يكن لها هدف مشترك ، فقد أفلح الخليفة في إخمادها الواحدة تلو الأخرى ، وبعنف شديد ، استنزف الكثير من الجهد والموارد والأرواح .

(٢-٦-١) حروبات الخليفة الخارجية :

بدأ الخليفة عبد الله بعد وصوله إلى الحكم مباشرة سنة ١٨٨٥م ، يعمل على نشر دعوة المهدية خارج السودان ، وبعث برسائل ، – كما كان يفعل المهدي – إلى توفيق خديوي مصر ، وفكتوريا ملكة إنجلترا ، وسلطان المسلمين في تركيا ، وإلى امبراطور الحبشة ، والسنوسي في ليبيا ، وسلطان ودّاي ، وقبائل الحجاز ، يدعوهم فيها لاعتناق المهدية . ولم يستجب أحد منهم ، كما أن الأحباش أظهروا العداء لدولة الخليفة، وأصبحوا خطراً ماثلاً لا بد من مواجهته.

(أ) حرب الحبشة :

كتب المهدي خطاباً إلى امبراطور الحبشة يوحنا يدعوه إلى الإيمان بالمهدية ، فردَّ بخطاب وصل بعد وفاته وفيه استنكار وإساءات ، بل ودعوة للمهدي لاعتناق المسيحية. وعندما اشتد ضغط الأنصار على حامية القلابات التركية المصرية ، ساعد الأحباش الأتراك في الإنسحاب ، واستولوا على القلابات ثم انسحبوا منها. ودخل الأنصار القلابات ، بقيادة محمد أرباب ، فعينه المهدي عاملاً عليها ومن حينها بدأت العلاقة متوترة بين الدولتين الجارتين ، كما بات الصدام بينهما حتمياً .

ولما كان الخليفة مشغولاً بإخماد ثورات وتمرد القبائل في الداخل ، فقد أجل المواجهة الشاملة مع الأحباش ، واكتفى رجاله بشن الغارات المحدودة على الحدود . وفي عام ١٨٨٧م زاد استفزاز الأنصار للأحباش ، حينما أحرقوا كنائسهم ، فقاد الرأس عدار حاكم مقاطعة أمهرة ، جيشاً دخل القلابات ، وأحرقها وقتل محمد أرباب عاملها وقفل راجعاً ومعه الغنائم والأسرى .

طلب الخليفة من الملك يوحنا وقف الاعتداء على الحدود السودانية ، وإعادة الأسرى والغنائم ، وتسليم اللاجئين والمارقين ، ولكن يوحنا لم يستجب ، فاستعد الطرفان للقتال ، وأرسل الخليفة يونس ود الدكيم ليكون عاملاً على

القلابات بعد انسحاب الأحباش منها ، فشرع في إرسال التجريدات العسكرية لمناوشة الأحباش .

وأخيراً قرر الخليفة حسم الصراع ، وأرسل حمدان أبو عنجة في جيش كبير لمواجهة الأحباش . وفي يناير ١٨٨٨م غزا حمدان الأحباش وهزمهم ، ودخل غندار ، ولم يواصل الغزو وعاد إلى القلابات ، ثم بدأ في المناوشة مرة أخرى .

وفي ذلك الوقت ، بدأت إيطاليا غزو الحبشة ، فطلب يوحنا من الخليفة عقد صلح بينهما لمواجهة غزو الأوربيين ، ولم يستجب الخليفة ، واستعد الفريقان لمعركة فاصلة ، ولكن حمدان أبا عنجة توفي فجأة ، وتولى القيادة الزاكي طمل ، الذي حصن القلابات ، واستعد لمنازلة الأحباش . وفي ٩ مارس ١٨٨٩م هاجم يوحنا القلابات في جيش كثيف بلغ ٢٠٠ ألف مقاتل بينما كان عدد الأنصار ٧٢ ألف . وبعد معركة حامية ، انتصر الأنصار وقتل يوحنا وتمزق جيشه .

ولم يواصل الأنصار زحفهم داخل الحبشة، واكتفوا بالنصر الذي تحقق ، كما انشغل الأحباش بالصراع الداخلي على التاج ، وهدأت الحدود السودانية الحبشية إلى حين .

(ب) حرب مصر :

الانتصار الذي حققه الأنصار على الأحباش ، والقضاء على الفتن الداخلية ، شجع الخليفة على مواصلة الجهاد ضد الأتراك ، والإستيلاء على مصر ، والإنطلاق منها لنشر دعوة المهدية في العالم .

ومنذ عام ١٨٨٦م ، كان الخليفة قد اختار عبد الرحمن النجومي ليقود الحملة الزاحفة على مصر . ولكن النجومي بقي في دنقلا ولم يبدأ الغزو إلا في عام ١٨٨٩م . ومن أسباب تأخير الحملة حتى ذلك التاريخ ، انشغال الخليفة بالازمات الداخلية وضعف التمويل .

وقبل بدء الجهاد ضد مصر ، أراد الخليفة أن يمهد لتحرك جيوش النجومي داخل مصر ، فخاطب العبابدة وأهالي صعيد مصر لينضموا للأنصار في حربهم ضد الكفرة .

وأخيراً زحف النجومي صوب مصر ، على رأس جيش تكون من أربعة آلاف مقاتل ، ومعهم ثلاثمائة بندقية فقط . كما تبع الجيش سبعة آلاف من النساء والأطفال ، من أسر الجنود ، كانوا يزمعون الإقامة في مصر بعد فتحها .

تحرك هذا الجيش بمؤن قليلة ، واستعدادات بسيطة ، تدفعهم الحماسة والإيمان بالمهدية ، والثقة في النصر ، غير عابئين بظروفهم ، ولا بقوة خصمهم . وقد صور النجومي الأحوال القاسية التي كان عليها جيشه ، في خطاب وجهه للخليفة . وجاء فيه :

" إن الأنصار الذين معنا قد مسهم الضرر الشديد ، وإن الجوع الحال بهم قد أضناهم وأذهب قواهم ، فورم أجسامهم ، وغير أحوالهم ... وكثيرون منهم ماتوا جوعاً ... وكذلك الجمال والخيول والحمير ماتت من شدة المحل ... ولذلك فإن خيل الكفرة تبدو ، وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها ... وجزى الله الأنصار خيراً ، وبارك فيهم، فإنهم ما زالوا مطمئنين على حالهم ، وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون إلا النصر والظفر بالأعداء أو الفوز بالشهادة " .

ومن الجانب الآخر استعد الجيش الأنجليزي – المصري بقيادة ود هاوس في وادي حلفا ، فتابع تحرك النجومي وأمر السكان في ضفة النهر الغربية بإخلاء قراهم لحرمان الأنصار من أي إمدادت غذائية ، وحشد قوة من ألفي جندي في أرقين على الضفة الغربية ، قبالة حلفا ، كما نشر الوابورات الحربية بمدفعيتها في عرض النيل . وفي ٢ يوليو ١٨٨٩م ، اشتبك الأنصار مع ود هاوس حينما أرادوا ورود النيل ، وفي محاولاتهم للحصول على الماء ، فقدوا قرابة الألف جندي ، مما اضطرهم إلى السير في الصحراء بعيداً عن مرمى القنابل .

وتجاوز النجومي حصون أرقين بالسير في الصحراء إلى أن وصل سهل توشكي . طلب قرانفيل سردار الجيش المصري ، من النجومي التسليم واتقاء الموت والأسر ، ولكن النجومي ، رغم ضعف قوته ، ردَّ بأنه مجاهد يبتغي النصر أو الشهادة .

وفي ٣ أغسطس ١٨٨٩م ، هُزِمَ الأنصار في توشكي ، واستشهد النجومي وغالبية الأنصار ، ووزع الأسرى والنساء والأطفال رقيقاً في مصر . وبعد توشكي ، اتخذ الجيش المصري بقيادة الإنجليز ، خطة الهجوم على الدولة المهدية .

الامير عبد الرحمن النجومي

(ج) الأمير عثمان دقنة في شرق السودان :

نجح عثمان دقنة في وضع السودان الشرقي تحت راية الخليفة ، في الفترة ، بين سنة ١٨٨٦م و ١٨٨٧م ، ما عدا الحامية الإنجليزية المصرية ، التي ظلت محاصرة في سواكن . وقد حاول كتشنر والكولونيل كوك ، في عام ١٨٨٨م ، على التوالي ، الهجوم على دقنة ، وكسر شوكته ، ولم يفلحا. وفي عام ١٨٩١م ، وبعد هزيمة النجومي في توشكي ، سمحت الحكومة البريطانية للعسكريين في سواكن بمهاجمة طوكر واحتلالها . وقد تم لهم ذلك بعد تضحيات كبيرة في الأرواح .

وتراجع عثمان دقنة بعد طوكر إلى نهر عطبرة . وبعد الهزيمة في طوكر وتوشكي أصبحت دولة الخليفة في حالة دفاع عن وجودها ضد الأخطار العسكرية الخارجية ، وقبل نهاية القرن التاسع عشر ، استولت الجيوش الإيطالية على كسلا في عام ١٨٩٤م .

(٢-٧) نظام الحكم والإدارة في الدولة المهدية :

(أ) حكومة المهدي :

وضع المهدي نظام حكومته وهيكل إدارتها ، منذ أن كان في قدير . وبعد تحرير الخرطوم اتخذ أم درمان عاصمة له ، حيث اكتمل صرح دولته .

وكانت السلطة العليا للمهدي ، بصفته رأس الدولة الإسلامية الناشئة . وعين المهدي أربعة خلفاء يعاونونه في تسيير دفة الحكم ، وليخلفوه بعد وفاته . وكان بذلك يترسم خطى الدولة الإسلامية الأولى ، فهو خليفة رسول الله ، كما احتل الخليفة عبد الله ، منصب الخليفة أبي بكر الصديق، والخليفة علي ود حلو، منصب الخليفة عمر بن الخطاب ، والسنوسي يحتل منصب الخليفة عثمان ابن عفان ، وجعل الخليفة محمد شريف حامد في مكانة الخليفة علي كرم الله وجهه. وأصبح كل واحد من هؤلاء الخلفاء ، قائداً لراية من جيوش المهدية ، وللمهدي راية خاصة به . أما منصب الخليفة عثمان بن عفان ، فقد ظل شاغراً لرفض السنوسي هذا الترشيح .

كذلك أنشأ المهدي بيت مال خاص منذ قدير ، تحفظ فيه أموال الدولة ومؤنها ، كما نظمت طرق جمع موارد بيت المال ، وكيفية الصرف منه .

وكان دستور الدولة التي أسسها المهدي ، الشريعة الإسلامية . وللدولة قاضيها الأول – قاضي الإسلام – ويعاونه قضاة صغار ، وكان المهدي وخلفاؤه ينظرون في القضايا الكبيرة .

وفي الأقاليم ، كان هيكل الإدارة مأخوذاً من النظام المركزي في قضائه وبيت ماله . وكان على رئاسة كل إقليم أمير ، أطلق عليه اسم عامل ، له مطلق التصرف في إقليمه ، فهو الحاكم المدني ، والقائد الحربي ، والداعية الديني .

(ب) حكومة الخليفة عبد الله :

بعد وفاة المهدي ، تولى الخليفة عبد الله رئاسة الدولة المهدية ولم يحدث – كما سنرى – تغيراً في الشكل الذي رسمه المهدي للحكومة ، غير أن فترة حكمه الطويلة ، فرضت عليه التركيز ، وملأ الثغرات التي ظهرت مع التطبيق. كما حاول معالجة المتغيرات التي طرأت على الدولة المهدية .

١) القيادة العليا :

أصبح الخليفة في أم درمان ، رأس الدولة ، يتم الرجوع إليه وإلى حكومته في كل الأمور. وكان كثيراً ما يستشير أخاه يعقوب الملقب بـــ " جراب الرأي " ، وإبنه عثمان شيخ الدين ، ويستأنس برأي الخليفة علي ود حلو ، ومجلس الأمناء والقضاة . كما كان يعقد اجتماعاً يومياً مع كبار مستشاريه ، للنظر في أمور الدولة .

وقد قسَّمت السلطات ، فكان للخليفة تنفيذ الأحكام ، وليعقوب سلطة الشرطة ، ولقاضي الإسلام السلطة القضائية . ولكن الخليفة كان أحياناً يتدخل في أمر القضاء ، وإصدار الأحكام التي يريدها .

٢) إدارة العمالات (الأقاليم) :

تمّ تقسيم البلاد في عهد الخليفة عبد الله ، إلى عمالات (أقاليم) ، والخريطة رقم (٢–١) توضح أقصى حدود وصلتها الدولة المهدية . وأطلق لفظ عامل ، على كل حاكم عَمَالة . كما أُطلِق لفظ أمير ، على قائد الجيش فيها .

وانقسمت العمالات إلى نوعين : العمالات العسكرية ، والعمالات الحضرية . أما العمالات العسكرية ، فهي العمالات الواقعة في أطراف الدولة ، عليها مجابهة الغزو الخارجي . وشملت عمالات دنقلا ، والقلابات ، وعمالة الغرب . وقد أشرف عليها حكام عسكريون . أما العمالات الحضرية ، فقد شملت مقاطعات وسط البلاد ، ولم يكن فيها حكام عسكريون ، كما أنها خضعت لحكم الخليفة المباشر . وسُمِّيَ الموظف المسؤول عنها عاملاً .

وقد اهتم الخليفة كثيراً بسير الأمور في العمالات ، وانتظمت رسائله إلى عماله فيها ، وأمرهم أن يمدوه برسائل منتظمة عن أحوال عمالاتهم. وكان تحت كل عامل ، عدد من صغار الأمراء ، ينفذون أوامره ، وعدد من المعاونين ، يجمعون الضرائب . كما عين لكل عامل كاتب سري ، ليكون مسؤولاً عن المراسلات مع الخليفة .

وكانت الأوامر والمنشورات ترد على العامل من العاصمة لتنفيذها. وخلال الأزمات ، كان الخليفة يرسل عدداً من رجاله ، عرفوا باسم الأمناء ، للتحقيق في المسائل الكبرى ، وحل الأزمات . وبالرغم من أن الخليفة لم يتعود زيارة تلك العمالات، إلا أنه درج على عقد مؤتمرات جامعة لعماله في الرجبية، وفي عيد الأضحى والفطر ، لتلقي التقارير والمشورة في أمور العمالات .

(٣) الجيش :

اهتمّ الخليفة اهتماماً كبيراً بالجيش ، وكانت لجيوش المهدية ثلاث مهام رئيسة هي : حماية السلطة القائمة ، وإخضاع التمرد في العمالات ، ومدافعة الإعداء عند الثغور .

وتكوَّنَ جيش الخليفة من عدة فرق :

- فرقة الملازمية القديمة ، وهم حرس الخليفة الخاص .
- فرقة الملازمية الجديدة ، وهم الذين يحملون أسلحة نارية ، وكانوا تحت قيادة ابن الخليفة ، عثمان شيخ الدين .
- جيش الراية الزرقاء ، وسلاحهم السيوف والرماح ، وكانوا تحت قيادة يعقوب ، أخو الخليفة .
- جيش الراية الخضراء وهو يتكوَّن من قبائل دغيم وكنانة ، ويقوده علي ود حلو .

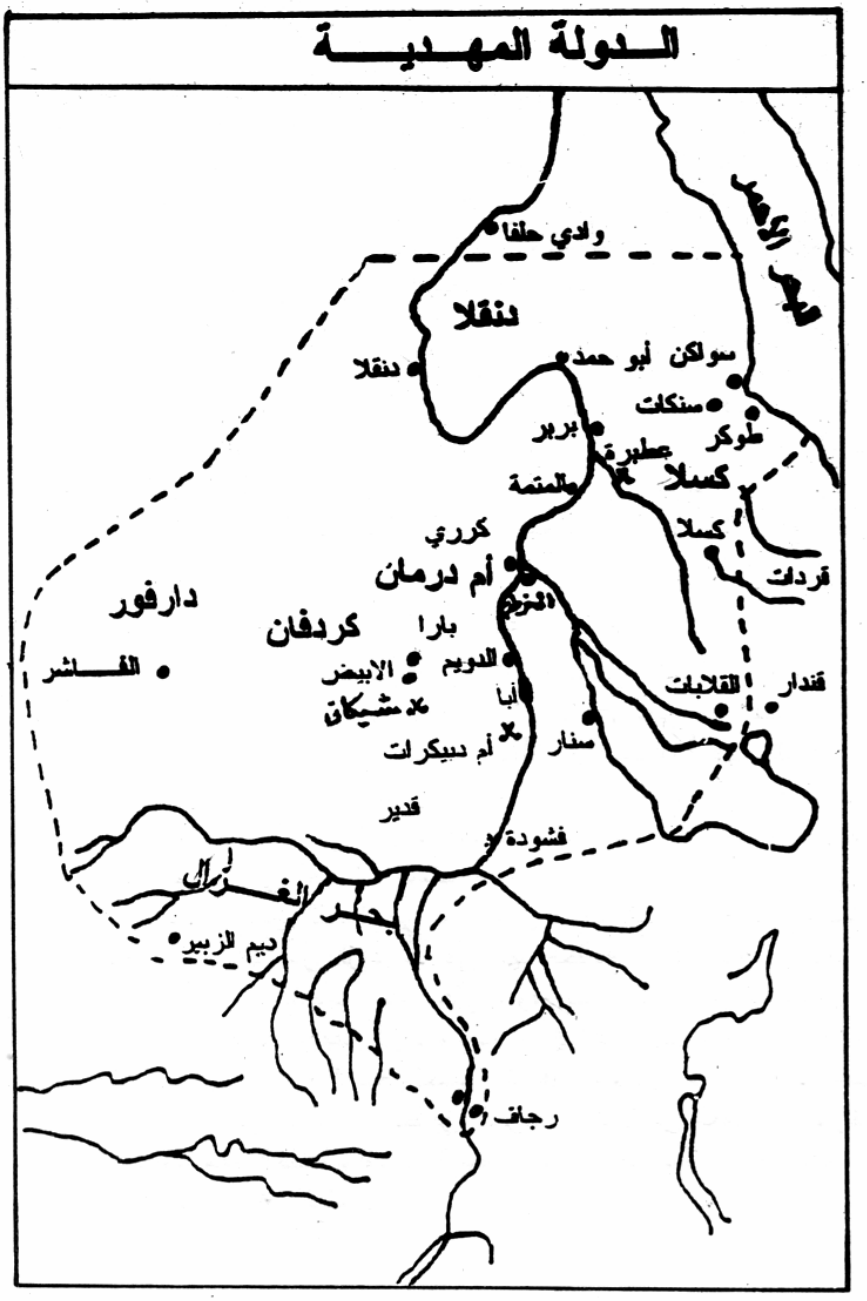

خريطة رقم (٢-١) : أقصى حدود وصلتها الدولة المهدية

- وجيش الراية الحمراء يقوده الخليفة محمد شريف .
- وأخيراً جيش الكارة ويتكون من الجنود الذين وقعوا في الأسر من الحكم التركي – المصري . هذه الجيوش توجد في أم درمان العاصمة ، أما جيوش العمالات ، فقد كانت تحت قيادة الأمراء والعمال هناك.

وكان في الجيش أيضاً عدد من الخَيَّالة والمدفعية ، وقد ورثت المهدية من الحكم – التركي المصري ، ورشة لتصليح الأسلحة ، (الترسانة) ، وثمان بواخر نيلية.

وكان الجيش منظماً ، على رأس كل عشرين جندي مقدم ، وعلى رأس كل مائة ، رأس المية . وهناك أمير لعدد من المئات . ولبس الجنود الرسمي الجبة المرقعة ، والعمامة والصندل . ويسمح للجنود من غير الملازمين العودة لديارهم في الخريف ليزرعوا ويحصدوا ثم يعودون لأم درمان ، مما يؤكد اهتمام الدولة بالإنتاج . وبلغت جيوش المهدية المعدة للقتال أكثر من ربع مليون جندي ، بيد أن الحروب والمجاعات أدت إلى تناقص الجيش .

(٤) القضاء :

أعلى وظيفة قضائية في الدولة هي وظيفة قاضي الإسلام . وأنشئت في أم درمان محاكم متخصصة ، مثل محكمة الإسلام ، وتنظر في القضايا التي يحولها لها الخليفة ، ومحكمة الاستئناف وتنظر في قضايا جميع الجهات ، ومحكمة للسوق ، تنظر في قضايا تنظيم السوق والأسعار والمكاييل والموازيين، ومحكمة لبيت المال ، تنظر في القضايا المتعلقة ببيت المال ، ومحكمة الكارة ، ومحكمة الملازمين . وفي العمالات أنشئت محاكم أخرى مماثلة .

وكان الخليفة يعين القضاة في أم درمان والعمالات . وأصيب منصب قاضي الإسلام بشئ كثير من الزعزعة في عهد الخليفة . وكان قاضي الإسلام حتى عام ١٨٩٤م ، هو القاضي أحمد علي ، ولم يكن على وفاق مع يعقوب ، وانتهى النزاع بينهما بإثبات تهمة الرشوة عليه ، وإيداعه السجن، حتى توفاه الله. وتولى المنصب من بعده ، الشيخ الحسين الزهراء ، من خريجي الجامع الأزهر ، وكان ذا رأي مستقل في تطبيق الشريعة ، بدلاً من العمل بمنشورات المهدي ، فاختلف معه الخليفة وأودعه السجن ، ومات فيه . وبعد ذلك تقلصت أهمية هذا المنصب وتجنبه العلماء .

ومع ما أنشئ من محاكم ، وما عين من قضاة ، فقد كانت حوادث تعدي الجهادية – الذين عرفوا بالخيالة – على الأنفس والأموال والزروع ترد إلى الخليفة دون انقطاع . وبذل الخليفة جهوداً كبيرة لردعهم ، فأصدر المنشورات التي تمنع التعدي على حقوق الآخرين ، وحث المتضررين على رفع ظلاماتهم له ، وعين في العمالات قضاة عرفوا باسم قضاة رد المظالم .

(٥) الأحوال الاقتصادية في عهد الخليفة :

تكونت مالية الدولة في عهد الخليفة مما يجبى من الزكاة والبضائع والمراكب والمشارع والغنائم . وكان في كل عمالة بيت مال . وفي أم درمان بيت المال العام .

أولا : بيت المال :

بيت المال العام : نظم بيت المال العام في عهد الخليفة ، وضبطت حساباته في دفاتر نظمت الدخل والمنصرفات ، كما قسم إلى أجزاء وأقسام حددت موارد دخل ومنصرفات كل قسم منها . فبيت المال العام ، ودخله من أهل أم درمان وما جاورها ، وفائض بيوت أموال العمالات . ويصرف منه على آل المهدي والخلفاء وإعداد الجيوش للغزوات .

بيت مال الملازمين : ودخله من أرض الجزيرة ، ويصرف منه على الخليفة والملازمية .

بيت مال الترسانة (الورشة الحربية) : ودخله من مزارع الخرطوم ومبيعات سن الفيل . ويصرف منه على صنع الذخائر والأسلحة .

بيت مال الخمس : ودخله من إيرادات المراكب والمشارع ، وأرباح ريش النعام ، وعشور البضائع الواردة من الخارج ، ويصرف منه على الخليفة وأقربائه .

وكان في بيت المال قسم خاص بصك العملة وقد ضربت الريالات ولمّا كان مقدار النحاس فيها كبيراً فلم يقبل عليها الناس .

ثانياً : الموارد الاقتصادية :

أما أحوال الدولة الاقتصادية في عهد الخليفة ، فقد شهدت تدهوراً ملحوظاً ولعدة أسباب ؛ منها الأوبئة ، وسنين القحط ، ومجاعة عام ١٣٠٦هـ ونزوح السكان من مناطق الزراعة لأم درمان ، والإنخراط في الجندية . كما أدت الحروب المتصلة إلى استنزاف الموارد ، إذ كان على الخليفة إعداد المؤن الغذائية لهذه الجيوش . ومن جانبهم أحدث المحاربون كثيراً من الفوضى بتعديهم على ممتلكات الأهالي ، خاصة المزارعين منهم . وأخيراً فإن الدولة حرمت نفسها من التجارة الخارجية بحظرها التعامل مع كل الدول التي لا تؤمن بالمهدية ، وبصفة خاصة مع مصر ، خوفاً من تسلل الجواسيس .

ملاحق الباب الثاني

نماذج لمنشورات المهدي

ملاحق الباب الثاني
نماذج من منشورات المهدي

ملحق رقم (١)
منشورات المهدي إلى أهالي خور الطير وغيرهم

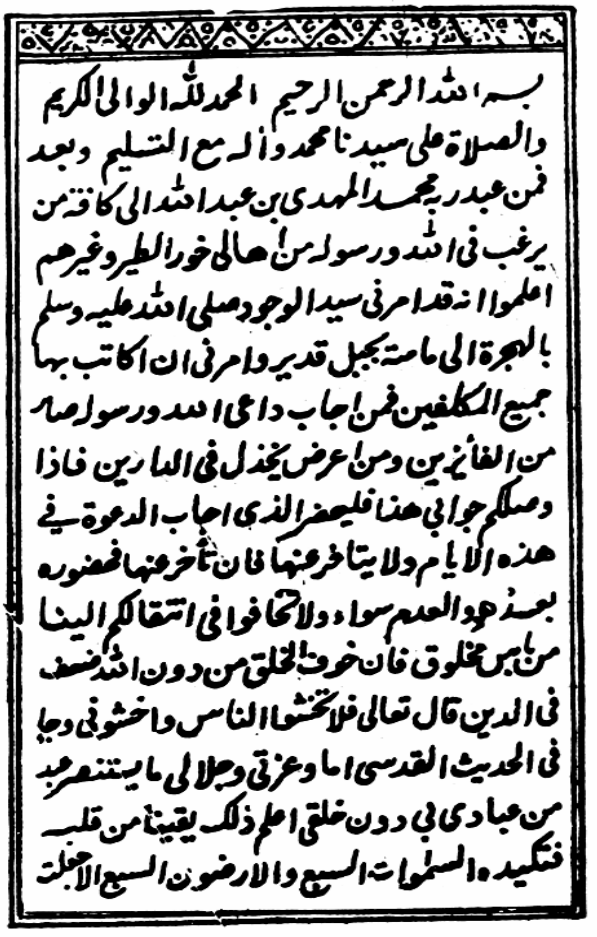

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم
والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى كافة من
يرغب في الله ورسوله من اهالي خور الطير وغيرهم
اعلموا انه قد امرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم
بالهجرة الى ماسة بجبل قدير وامرني ان اكاتب بها
جميع المكلفين فمن اجاب داعي الله ورسوله صار
من الفائزين ومن اعرض يخذل في الدارين فاذا
وصلكم جوابي هذا فليحضر الذي اجاب الدعوة في
هذه الايام ولا يتاخر عنها فان تاخر عنها فحضوره
بعد هو العدم سواء ولا تخافوا في انتقالكم الينا
من بأس مخلوق فان خوف الخلق من دون الله ضعف
في الدين قال تعالى فلا تخشوا الناس واخشوني وجا
في الحديث القدسي اما وعزتي وجلالي ما يستنصر عبد
من عبادي بي دون خلقي اعلم ذلك يقينا من قلبه
فتكيده السموات السبع والارضون السبع الا جعلت

له منهن فرجا ومخرجا واما الترک فطاعتهم لبعد امام
الدين کفر وضلال لانهم کفار مخالفون لحدود الله
تعالى وساعون في اطفاء نوره فان تعرضوا عليکم
فقاتلوهم فقد اجازکم الله في قتالهم ووعدکم بالنصر
عليهم ما دامت نيتکم لله وبالله قال تعالى اذن للذين
يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير
ولينصرن الله من ينصره ان تنصروا الله ينصرکم
ويثبت اقدامکم الا ان حزب الله هم المفلحون ولا
تخافوا من کثرتهم ولا من اسلحتهم فان الله ناظرکم
وناصرکم وما النصر الا من عند الله ومن تخلف
عن امر الهجرة دخل في وعيد قوله تعالى قل ان کان
اٰباؤکم وابناؤکم واخوانکم الى قوله فتربصوا حتى ياتي
الله بامره الآية وهذا ما لزم والسلام
جمادآخر سنة ١٢٩١

ملحق رقم (٢)
نماذج من منشورات المهدي إلى غوردون باشا

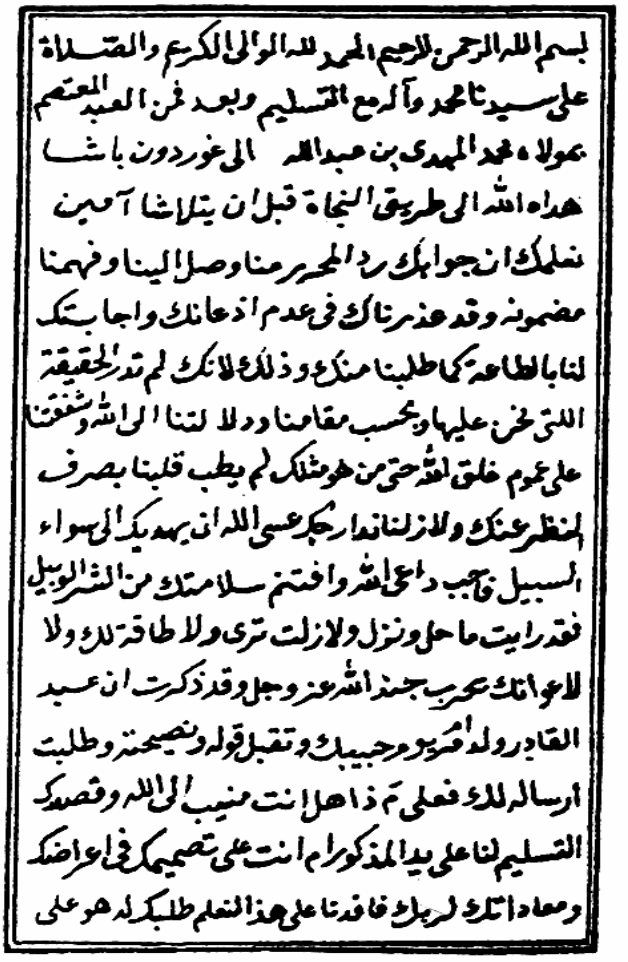

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الولي الكريم والصلاة
على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم
بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى غوردون باشا
هداه الله الى طريق النجاة قبل ان يتلاشا آمين
نعلمك ان جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا
مضمونه وقد عذرناك في عدم اذعانك واجابتك
لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقة
التي نحن عليها وبحسب مقامنا ودلالتنا الى الله وشفقتنا
على عموم خلق الله حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف
النظر عنك ولا زلنا نترجى عسى الله ان يهديك الى سواء
السبيل فاجب داعي الله وافتنم سلامتك من الشر الوبيل
فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا
لاعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت ان عبد
القادر ولد امريو وحبيبك وتقبل قوله ونصيحته وطلبت
ارساله لك فعلى م ذا هل انت منيب الى الله وقصدك
التسليم لنا على يد المذكور ام انت على تصميمك في اعراضك
ومعاداتك لربك فانتظرنا على هذا التعلم طلبك له هو على

اى الوجهين ونرسله لك ان رأينا فى ذلك صلاحا للدين
واقول لك ان عزة الاسلام خير لك وابقى لدوام احترامك
فى البلاد ومن فتحل بها ان عفت والسلام ٢١ ربيع الاول سنة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على
سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر
الى الله المعتصم به محمد المهدى بن عبد الله الى المغرور
باش فلم تسلم يونك الله اجرك مرتين وان اعرضت
كان عليك اثمك واثم من معك فقد اتانى الخبر من الرسول
صلى الله عليه وسلم ان الجرده الآتية لو كان معى ستة
انفار تموت او خمسة تموت او واحد تموت او وحدى كذلك
ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد
اتانى خبرها انها تموت ايسر من موت جرده ولد الشلالى
وعسكر والمديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موجود
بجميع البلاد فالامر لله وما دام ان الله القادر ايدنى بالكرامات
وبالنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه فقط
والامر الذى اوعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم
جار على ان الجرده التى تعتمدوها مالها وجه يوصولها

لكم من سد الانصار الطرق فان اسلمت وسلمت فقد عفونا
عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان ابيت فلا
قدرة لك على نقض ما اراده الله وستراه والسلام ربيع
اول سنة ١٣٠٢ تحشية وان طلبت زيادة
بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المراة الواصلة اليك وانا بت
التمكين واليقين ان اردت التسليم اكثر من هذا الجواب
سنرسل لك عبد القادر ولد ام مريوم لزيادة الطمانينة
في الامان فلا مانع وبذا لزمت التحشية

أسئلة الباب الثاني

(أ) اكتب عن :

(١) أسباب قيام ونجاح الثورة المهدية .

(٢) تطور أحداث الثورة المهدية منذ الدعوة السرية حتى معركة أبا .

(٣) فتح الأبيض وبارا .

(٤) معركة شيكان ونتائجها .

(٥) سياسة إخلاء السودان .

(٦) فكرة المهدية ومرتكزات فكر المهدي .

(٧) المشكلات الداخلية التي واجهت الخليفة وكيف تغلب عليها .

(٨) الحرب الحبشية .

(٩) حملة النجومي على مصر .

(١٠) نظام الحكم والإدارة في عهدي المهدي والخليفة .

الباب الثالث

تاريخ أوربا الحديث

(٣) تاريخ أوربا الحديث

(٣-١) العصور الوسطى في أوربا :

مصطلح العصور الوسطى :

درج المؤرخون على تقسيم التاريخ البشري ، في كل منطقة ، إلى حقب أو عصور قديمة ، ووسيطة ، وحديثة ، ومعاصرة . واستندوا في تقسيمهم لأزمنة التاريخ على ظهور عصور متميّز بعضها عن بعض بتغلب ظواهر حضارية معينـــة في كل عصر دون غيره . واعتبروا تطور أو تغير تلك الظواهر الحضارية ، نهاية عصر وبداية عصر جديد مختلف . وإن كان التحول الحضاري ، لا يتم فجأة أو في سنة محددة ، بل يتخذ سمة التدرج . كما أن حلقات التاريخ تتداخل ، فقد ارتضى المؤرخون هذا التقسيم المجازي تسهيلاً للفهم .

والتقسيم الشائع عند الأوربيين هو أن تاريخهم القديم يبدأ ببداية معرفة الإنسان للكتابة ، وينتهي بسقوط روما في عام ٤٧٦م . أما التاريخ الوسيط عندهم ، فيبدأ بنهاية العصور القديمة ، وينتهي بسقوط القسطنطينية وبداية حركة النهضة الأوربية في منتصف القرن الخامس عشر ، ومن ثم تبدأ العصور الحديثة .

وضمن العصور الوسطى عرفت القرون الأربعة التي تلت سقوط روما (٤٧٦ – ١٠٠٠) ، بالقرون المظلمة ؛ لأن هذه الفترة تميزت بالاضطرابات الشديدة ، نتيجة لتحرك القبائل الجرمانية في أوربا ، ولنمو النظام الإقطاعي واستبداد رجال الدين والطبقة الحاكمة . ولا تصح النظرة القائلة بأن العصور الوسطى كانت كلها قروناً مظلمة ومتبربرة لأن أجزاء من أوربا كانت تستقبل تيارات حضارية نتج عنها في النهاية النهضة الأوربية . فقد حمل مشعل الحضارة الأوربية في أثناء العصور الوسطى – المراكز البيزنطية والكنسية . بجانب مراكز الحضارة الإسلامية في صقلية والأندلس ؛ كما كان للحروب الصليبية تأثير حضاري كبير على أوربا .

(أ) نشأة الإقطاع :

نشأ النظام الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى ، وارتبط ارتباطاً قوياً بالحياة الأوربية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . وقد اختلف نظام الإقطاع في نشأته في الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية عن جزئها الشرقي .

وفي الجزء الغربي ، نشأ وتطور نظام الإقطاع ، مع انهيار امبراطورية شارلمان في نهاية القرن التاسع الميلادي . وقد أدت الحروب الداخلية العنيفة في آخر أيام الامبراطورية ، إلى حالة من الفوضى وفقدان الأمن حتى أصبحت الكلمة الأخيرة لقوة السلاح . وبعد انهيار الامبراطورية ، ازدادت الأوضاع سوءاً بسبب الأخطار الخارجية المتمثلة في غزو الفيكنج والمسلمين والمجريين على غرب أوربا ووسطها ، وفقد الأفراد الأمن وافتقروا لمن يدافع عنهم . وأصبح على كل جماعة ابتداع طريقة للدفاع عن وجودها ، فأخذ كبار ملاك الأراضي يبحثون عن أتباع يساعدونهم على مواجهة الأخطار . ولجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته إلى منح هذه الأرض – على هيأة إقطاعات – لمن يفلحها ، مقابل أن يكون جندياً يزود عن سيد الأرض . أما من كانت أرضه صغيرة ، فإنه يُملكها لمن هو أقوى منه ، ثم يعود ويتسلمها منه كإقطاع وبذلك يصبح تابعاً إقطاعياً . وهكذا أصبح صغار الملاك أتباعاً لمن هم أقوى منهم ، وحتى بعض كبار الملاك – وبحثاً عن الحماية – رهنوا أنفسهم أتباعاً لملاك أعظم منهم فأصبحوا هم وأتباعهم تابعين لمالك أكبر .

أما في الجزء الشرقي من الإمبراطورية ، فقد ظهرت الإقطاعات الحربية في القرنين السابع والثامن ، وعرفت باسم الفلاحة الحرة . وفي هذا النظام كان الابن الأكبر يرث أبوه في الأرض التي اقتطعت له ، مقابل التزامه بالخدمة العسكرية . ولكن وبحلول القرن الحادي عشر ، نمت الإقطاعيات الكبيرة ، حيث لجأت الدولة إلى إقطاع مساحات كبيرة من الأراضي ، إلى إقطاعيين مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية ، وكانت الإقطاعيات الكبيرة التي تمنحها الدولة أحياناً ، عبارة عن نهر صغير أو قرية .

(ب) الحقوق والواجبات الإقطاعية :

(١) الحقوق الاقطاعية :

كانت للسادة الاقطاعيين حقوق يلتزم بها أتباعهم ؛ منها ما هو حربي ، وما هو مالي ، وما هو اجتماعي ، مقابل ما حصلوا علية من حماية .

أولاً : **الالتزام الحربي** : كان الواجب الأول على الأتباع هو الخدمة في جيش السيد الإقطاعي. وكانوا يهرعون لمساندة سيدهم وقت اشتباكه في حرب مع عدو له دون قيد أو شرط ، وقتما يأمرهم سيدهم . وبمرور الوقت ، أصبح الأتباع يميزون بين حرب هجومية يشنها السيد لمصلحته ، وحرب أخرى دفاعاً عن النفس . وما عادوا يلتزمون بحروب السيد الهجومية الخاصة بمصلحته الشخصية ؛ كما حددت الفترة التي يخدم فيها التابع سيده ، على ألا تزيد عن أربعين يوماً في العام .

بجانب ذلك التزم الأتباع بحراسة قلعة سيدهم الإقطاعي وتراوح الحد الأعلى في هذه الخدمة بين ثلاثين وأربعين يوماً في السنة .

ثانياً : **الالتزام الاجتماعي** : كان على التابع الاستجابة لدعوة السيد الإقطاعي عندما يطلب منه ذلك . وكان السيد يدعو أتباعه من وقت لآخر لأخذ مشورتهم عند الإقدام على حرب أو حتى عند اختياره زوجة لنفسه أو لإبنه ، كما كان على التابع أن يستشير سيده الإقطاعي قبل أن يزوج ابنته ، لأن هذا الزواج قد يترتب عليه نقل جزء من إقطاع والد الزوجة إلى زوجها .

ثالثاً : **الالتزام المالي** : وقعت على التابع أعباء مالية باهظة كان يؤديها لسيده . ومنها ضريبة الحلوان ، وهي ضريبة كان يؤديها كل وريث جديد من سلالة التابع المتوفي . وكانت تعادل في الغالب دخل الأقطاع لعام كامل.

وكانت هناك ضريبة المعونة ، وتشمل ما يحتاجه السيد الإقطاعي من نفقات إضافية ، أو مال الفداء الذي يجمعه الأتباع إذا وقع سيدهم في الأسر ، وتلك الأموال التي يقدمها الأتباع لتغطية نفقات مناسبات سيدهم السعيدة .

وهناك ضريبة الضيافة ، حيث يلتزم التابع بإكرام السيد الإقطاعي وحاشيته ، عندما يزورونه في ضيعته .

وكان التابع مكلفاً أيضاً بتسليم محصول أرضه قبل التصرف فيه ، كما كان عليه عصر نبيذه ، وطحن غلاله ، في معصرة أو طاحونة سيده ، كما كان عليه إطاعة قرارات محكمة سيده .

(٢) الواجبات الإقطاعية :

وكما كانت على التابع واجبات والتزامات نحو سيده ، فقد كان السيد الإقطاعي مقيداً أيضاً بقواعد والتزامات نحو تابعه .

وكانت أول تلك الالتزامات ، توفير الحماية اللازمة للأتباع ضد أي خطر داخلي أو خارجي ، كما كان عليه تحقيق العدالة تجاه أتباعه ، بل من حق التابع أن يقاضي سيده ، أو حتى يفسخ العلاقة الإقطاعية القائمة بينهما ، إن قصّر السيد الإقطاعي أيضاً ، في واجباته نحوه ، أو أخلّ بأصول واجباته. وعلى السيد الإقطاعي أن يفصل في المنازعات التي تنشأ بين الأتباع ، ويقدم أيضاً المساعدات العينية ، كمنح الأتباع جزء من المحصول ، أو السماح لهم بالزراعة في بعض الأراضي دون اقتسام محصولها معهم .

النظام السينوري :

بجانب النظام الإقطاعي – الذي حدد العلاقـــة بين فلاح حر يمتلك أرضه ، وسيد حر أقوى منه ، وفي ظل نظام محكم ، فيه حقوق وواجبات على الطرفين – قام في العصور الوسطى نظام آخر ، عرف بالنظام السينوري أو نظام السخرة .

والعلاقة في هذا النظام ، قامت بين سيّد حر يمتلك الأرض ، ومزارعين مستعبدين يعملون في فلاحة أرضه . وكان هؤلاء الفلاحون المملوكون للسيد الإقطاعي ، يقومون بالخدمة الشاقة في ضيعة سيدهم ، وإن فشلوا عوقبوا بالتخلص منهم عن طريق البيع .

لقد أصبح هؤلاء البؤساء عبيداً لواحد من الأسباب الأربعة الآتية :

(١) الاستعباد لفشل الفرد في تأدية واجب الحرب .
(٢) أن يهب الفرد نفسه – طواعية – عبداً لكنيسة أو دير .
(٣) أن يبيع الفرد نفسه بسبب الحاجة .
(٤) أن يصبح الحر عبداً بتنازله عن حريته لسيد يأويه ويحميه .

(٣-١-١) الصراع بين البابوية والأباطرة حول الزعامة الدينية :

تميزت العصور الوسطى في أوربا ، باحتدام الصراع بين البابوية في روما والقسطنطينية في الشرق من جهة ، والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب ، من جهة أخرى ، حول زعامة العالم المسيحي ، وتعيين رجال الدين .

وبعد سقوط روما في ٤٧٦م ، أصبحت ايطاليا تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية (القسطنطينية) ، ولكن البابوية في روما اكتسبت مكانة خاصة ، ونفوذاً كبيراً ، لرعايتها لكثير من الشئون الاجتماعية في إيطاليا . ولهذا السبب وغيره ادَّعَتْ زعامتها الروحية على العالم المسيحي ، فنازعتها القسطنطينية في ذلك الحق .

وأخيراً تحققت للبابوية في عهد البابا جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م) ، السيادة الفعلية على جميع الكنائس الغربية ، وظل الشرق المسيحي مستقلاً بكنيستة عن الغرب .

وتجدد الصراع في غربي أوربا ، في ظل الامبراطورية الرومانية المقدسة ، حول حق البابا في تعيين رجال الدين ، مدعياً أنه خليفة المسيح في الأرض . وقد أصدر جريجوري السابع في عام ١٠٧٥م ، مرسوماً يحرم على الملوك تعيين الأساقفة ، فتصدى له الامبراطور هنري الرابع ، وتحداه بتعيين أسقف في ميلان ، في شمال إيطاليا . رفض جريجوري ، ذلك وأرسل إنذاراً شديد اللهجة للأمبراطور ، يهدده فيه بالعزل وتحرير جميع أتباعه من طاعته . ونجح البابا في استقطاب أمراء ألمانيا ، ورجال الدين فيها . فما كان من هنري سوى الخضوع في إذلال للبابا ، والتسليم بشروطه . ولكن الصراع بين البابوية والأباطرة لم ينته ، إلا بعد وفاة الامبراطور فردريك الثاني ، في عام ١٥٧٠م ، إذ بوفاته انتهت الصفة العالمية للامبراطورية الرومانية المقدسة ، لأنه كان آخر الأباطرة العظام ، الذين تمسكوا بفكرة سمو الامبراطورية ، وطابعها العالمي .

(٣-٢) النهضة الأوربية :

النهضة الأوربية تعني ، حركة التجديد ، وإحياء الفلسفة القديمة ، والآداب اليونانية والرومانية ، وتشمل التغييرات الواسعة ، التي طرأت على المجتمع الأوربي في جميع نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية . ونتيجة للتبدلات الحضارية التي حدثت فيها ، ظهر في أوربا عصر جديد متميز عن عصر الإقطاع الأوربي ، الذي ساد في أوربا في العصور الوسطى .

وإن كان هناك اتفاق عام على ان عصر النهضة بدأ في عام ١٤٥٣م ، إلا أنَّ جذورها بدأت منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

(١) العوامل التي ساعدت على قيام النهضة :

أولاً : ظهور المدن الأوربية :

ظهرت في أواخر العصور الوسطى مدن ، مثل البندقية ، وفلورنسا وجنوة في ايطاليا، وسرعان ما نمت وازدهرت، لنمو التجارة فيها ، وظهرت طبقة لا تعتمد في معاشها على الزراعة ، وبذلك تحرر سكان المدن من سيطرة الإقطاعيين ، والكنيسة ، والطبقة الحاكمة . وأصبحت المدن مراكز للثقافة والأفكار الجديدة ، وشجع التجار الأغنياء حركة النهضة والتجديد .

ثانياً : أثر الحضارة الإسلامية :

بينما كان الظلام يسود في أوربا في القرون الوسطى ، بدأت الحضارة الإسلامية في الإزدهار ، وأخذت تتسرب إلى أوربا عن طريق الأندلس ، وصقلية والمغرب العربي ، كما تعرف عليها الأوربيون في اثناء الحروب الصليبية ، وأفادوا منها بتغيير كثير من المفاهيم الفاسدة ، التي كانت سائدة بينهم .

ثالثاً : علماء القسطنطينية :

بعد سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣م ، فر كثير من علمائها إلى غربي أوربا ، حاملين معهم الكثير من المعـــارف ، ونقلوها إلى أوربا الغربية .

رابعاً : اختراع الطباعة :

كان الناس يعتمدون في إصدار الكتب ، على النسخ باليد ، فكانت الكتب غالية ونادرة . ولكن الألماني جوتنبرج ، اخترع في عام ١٤٤٨م ، آلة الطباعة ، فانتشرت المؤلفات ، وازدهرت المعرفة .

خامساً : نمو روح النقد :

بدأ بعض المفكرين يتناولون بالتحليل والنقد ، ظواهر الحياة المختلفة ، بعيداً عن الدين ، وسيطرة آراء الكنيسة .

(٢) مظاهر النهضة :

أولاً : حركة الترجمة والنقل :

نشطت حركة الترجمة والنقل ، منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، حينما بدأ الأوربيون يكتبون بلغاتهم القومية ، بدلاً عن اللاتينية ، كما ترجموا المخطوطات الإغريقية والكتب العربية إلى لغاتهم .

ثانياً : إحياء التراث الكلاسيكي :

ويقصد به ، التراث الإغريقي والروماني القديم ، وقامت في ايطاليا وبلاد أوربية أخرى ، حركة نشطة لجمع وترجمة ذلك التراث .

ثالثاً : حركة الكشوف الجغرافية :

عادت حركة الكشوف الجغرافية على الأوربيين ، بالخيرات المادية الكثيرة والمتنوعة ، وعمَّ الرخاء بلدان اوربا ، فوجد المفكرون والعلماء ، المناخ الملائم لانطلاق أفكارهم ، كما توسعت مدارك الأوربيين عن العالم حولهم .

رابعاً : تطور أسلوب الفنون :

مع الرخاء ، أصبح الاهتمام بالفنون بأنواعها ، من أبرز مظاهر النهضة الأوربية . وشمل ذلك فن العمارة ، والنحت والتصوير .

وبرز في فن النحت والهندسة الإيطالي " مايكل أنجلو " ، والفنان العالم ، " ليوناردو دافنشي " ، ومن أشهر أعمال دافنشي الفنية ، صورة

" الموناليزا " . أما الفنان الرسالي الإيطالي " روفائيل " ، فيعتبر الممثل الأول لفن التصوير في عصر النهضة .

خامساً : النهضة في الآداب :

كان لاستخدام اللغات المحلية القومية ، أثر كبير في إزدهار الآداب ، في مختلف الأقطار الأوربية ، ممـــا أدى إلى ظهور العديد من الأدباء والكتاب ، في كل بلد .

وفي ايطاليا ، ظهر الكاتب والشاعر دانتي ، (١٢٦٥ – ١٣٢١) ، وأشهر مؤلفاته ، " الكوميديـــا الإلهية " . ثم يأتي بعد ذلك " نقولا مايكافيلي " (١٤٦٩ – ١٥٢٧) ، وأهم مؤلفاته كتاب " الأمير " ، وفيه وصل لحكمة غريبة تقول " الغاية تبرر الوسيلة " ، وقد أباح استعمال البطش والخداع من أجل تحقيق أهداف الدولة ، دون مراعاة للجوانب الأخلاقية .

وفي فرنسا نبغ " وليم بودي " ، العالم في اللغات اليونانية . و "رابليه" (١٤٩٤ – ١٥٥٣) ، كاتب الروايات الفكاهية . والشاعر " مونتاني " . ومؤلف كتاب " التجارب " .

وفي انجلترا ظهر " توماس مور " ، (١٤٧٨ – ١٥٣٥) ، وهو صاحب كتاب " اليوتوبيا " . والشاعر " وليم شكسبير " ، الذي وضع العديد من الروايات الشعرية ، المستمدة من أحداث التاريخ .

وفي أسبانيـــا اشتهر " سرفنس " ، (١٥٤٧ – ١٦١٦م) ، مؤلف كتاب " دون كيشوت " .

واشتهر في بولندا " كوبر نيكس " ، (١٤٧٣ – ١٥٤٣م) ، عالم الفلك ، الذي قال بأن الشمس ثابتة ، وأن الأرض تدور حولها .

وهكذا فإن ظهور التجديد في عصر النهضة ، أدى لذهاب العصور الوسطى ، وانهيار نظمها وأفكارها . وولدت مجتمعات جديدة ، متفتحة الآفاق ، غير مقيدة باستبداد الإقطاعيين والكنيسة . وكل ذلك مهد لحلول العصور الحديثة القائمة اليوم .

(٣-٣) الكشوف الجغرافية :

(١) أسباب الكشوف الجغرافية :

لقد درست في الصف الثامن من التعليم الأساسي ، دوافع حركة الكشوف الجغرافية الأوربية ، وهي دوافع دينية ، وعلمية ، وسياسية ، واقتصادية .

ويعود فضل المبادرة للعرب في مجال الكشف الجغرافي ، فقد قدموا إلى شرق أفريقيا في أوائل العصر المسيحي ، حينما بدأ الضعف يدب في دولة الروم . وفيما بعد ، ازدهرت هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا بصورة كبيرة ، مكنتهم من إقامة دول إسلامية ، مثل دولة الزنج ، ودويلات الطراز الإسلامي ، ودولة ملقا وغيرها . وقام الجغرافيون المسلمون ، بتأليف كتب في جغرافية الأماكن ، ومن أشهرهم ، ابن حوقل ، والبكري ، والإدريسي ، وابن بطوطة . كما تعد رحلة سليمان التاجر ، من أهم الرحلات البحرية في المحيط الهندي ، وبحرالصين ، وقد ضمنها مؤلفه ، (أخبار الصين والهند) .

لقد كانت البضائع الشرقية تنتقل إلى أوربا في العصور الوسطى ، عبر طريقين ، بري وبحري ، فالطريق البرّي ، يأتي من أواسط آسيا إلى القسطنطينية ، ومنها إلى أنحاء أوربا . أما الطريق البحري ، فيأتي من الصين والهند ، إلى الخليج العربي ، ثم تنتقل بضائعه براً من البصرة إلى بغداد ، وتعبر نهري دجلة والفرات ، ثم تتجه غرباً إلى الشام (حلب ودمشق) . علاوة على طريق بحري آخر يأتي إلى البحر الأحمر ، حتى السويس ، ثم ترحل بضائعه أيضاً براً إلى القاهرة ، ومنها إلى الإسكندرية ، وأحياناً إلى دمياط .

ثم يأتي دور المدن الإيطالية التي تقوم سفنها بنقل البضائع من الإسكندرية ، ودمياط ، ومواني الشام ، إلى البلدان الإيطالية ، ومنها تباع البضائع إلى تجار أوربا. ولكن هذه الطرق آنفة الذكر ، كانت تحت سيطرة المسلمين ، مما دفع دول أوربا إلى التفكير لإيجاد طريق بديل لها . هذا فضلاً عن توافر دوافع أخرى سبق أن أشرنا إليها . لذا بدأت حركة الكشوف الجغرافية الأوربية .

(٢) الكشوف الجغرافية البرتغالية :

قامت البرتغال ، في القرن الخامس عشر الميلادي برحلات كشفية في المحيط الأطلسي . وكان الأمير هنري الملاح (١٣٩٤م – ١٤٦٠م) ، أول من شرع في عملية الكشف الجغرافي البرتغالي ، وقد عُرف عنه شغفه بالقراءة ، خاصة ما يتعلق بأخبار الرحلات والأسفار ، إلى جانب إجادته رسم الخرائط الجغرافية ، وفن الملاحة .

اشترك هنري مع والده حنا الأول ، في الأستيلاء على مدينة سبتا ، سنة ١٤١٥م ، وهي تقع على الشاطئ الأفريقي تجاه جبل طارق ، وبعد فتحها ، تم تعيينه حاكماً عليها . لذا انشغل بأخبار أفريقية ، خاصة بلاد غانا ، التي فكر في الوصول إليها ، وانتزاع تجارتها من أيدي المسلمين . كما هداه تفكيره للتنسيق مع القديس يوحنا ملك الحبشة المسيحي ، للقضاء على المغاربة المسلمين .

وأخيراً واصل هنري الملاح رحلاته الكشفية ، حتى وصل إلى مصب نهر السنغال ، والرأس الأخضر ، سنة ١٤٤٦م ، وواصل مسيرته إلى سيراليون سنة ١٤٦٠م . وفي نفس العام توفي هنري الملاح ، ليفسح المجال إلى الرحالة البحري ديو جوكاو (Diogo Cao) فتمكن من الوصول إلى مصب نهر الكنغو والنيجر ، سنة ١٤٨٢م . ثم أعقبه الرحالة بارثلميو دياز ، الذي قام برحلته إلى طرف أفريقيا الجنوبي ، (١٤٨٧–١٤٨٨) ، وسماه رأس الزوابع ، وعليه أصبح الطريق منه واضح المعالم إلى الهند .

جمد البرتغاليون نشاطهم الكشفي لعشر سنوات ، ثم واصل بعدها فاسكو دي جاما ، رحلته المشهورة عام ١٤٩٧م ، فسلك ساحل افريقيا الغربي حتى وصل رأس الزوابع ، فأطلق عليه رأس الرجاء الصالح . ودار حول القارة إلى ساحلها الشرقي ، فتعرف هناك العربي المسلم ، شهاب الدين أحمد بن ماجد ، الذي أعانه كثيراً حتى وصل إلى جوا ، على الساحل الغربي لشبه جزيرة الهند، في مايو ١٤٩٨م ، ووجد المسلمين يتمتعون بمركز تجاري قوي هناك . ثم عاد فاسكو دي جاما بذات الطريق ، إلى لشبونة .

ثم أردف فاسكو دي جاما رحلته السابقة ، برحلة ثانية إلى الشرق ، سنة ١٥٠٢م ، بغرض القضاء على نفوذ المسلمين في سواحل الهند الغربية ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال عمانوئيل الثاني ، فتمكن من عقد معاهدات تجارية مع

أمراء الهند على الساحل الغربي ، ثم قفل راجعاً إلى بلاده سنة ١٥٠٣م ، بعد أن ترك أسطولاً برتغالياً خلفه في مياه الهند .

بعد ذلك حاولت البرتغال أن تجعل بحار الهند تحت سيادتها وحدها ، لذا قامت رحلتا كابرال وفاسكو دي جاما ، بغية القضاء على نشاط المسلمين في تلك البلاد ، وتم إنشاء مركز جديد على ساحل الملبار ، ليكون نواة تجارية بحرية لامبراطورية البرتغال الشرقية ، وعين فرانسسكو الميدا حاكماً عاماً على الهند البرتغالية ، فمنحه ملك البرتغال لقب نائب الملك . ومن ثم سعى فرانسسكو على فرض سيادة البرتغال البحرية ، وحقق انتصاراً على الأسطول المصري المملوكي ، فأصبحت جميع المدن والمراكز التجارية لساحل أفريقيا الشرقي ، تحت نفوذ البرتغال . وأخيراً شمل مدغشقر ، وأثيوبيا ، وموريشص ، وسيلان.

وفي أواخر سنة ١٥٠٩م عين البوكير نائباً لملك البرتغال في الهند ، فأتمّ سيطرة البرتغال على البوابات (المضائق) الثلاث المؤدية إلى المحيط الهندي ، (ملقا ، هرمز ، باب المندب) ، فضلاً عن الاستيلاء على سومطرة ، ولكنه لم يتمكن من احتلال عدن .

لقد اتجه الاستعمار البرتغالي إلى التجارة وأرباحها ، ولم يهتم بالتنظيم الإداري والسياسي ، علاوة على أن امبراطورية البرتغال الشرقية ، لم تكن خاضعة لحكم مركزي ، كما أنها لم تتجاوز الشريط الساحلي الممتد في أفريقيا وآسيا ، والجزر المتناثرة في البحار الشرقية . فلا غرابة أن دبّ الضعف في أوصالها ، منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي . ويعود ذلك لعدة أسباب نوجزها في النزاع بين البرتغال والدولة العثمانية ، ومنافسة هولندا لها ، وسيطرتها تدريجياً على ممتلكاتها ثم تدهور أحوالها الداخلية وأخيراً استيلاء أسبانيا عليها سنة ١٥٧٠م .

(٣) الكشوف الجغرافية الأسبانية :

دخلت أسبانيا ميدان الكشوف الجغرافية رغبة في الاتصـــال بدول الشرق ، عن طريق البحر ، للاستيلاء على التجارة والتحرر من سيطرة البندقية وهيمنتها على تلك التجارة .

أعدت أسبانيا رحلة قادها ، كرستوفر كولمبوس ، سنة ١٤٩٢م واتجه غرباً إلى الهند فوصل إلى جزر البهاما وسماها سان سلفادور ، ثم شاطئ كوبا الشمالي وأخيراً جزر هايتي . وأعقبها برحلة ثانية ، اكتشف فيها جامايكا ، وعاد إلى أسبانيا سنة ١٤٩٦م ، غير أنه لم يوفق في رحلتيه الثالثة ، والرابعة ، ومات ولا يدري أنه برحلاته هذه قد اكتشف أمريكا .

ثم تواصلت الرحلات الكشفية الجغرافيـــة إذ كلف الملك شارلس الخامس ، الرحالة والمغامر ماجلان ، للقيام برحلة إلى الشرق سنة ١٥١٩م ، فاتجه عبر المحيط الأطلسي من أسبانيا حتى وصل ساحل البرازيل عند ريودي جانيرو ، ودار حول أمريكا الجنوبية ودخل المحيط الهادي سنة ١٥٢٠م ، واشتبك هناك مع الأهالي وقتل. وبذلك أصبحت أسبانيا سيدة على تلك المناطق الأمريكية المكتشفة .

(٤) الكشوف الجغرافية الإنجليزية :

شارك الإنجليز في دفع حركة الكشوف الجغرافية ، عندما أرسل الملك هنري السابع ملك انجلترا ، الرحالة البحار جون كابوت ، إلى الهند عن طريق الشمال الغربي . فأبحر من برستول وعبر المحيط الأطلسي حتى وصل إلى شاطئ أمريكا الشمالية سنة ١٤٩٧م ، ثم أعاد الكرة مرة ثانية سنة ١٤٩٨م وأبحر إلى أمريكا الشمالية حتى وصل إلى فلوريدا . وأخيراً قادت هذه الكشوف الجغرافية الإنجليزية إلى استعمار أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة الحالية) .

(٥) الكشوف الجغرافية الفرنسية :

تأخرت حركة الكشوف الجغرفية الفرنسية عن البرتغال ، وأسبانيا ، وانجلترا ، فاتجهت نحو أمريكا الشمالية . وتمكنت من اكتشاف كندا ، ويعود فضل ذلك إلى الرحالة البحار جاك كارتيه ، الذي وصل جزيرة نيو فاوند لاند ، المقابلة لكندا ، فاكتشف مصب سانت لورنس ثم توغل إلى داخل الأراضي الأمريكية . وسرعان ما بدأت هجرات الفرنسيين – خاصة المضطهدين منهم – إلى أمريكا وأسسوا مستعمراتهم وشركاتهم التجارية .

(٦) الكشوف الجغرافية الهولندية :

انشغلت هولندا بادئ الأمر عن المساهمة في دفع حركة الكشوف الجغرافية ، ويعزى هذا لثورتها ضد الحكم الأسباني . وأخيراً خاضت حرب الإستقلال منذ سنة ١٥٦٦م ، فأجبرت أسبانيا للاعتراف بإستقلالها في معاهدة وستفاليا ، سنة ١٦٤٨م . وبعدها دخلت ميدان الكشوف الجغرافية ، بتكليف شركة الهند الشرقية الهولندية ، للملاح الإنجليزي هنري هدسون ، لاكتشاف ممر يقع شمال شرقي آسيا ، ولكنه غير اتجاهه وعبر شمال الأطلسي حتى وصل إلى خليج نيويورك ، ونهر هدسون الذي سمي باسمه .

كما اكتشف القبطان الهولندي وليم شوتين ، طريق رأس هورن ، الذي أصبح طريقاً هامّاً للملاحة فيما بعد . وأيضاً اكتشف الرحالة الهولندي تاسمان أستراليا ، ونيوزيلندا ، ولكنه لم يتابع اكتشافاته ، فتمكن الرحالة الإنجليزي جيمس كوك ، أن يصبح المكتشف الحقيقي لأستراليا ، ونيوزيلندا ، في القرن الثامن عشر الميلادي .

ولعل رحلة هدسون ، تعد الأساس الذي بنى الهولنديون عليه حقوقهم ، في امتلاك واستعمار المنطقة الساحلية في أمريكا الشمالية . وأقاموا مركزاً تجارياً مهماً في جزيرة مانهاتن . ثم طفقوا في تأسسيس شركة الهند الغربية الهولندية ، التي مُنحت حقوقاً تجارية واستعمارية في العالم الجديد .

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت بوادر التنافس بين هولندا وانجلترا على مدينة نيويورك ، وتبادلا السيطرة عليها وأخيراً كسبتها بريطانيا بعد عقد صلح وستمنستر سنة ١٦٧٤م ، وظلت تتبع إلى انجلترا حتى قيام الثورة الأمريكية .

لقد وضع الهولنديون أيديهم على الممتلكات البرتغالية في أنجولا ، واحتلوا جزءاً كبيراً من البرازيل ، كما أقاموا مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح ثم استولوا على جزيرة موريشص ، وجزء من جزيرة سيلان ، فضلاً عن إقامة عشر محطات تجارية على ساحل الهند الجنوبي الشرقي ، ومحطة لتجارة البن في اليمن . إلا أن اهتمام الهولنديين الرئيس كان موجهاً نحو أرخبيل الملايو فأصبحوا سادة عليه بعد طرد البرتغال منه واتخذوا من بتافيا في جاوة ، عاصمة لامبراطوريتهم الشرقية . وبذلك سيطروا على التجارة مع الصين

واليابان. ولم ينتصف القرن السابع عشر الميلادي ، حتى كانت هولندا أكبر قوة أوربية في البحار الشرقية .

(٧) نتائج الكشوف الجغرافية :

وخلاصة القول ، أن حركة الكشوف الجغرافية الأوربية كانت جزءاً من اليقظة والوعي العام الذي انتاب أوربا في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي . فكانت حركة دينية سياسية ، اقتصادية ، وعلمية أحدثت انقلاباً وتحولاً كبيراً في أحوال البلاد المكتشفة فأدت إلى ظهور حركات ثورية ، وإصلاحية دينية ووطنية وسياسية عارمة في الشرق ، دفعته لطرد المستعمر الأوربي الذي استرق وأذل واستغل شعوب تلك البلاد .

(٣-٤) الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م :

ظهرت في أوربا اتجاهات جديدة بسبب النهضة الأوربية ، وقد شملت تلك الإتجاهات كافة نواحي الحياة الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، لذا تنامى الوعي في أذهان الناس ، فضاقوا ذرعاً بظلم الحكام واستبدادهم ، فلا غرابة أن اندلعت الثورة الأمريكية سنة ١٧٨٣م ، وأعقبتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م ، بعد أن توافرت لها عدة أسبـــاب نوجزها فيما يلي :

(أ) الأسباب السياسية :

(١) نظام الحكم :

كان الحكم في فرنسا ملكياً مطلقاً ، لا يقيده قانون ، بمعنى أن كل السلطات كانت بيد الملك ، يعاونه وزراء ومجالس ترجع في كل شؤونها إليه وحده . ولقد كانت الملكية في فرنسا تستمد سلطتها من نظرية " حق الملوك الإلهي المقدس " ، فتعالت على الناس وبَعُدَتْ عن مشاكلهم . وعندما قامت الثورة الفرنسية ، كان الملك لويس السادس عشر يحكم منذ سنة ١٧٧٤م ، وهو من أسرة البربون. وكان لويس طيب القلب ، ولكنه ضعيف الشخصية ، متردداً بين سياسة الإصلاح ، وبين إرضاء رغبات زوجته ماري انطوانيت ، ورجال البلاط الذين كانوا يكرهون كل إصلاح ، لأنهم يعيشون عيشة بذخ وترف ، بينما

يعاني العامة من الفقر والجوع ، فأدى ذلك إلى مضاعفة النقمة على النظام الملكي ، ومهّد للثورة .

(٢) سوء الإدارة :

كانت إدارة البلاد سيئة ، والتقسيمات الإدارية غير منسجمة ، وكثيرة ومتداخلة ، حتى أن رجال الإدارة كانوا يجهلون حدود ولاياتهم . كما أن المقاييس والمكاييل والموازين ، تختلف من مقاطعة لأخرى . والرسوم الجمركية تجبى عدة مرات لدى انتقال البضائع من مقاطعة لأخرى .

(٣) مساوئ القضاء :

اتصف القضاء بمساوئ كثيرة ، منها أن اختيار معظم القضاة لوظائفهم كان يتم عن طريق الرشوة. كما كان القضاة يأخذون نصيباً من رسوم الدولة والدعاوى .

(ب) الأسباب الاجتماعية :

كان أكبر خلل في المجتمع الفرنسي يتمثل في تركيبتة الاجتماعية ، فقد كان مجتمعاً طبقياً على نحو ما كان في العصور الوسطى . يتألف من ثلاث طبقات وهي طبقة الأشراف ، وطبقة رجال الدين ، والطبقة العامة . ولكل طبقة وضع مميز كما سنرى .

(١) طبقة الأشراف :

تكونت من أمراء الاقطاع ، وقد تميزت هذه الطبقة بامتيازات جمة متوارثة من أهمها :

أولاً : تولي الوظائف العليا في الدولة والحصول على أعلى الرواتب .

ثانياً : تمتعهم بحقوقهم الإقطاعية .

ثالثاً : الإعفاء من الضرائب ، رغم ثرائهم الفاحش .

رابعاً : استخدام الخطابات الممهورة من الملك .

وقد عاشت هذه الطبقة عيشة خاملة حول الملك ، تتمتع بالحقوق والامتيازات دون القيام بأدنى الواجبات . وقد كانت تلك الامتيازات عبئاً ثقيلاً على عامة الشعب .

(٢) طبقة رجال الدين :

كانت الكنيسة في ذلك الوقت قوة عظيمة في أوربا . وفي فرنسا امتلكت الكنيسة خمس الأراضي وكانت معفاة من الضرائب ، لذا جمعت ثروة طائلة من دخل الأراضي ، وضريبة العشور . ولكن رجال الدين استغلوا تلك الثروة لصالحهم ، ولم يصرفوا منها شيئاً على شؤون العباد ، والتعليم وبناء الكنائس ، وأعمال البر والملاجئ . فلا غرابة أن فقد كبار رجال الدين كثيراً من احترام الناس لهم بسبب تكالبهم على الدنيا بالإضافة لرزائلهم ونقائصهم .

(٣) الطبقة العامة :

كانت تمثل قاعدة الهرم الطبقي ، وكان عدد الأشراف ورجال الدين في قمة الهرم ، لا يتجاوز أربعمائة وثلاثين ألف نسمة ، بينما بلغ عدد أفراد الطبقة العامة ، خمسة وعشرين مليوناً . وتتكون الطبقة العامة من قسمين هما :

أولاً : الطبقة الوسطى ، وهم سكان المدن من المتعلمين ، والمثقفين ، والموظفين ، والتجار ، والأطباء ، والمهندسين ، ورجال الأعمال . وعلى الرغم مما تمتعت به هذه الطبقة من ذكاء وعلم ، ونشاط ومال ، فقد كانت محرومة من امتيازات كثيرة ، ولم يكن يسمح لأفرادها بالانتساب إلى طبقة الأشراف ، ولذلك كانوا ساخطين ناقمين على تلك الأوضاع .

ثانياً : الطبقة الدنيا : وتمثل بقية أفراد الشعب من جنود وزراع وصناع وعمال وتجار تجزئة (قطاعي) ، وصغار الملاك ، وهم الذين وقع على كاهلهم عبء الأوضاع السيئة ، وطالبوا بتحسين أوضاعهم ، بإلغاء الحقوق الإقطاعية ، والضرائب الباهظة . وسخطوا على نظام الحكم والمجتمع .

(ج) أثر الثورة الأمريكية :

بدأ الأمريكيون مقاومتهم المنظمة ومعارضتهم للاستبداد الإنجليزي ، واستمر كفاحهم حتى نالوا استقلالهم سنة ١٧٨٣م ، بمساعدة الفرنسيين . لقد كان لحروب استقلال أمريكا رد الفعل في المجتمعات الأوربية . فعندما عاد الجنود الفرنسيون من أمريكا بقيادة لافاييت حملوا معهم عدوى مبادئ الثورة ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها . وعليه فقد كان لنجاح الثورة الأمريكية ضد الاستعمار والاستبداد الإنجليزي ، أثر بعيد في إشاعة روح الثورة ضد النظام الملكي .

(د) الحركة الفكرية وفلاسفة الثورة :

ومما لا شك فيه أن النهضة الأوربية قد أثرت في التفكير والوعي الأوربي فأدى هذا التأثير إلى ظهور كُتَّاب ومفكرين في مختلف أنحاء أوربا ، ومنها فرنسا ، التي أخذ فيها عدد من المفكرين النابهين ، ينتقدون الأحوال السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية المتردية ، فتنبه الناس إلى تلك المساوئ وحاولوا إصلاحها . ومن أشهر المفكرين والفلاسفة في فرنسا آنذاك :

(١) مونتسكيو (١٦٨٩م – ١٧٧٥م) :

بحث مونتسكيو في أنظمة الحكومات المختلفة ، وكشف عن السر في عدم وجود النظم التي تحقق حريات الأفراد ، فاهتدى إلى أن خير ضمان لاحترام الحكومة لتلك الحريات والحقوق ، هو الفصل بين السلطات الثلاث ، التي كانت جميعها في قبضة الملك . وقد شرح هذه النظرية في كتابه " روح القوانين " . وحث مونتسكيو على إشراك من يمثل الشعب مع الملك والأشراف في حكم البلاد ، وقد كان معجباً بالدستور الانجليزي الذي منح الأفراد حظاً من الحرية .

(٢) فولتير (١٦٩٤م – ١٧٧٨م) :

كان مفكراً حراً وفيلسوفاً ناقداً ، وقد تميزت كتاباته بالأسلوب الساخر لنظم الحكم في عصره . وهَزَّأ الكنيسة – عدوه اللدود – كثيراً . كان فولتير معجباً بالملكية الدستورية في انجلترا ، وبالملكية المستنيرة في بروسيا . بينما تناول الملكية الفرنسية بالسخرية والتهكم ، لأنها لم تكن مستنيرة تعمل لصالح الشعب ، ولا دستورية تسمح للشعب بالتعبير عن إرادته . لقد كانت كتاباته أقوى عامل في إيقاظ وتحريك طبقات المجتمع المختلفة ، من جمودها . وكان لها أعمق الأثر في أفكار معاصريه .

(٣) جان جاك روسو (١٧١٢م – ١٧٧٨م) :

يعد من أعظم كتاب عصره فقد أصدر كتابه (العقد الاجتماعي) عام ١٧٦٢م وبشر فيه بنظرية سياسية اجتماعية جديدة ، أساسها أن الأفراد تنازلوا عن إرادتهم للمجتمع ، بمحض الرضا والاتفاق ، فسماها روسو بالعقد الاجتماعي ، وبذلك تصبح السيادة للمجتمع ، فيقوم باختيار الحكام وله أن يتبعهم

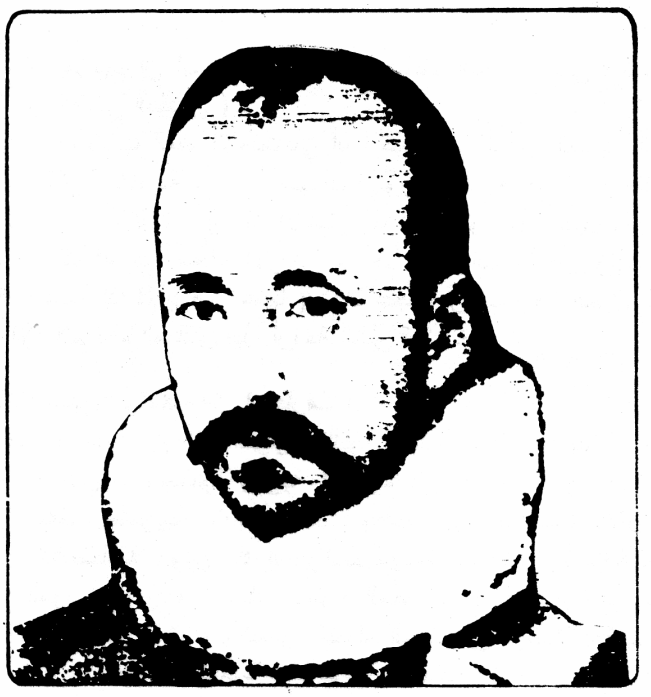

مونتسيكو

ميرابو

إن أحسنوا أو يعزلهم إن أســـاءوا . وبذا فقد حطم النظرية التي كانت ســـائدة (نظرية الحق الإلهي المقدس) .

وقد ترك كتاب العقد الاجتماعي أثراً كبيراً في أذهان الشعب الفرنسي ، وعلى نفوس الثوار خاصة ، مما جعلهم يستهلون افتتاحية حقوق الإنسان بعبارة اقتبسوها منه ، وجاء فيها : ((ولد الإنسان حراً ، وهو الآن مكبل بالأغلال في كل مكان. إن الحكام في أنحاء الأرض ما هم إلا نواب الشعب وللشعب الحق في تغيير الحكومة إذا لم يرض عنها)). فلا عجب أن أسموه " انجيل الثورة " . وقد طرح الإسلام هذه المبادئ قبل أربعة عشر قرناً خلت .

(٤) الاقتصاديون وكتاب دار المعارف :

هناك جماعة من الاقتصاديين ألفوا كتباً ورسائل عديدة ، في شرح مذهبهم الاقتصادي ، وطالبوا بحرية التجارة بين الدول ، وإلغاء الضرائب المتنوعة والاكتفاء بضريبة الأرض فقط . ودعوا إلى مبدأ عدم تدخل الحكومة في الأعمال الاقتصادية . وإن ذلك في رأيهم سيحقق للمجتمع رفاهيته .

أما الموسوعيون ، (كتاب دائرة المعارف) فقد تعرضوا في دائرة المعارف لأنواع الحكومات ، وانتقدوا النظام السائد في فرنسا والكنيسة ونبهوا الناس إلى مساوئ مجتمعهم خاصة فيما يتعلق بالامتيازات والضرائب .

لا شك أن اليقظة الفكرية كان لها دور كبير في إثارة أذهان الناس وحررت عقولهم ونبهتهم إلى مساوئ الكنيسة ، وسوء نظم الحكم ، فأرهفت شعورهم ، وعبأت قواهم ونظمت طاقاتهم ، فأخذوا يتطلعون للإصلاح ، وينشدون الحرية والمساواة . ولعل أحوال فرنسا الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، لم تكن بأسوأ من غيرها في أوربا ، ولكن سوء الحال وحده لا يكفي لاندلاع الثورة ، ما لم يصحبه وعي وشعور ورغبة في التخلص من الاستبداد ، وهذا هو دور اليقظة الفكرية في جميع الثورات .

(هـ) سوء الأحوال الاقتصادية :

كان النظام الاقتصادي في فرنسا مخالفاً لابسط القواعد الاقتصادية السليمة ، وتمثل ذلك في الآتي :

(١) عدم عدالة الضرائب ، فقد كانت مفروضة على العامة ، وهم غير قادرين على دفعها ، بينما أعفي منها القادرون ، وهم الأشراف ورجال الدين .
(٢) كثرة الضرائب التي فرضت على الطبقة العامة ، نذكر منها ضريبة الملح ، وضريبة الرأس ، والضريبة العقارية ، وضريبة الدخل، وضريبة العشور . ولقد استوعبت هذا الضرائب أربعة أخماس دخل الفلاح .
(٣) عراقيل التجارة الداخلية عند مرورها من إقليم لآخر ، الأمر الذي أدى إلى زيادة الأسعار وكثرة التهريب .
(٤) فرض الحماية الجمركية للصناعات المحلية ، رغم كثرة تكاليفها .
(٥) نظام الالتزام في جباية كثير من أنواع الضرائب ، فمثلاً دخل جمرك مرسيليا كان يطرح في المزاد ، ويباع لشخص يلتزم بتأدية المبلغ ، ثم يتولى بمهارته جمع المكوس على التجارة المستوردة والمصدرة ، وبذلك يتعرض التجار لتعنت الملتزمين وجشعهم ، وانعكس ذلك على العامة بارتفاع الأسعار .

(و) الأزمة المالية :

يمكن تلخيص أسبابها فيما يلي :
(١) كثرة الحروب التي خاضتها فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .
(٢) ضعف الملك لويس الخامس عشر ، وانغماسه في الملذات وحياة الترف ، تاركاً أمور الدولة إلى حاشية من النبلاء ، كان همهم مصالحهم والمحافظة على امتيازاتهم .
(٣) فقدان فرنسا للعديد من مستعمراتها .
(٤) ازدادت الحالة المالية سوءاً في عهد الملك لويس السادس عشر ، بسبب حياة الترف والبذخ التي كان يعيشها الملك ورجال البلاط ، بجانب إسراف الملكة ماري انطوانيت .
(٥) تردد الملك لويس السادس عشر ، وضعفه أمام معارضة كبار الأشراف والملكة ورجال الدين ، لكل إصلاح أو علاج للأزمة المالية .

ونتيجة لذلك استعصت الأزمة المالية ، واضطر الملك للاستعانة برجال اشتهروا بالكفاءة والخبرة في الشؤون المالية والاقتصاد ، منهم ترجو ، ونكر

وكالون ، ولكن كل مجهوداتهم وسياساتهم فشلت في حل الأزمة المالية . وإزاء تفاقمها ، أُجْبِرَ الملك على إجراء انتخابات ، لقيام مجلس طبقات الأمة الذي تعطل منذ سنة ١٦١٤م .

اندلاع الثورة سنة ١٧٨٩م :

بعد أن فشلت محاولات الملك لويس السادس عشر في إصلاح الوضع المالي المتردي كما مرّ ، لم يعد أمامه من حل سوى فرض ضرائب جديدة على الشعب . ولم يكن ذلك ممكناً إلا عن طريق مجلس طبقات الأمة فلذلك عمد لإجراء انتخابات المجلس .

مجلس طبقات الأمة :

بدأ الحماس يدب في أوساط الشعب الفرنسي ، عقب دعوة الملك لانعقاد مجلس طبقات الأمة ، وكان الشعب يتمنى هذه الفرصة ليعبر عن مطالبه ومظالمه . وقد تقدم أفراد الشعب بحوالي ستمائة ألف رسالة سياسية ، وعريضة تظلم ، عرفت في التاريخ باسم كراسات الثورة ، وقد عبرت معظمها عن المظالم التي أثقلت كاهل الطبقة العامة ، وعن الرغبة في وضع دستور يحدد الحقوق والواجبات ، والسماح بممارسة الحريات الفردية ، وإعلان مساواة جميع الفرنسيين أمام القانون ، وفي دفع الضرائب .

ومن أشهر كراسات الثورة ، الرسالة التي كتبها " سيس" – أحد رجال الدين المتعاطفين مع الشعب – وكانت هذه الرسالة تعبر عن أمل الطبقة العامة ، في تصحيح الأوضاع . ومن مطالبها :

أولاً : مضاعفة عدد نواب الطبقة العامة (من ثلاثمائة إلى ستمائة عضو)
ثانياً : التصويت الفردي .
ثالثاً : اجتماع نواب الطبقات الثلاث في قاعة واحدة .

وقد وافق الملك على مضاعفة عدد نواب الطبقة العامة ، الإ أنه لم يقرر شيئاً عن طريقتي التصويت والاجتماع . ويتضح أن رغبة الملك وطبقتي الأشراف ورجال الدين من وراء عقد المجلس لإصلاح الأوضاع المالية فقط ، بينما كانت رغبة الطبقة العامة والمتعاطفين معها ، إجراء إصلاحات جذرية .

فلا غرابة أن انعقد المجلس في مايو سنة ١٧٨٩م في ظل هذا التناقض والتباين في الأهداف والرؤى .

بدأ المجلس عمله في قصر فرساي ، بالاستماع إلى خطاب الملك ، الذي وضح خطة الحكومة ، وعرض فيه بعض الإصلاحات ، وأكد حقوق الملكية . ولكنه لم يُشِرْ إلى مطالب الشعب. وأخيراً طلب معالجة الحالة المالية وانصرف. وقد كان اجتماع جميع الأعضاء في قاعة واحدة .

وبعد انصراف الملك ، اختلف نواب الطبقة العامة مع نواب الطبقتين الممتازتين على طريقة الاجتماع والتصويت . وقد أراد نواب العامة اجتماع جميع النواب في قاعة واحدة ، علاوة على التصويت الفردي . بينما رفض رجال طبقتي الأشراف ورجال الدين رأي نواب الطبقة العامة ، وطالبوا بإبقاء طريقة التصويت المعمول بها سابقاً ، وهي صوت لكل طبقة واجتماع كل طبقة في قاعة منفصلة . وعليه اجتمع نواب الطبقة العامة منفردين وانضم إليهم عدد قليل من نواب طبقتي الأشراف ورجال الدين وبالتالي أعلنوا أنهم يمثلون أغلبية الأمة .

وقد حذر ميرابو – أحد الأشراف المتعاطفين مع الشعب – نواب الطبقتين الأخريتين بأن المجلس سوف يعمل ، سواء حضروا أو لم يحضروا ، وإزاء هذا التحذير ، انضم عدد من نواب الأشراف ورجال الدين إلى الاجتماع مع نواب الطبقة العامة – ومن جانب آخر أوحى النبلاء إلى الملك بإغلاق القاعة بحجة إجراء بعض التصليحات فيها . فأمر الملك بذلك فاضطر نواب الطبقة العامة ، ومن والاهم ، للاجتماع في ملعب التنس . وفي اليوم التالي عقدوا اجتماعهم في كنيسة القديس لويس .

وترتب على إصرار الطبقة العامة ، أن عقدوا اجتماعاً ضم الطبقات الثلاث في قاعة واحدة ، فحضر الملك وأعلن لهم ضرورة انفصال الطبقات الثلاث ، ثم غادر القاعة ، ولكن نواب العامة تمسكوا بانعقاد المجلس في قاعة واحدة ، باعتبارهم ممثلين لأمة واحدة ، ولذا أرسل الملك كبير أمناء القصر إلى النواب ، يطلب منهم مغادرة القاعة ، والاجتماع حسب الطبقات ، فتصدى له ميرابو وصاح فيه قائلاً " قل لسيدك أننا هنا بأمر الأمة ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنـــة الحراب " ، ومن ذلك الحين أطلق على ميرابو خطيب الثورة الفرنسية ، لفصاحته ، وجرأته فبدأت شرارة الثورة .

قيام الجمعية الوطنية في يونيو سنة ١٧٨٩م :

اتخذ نواب العامة ومن انضم معهم من النواب خطوة جريئة ، وأعلنوا أن مجلسهم يضم أكثرية نواب الأمة ، وهو مجلس شرعي قانوني أطلقوا عليه اسم الجمعية الوطنية في ١٧ يونيو ١٧٨٩م . كما أعلنوا بأنهم لن ينصرفوا حتى يسنوا دستوراً للمملكة . وتواصلت اجتماعات الجمعية الوطنية في فرساي .

وانطلاقاً مما سبق ، اضطر الملك إلى التراجع ، فأصدر أمراً في ٢٧ يونيو ١٧٨٩م ، يقضي باجتماع نواب الطبقات الثلاث معاً ، مدعياً بأنه لا يريد سفك الدماء ، ومن ثم انتظمت جلسات الجمعية الوطنية وانصرفت إلى سن الدستور . ولكن الملك لم يكن أميناً في موقفه فقد رضخ للواقع إلى حين استقدام جنود من الخارج لحمايته ، لأنه لم يكن واثقاً من ولاء الجيش له . وقد تم ذلك بإيعاز من زوجته الملكة ماري انطوانيت ، وفعلاً وصلت وحدات للحرس الملكي من سويسرا .

سقوط سجن الباستيل في يوليو ١٧٨٩م :

عندما وصلت وحدات الحرس الملكي من سويسرا ، أدى ذلك إلى هياج خواطر الشعب ، ورواج الإشاعات في باريس عن سوء نوايا الملك نحو الجمعية الوطنية ، فأسرع الشعب إلى العمل قبل أن ينفذ الملك ، ما وطد العزم عليه . فقد طلبت الجمعية الوطنية من الملك سحب الفرق العسكرية الأجنبية ، وتسليم باريس إلى حرس من الوطنيين . ولكن انطلقت الإشاعات بأن الحكومة صوبت مدافعها من سجن الباستيل لضرب الشعب . وفي حالة هياج وثورة اتجه الشعب صوب السجن ، ودار الصراع بين حرس السجن وبينهم لبضعة ساعات، وأخيراً تمكنوا من اقتحام السجن ، وأطلقوا سراح السجناء ، ثم ذهبوا أبعد من ذلك ، حيث أحرقوا الباستيل وهدموه ، وقد كان رمزاً للاستبداد والطغيان ، وكان ذلك في يوم ١٤ يوليو ١٧٨٩م ، وقد اعتبر الفرنسيون ذلك اليوم عيداً للحرية كل عام .

بعد ذلك انتقلت الثورة من باريس إلى الأقاليم ، ففعل الفلاحون بقصور الإشراف – أمراء الإقطاع – ما فعله أهل باريس بسجن الباستيل ، وهكذا اضطرب حبل الأمن ، وظهر جلياً عجز الملك وحكومته في إعـــادة الأمور إلى

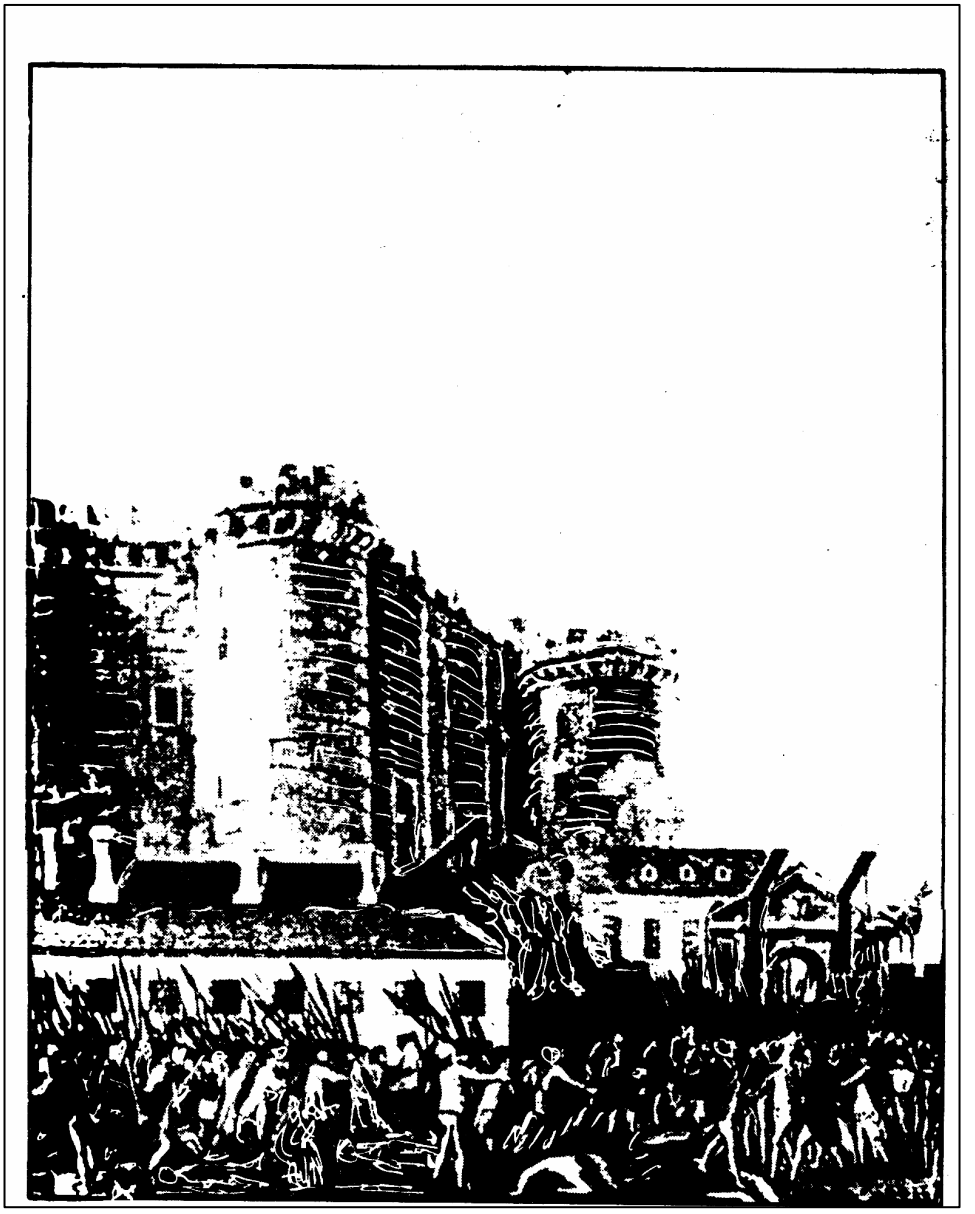

سقوط الباستيل

نصابها ، فاضطرت بلدية باريس ، إلى تشكيل فرق للحرس الوطني ، للمساعدة على حفظ النظام برئاسة لافاييت . ونتيجة لتلك الثورة والاضطرابات ، وما تعرض له الأشراف ، هاجر كثيرون منهم إلى الدول المجاورة . وهناك عملوا على تحريض ملوك الدول الأوربية الأخرى للوقوف ضد الثورة . الخريطة رقم (٣-١) توضح حدود الدول الأوربية عام ١٧٨٩م .

قرارات الجمعية الوطنية :

عندما تصاعدت حوادث الشغب والعنف ، لم تنتظر الجمعية الوطنية حتى تفرغ من الدستور ، فتصدره مرة واحدة ، بل جرفها تيار الحماس والرغبة في إرضاء الجماهير ، فكانت تعلن القرارات التي تجيزها أولاً بأول . وفي جلسة ٤ أغسطس ١٧٨٩م أصدرت عدة قرارات أهمها :

(١) الغاء الحقوق الإقطاعية وامتيازات الأشراف ورجال الدين .
(٢) الغاء ضريبة العشور التي كانت تدفع لخزينة الكنيسة .
(٣) المساواة بين الفرنسيين جميعاً في دفع الضرائب ، وتقلد المناصب العامة.
(٤) إعلان حقوق الإنسان والمواطن .

وبموجب هذه القرارات ، تحقق الانقلاب الاجتماعي ، الذي ظل الشعب يطالب به ، وزالت الامتيازات الطبقية التي كانت في فرنسا ، وتمّ هدم النظام القديم .

ترتب على تلك القرارات ، أن قلت الغلال في الأسواق ، فانعدم الخبز ، وسارت المظاهرات تنادي (الخبز .. الخبز) وكانت أبرزها مظاهرة النساء اللائي أحطن بقصر فرساي ، وطالبن بانتقال الملك إلى باريس ليقف على الأحوال بنفسه . فأذعن الملك لتلك الرغبة ، ونقل مقره إلى باريس في أكتوبر ١٧٨٩م ، ولحقت به الجمعية الوطنية هناك .

ومن التطورات التي أحدثتها قرارات الجمعية ، المطالبة بأن يتم انتخاب رجال الدين من قبل الشعب ، وأن يتقاضوا رواتبهم من الدولة التي آلت إليها أموال الكنيسة وأملاكها . وتحتم على رجال الدين أن يقسموا بيمين الولاء للدستور ، وإلا فصلوا من وظائفهم . ولم يرض الكاثوليك والبابا عن ذلك ، وأخذوا يقاومون الثورة .

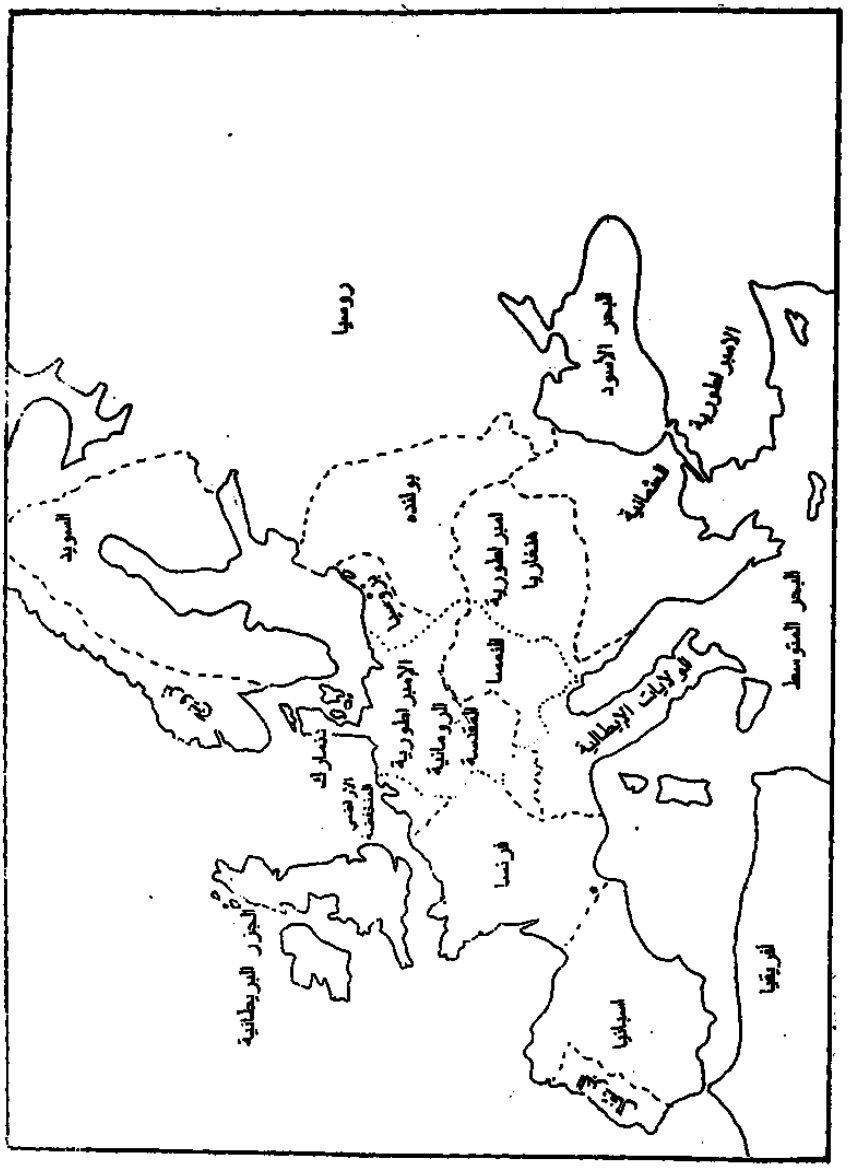

خريطة رقم (٣-١) : حدود الدول الأوربية عام ١٧٨٩م

وهناك رد فعل لتلك القرارات ، التي انتقصت من سلطات الملك ، وتعارضت مع نظرية الحق الملكي المقدس ، فلا غرابة أن تردد الملك في التوقيع عليها ، وإن رضخ في الظاهر وأمضاها على مضض ، غير أنه كان يضمر خطة الهرب خارج فرنسا . وقد شجعته على ذلك الملكة ، للاستعانة بجيوش بعض الدول الصديقة للقضاء على الجمعية الوطنية ، والغاء قراراتها ، وإعادة المياه لمجاريها .

وفعلاً شرع الملك والملكة في الهروب ، ومعهما ابنهما الصغير في ليلة ٢٠ يونيو ١٧٩١م ، واتجهوا نحو الحدود البلجيكية . تم اكتشاف تلك الخطة ، فقبض عليهم عند بلدة فارن ، وأعيدوا إلى فرنسا ، فقررت الجمعية إيقاف الملك إلى حين اكتمال وضع الدستور .

إعلان الدستور الجديد في سبتمبر ١٧٩١م :

ولما اكتمل الدستور ، صدق عليه الملك في ١٤ سبتمبر ١٧٩١م ، فأعلنت الجمعية الوطنية إنهاء مهمتها ، وقرر أعضاؤها الاستقالة من مناصبهم لافساح المجال أمام الشعب لاختيار نوابه . كما قرروا ألا يرشح أحد منهم لانتخابات الجمعية التشريعية القادمة ليبرهنوا على إيثارهم المصلحة العامة ونكران الذات.

قيام الجمعية التشريعية أكتوبر ١٧٩١م :

ولما انعقدت الجمعية التشريعية في اكتوبر ١٧٩١م كان معظم أعضائها من الشباب قليلي الخبرة السياسية يدفعهم الحماس وكانت مهمة الجمعية تنحصر فيما يأتي :

(١) حماية أعمال الجمعية الوطنية ، وسن القوانين التي تتماشى مع الدستور الجديد .
(٢) حماية الثورة من أعدائها في الداخل والخارج .
(٣) معالجة الوضع المالي .

وخلال فترة وجيزة من عمر الجمعية التشريعية ، اشتد التنافس بين أعضائها حول السلطة، وانقسموا شيعاً وأحزاباً . وكان أكثرها تطرفاً حزب اليعاقبة ، ومن أشهر زعمائه روبسبير . ومن الأحزاب التي ظهرت ، حزب

الجبل ، (الجيروند) ، وحزب الملكيين الدستوريين ، وحزب الوسط . ولقد واجهت الجمعية التشريعية الخطر الخارجي على الثورة .

الخطر الخارجي :

بدأت الدول الأوربية التفكير في القضاء على الثورة الفرنسية ومهاجمتها في عقر دارها وذلك لعدة أسباب هي :

(١) نادت الثورة الفرنسية بحقوق الإنسان ، ومبادئ أخرى تخالف الأسس التي تسير عليها حكومات أوربا آنذاك ، بل تهدد بقاء تلك الحكومات .

(٢) إصرار رجال الثورة على نشر مبادئ الحرية ، والإخاء ، والمساواة في الخارج . كما تعهدوا بمساعدة أي شعب أوربي يرغب في تطبيق هذه المبادئ ، مما أفزع الملوك المستبدين .

(٣) تصميم ملك النمسا على حماية ملك فرنسا وملكتها أولاً ، وإخماد الثورة ثانياً ، لأن ملكتها شقيقته .

(٤) سخط البابا والدول الكاثوليكية ، على قرارات الثورة الخاصة برجال الدين .

لذا اهتمت الجمعية التشريعية بالخطر الخارجي الذي بات يهدد فرنسا الثورة. فأعلنت أن الوطن أصبح في خطر وطافت المظاهرات تطالب بخلع الملك. كما طالبت بدعوة قيام مؤتمر وطني بديلاً للجمعية التشريعية ، لمواجهة الأخطار الخارجية . وقد دفع الحماس والتطرف حزب اليعاقبة للهجوم على قصر الملك في منتصف ليلة ٩ أغسطس ١٧٩٢م ، بغية القبض على الملك . ولكنه – وأسرته – لجأوا إلى الجمعية التشريعية ، ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها. ونتيجة لهذه التطورات ، قررت الجمعية التشريعية تقديم استقالتها لتفسح المجال للشعب لانتخاب حكومة جديدة .

المؤتمر الوطني سبتمبر ١٧٩٢م :

وبانعقاد المؤتمر الوطني ، تطورت الأمور نحو العنف والإرهاب . فقرر المؤتمر : الغاء الملكية وإعلان الجمهورية في ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢م ، كما شكل لجنة لوضع دستور جديد .

حُكم على الملك بالإعدام ، وأعدم بالمقصلة في ٢١ يناير ١٧٩٣م ، وقد ترك إعدامه آثاراً خطيرة في الداخل والخارج ، فازداد أعداء الثورة وعم السخط بين الأقاليم الموالية للملكية . أما في الخارج فقد هز الحادث قلوب حكام أوربا وشرعت انجلترا في تحريض الدول الأوربية وتأليبها ضد فرنسا ، ووقفت إلى جانبها النمسا ، وبروسيا ، وأسبانيا ، وهولندا ، ونابلي .

بداية عهد الإرهاب :

استصدر حزب الجبل قراراً من المؤتمر الوطني ، بأن تشكل السلطة التنفيذية من ثلاث هيْآت لترد الخطر عن فرنسا على النحو الآتي :

(١) لجنة الأمن العام لتصريف أمور الدولة .
(٢) لجنة الضمان العام لحفظ النظام الداخلي .
(٣) محكمة الثورة لتطهير البلاد وبث الرعب في قلوب أعداء الثورة .

وبقيام هذه الهيْآت الثلاث انتقلت السلطة الحقيقية من يد المؤتمر الوطني إلى حزب الجبل . وقد اتخذ هذا الحزب قرارات وإجراءات لحماية الثورة هي :

(١) نزع سلاح كل من يشك في ولائه للثورة .
(٢) تسليح المواطنين بالحراب .
(٣) تأليف حرس أهلي في كل مدينة .
(٤) مصادرة املاك المهاجرين وإعدام من يعود منهم .

وبجهود حزب الجبل ، اكتسبت لجنة الضمان العام سلطة دكتاتورية ، فتنازل لها المؤتمر الوطني عن سلطاته ، واكتفى بمهمة سن دستور جديد . وأصبح على اللجنة أن تطهر الداخل من أعداء الثورة ، وأن تؤمن فرنسا من أعدائها في الخارج . ومن أجل ذلك اتخذت عدة أجراءات هي :

(١) معالجة الأزمة المالية بإصدار قرض داخلي .
(٢) إصدار قانون المشبوهين والضرب على يد من لا يظهر ولاءه للثورة وتمّ نتيجة لذلك إعدام الآلاف من الفرنسيين .
(٣) تسعير الغلال ومعاقبة المستغلين .
(٤) تقرير التعبئة العامة لجميع الفرنسيين ، مهما كانت السن ، فالشباب للقتال ، والرجال المتزوجون لصنع السلاح ونقل الإمدادات ، والنساء

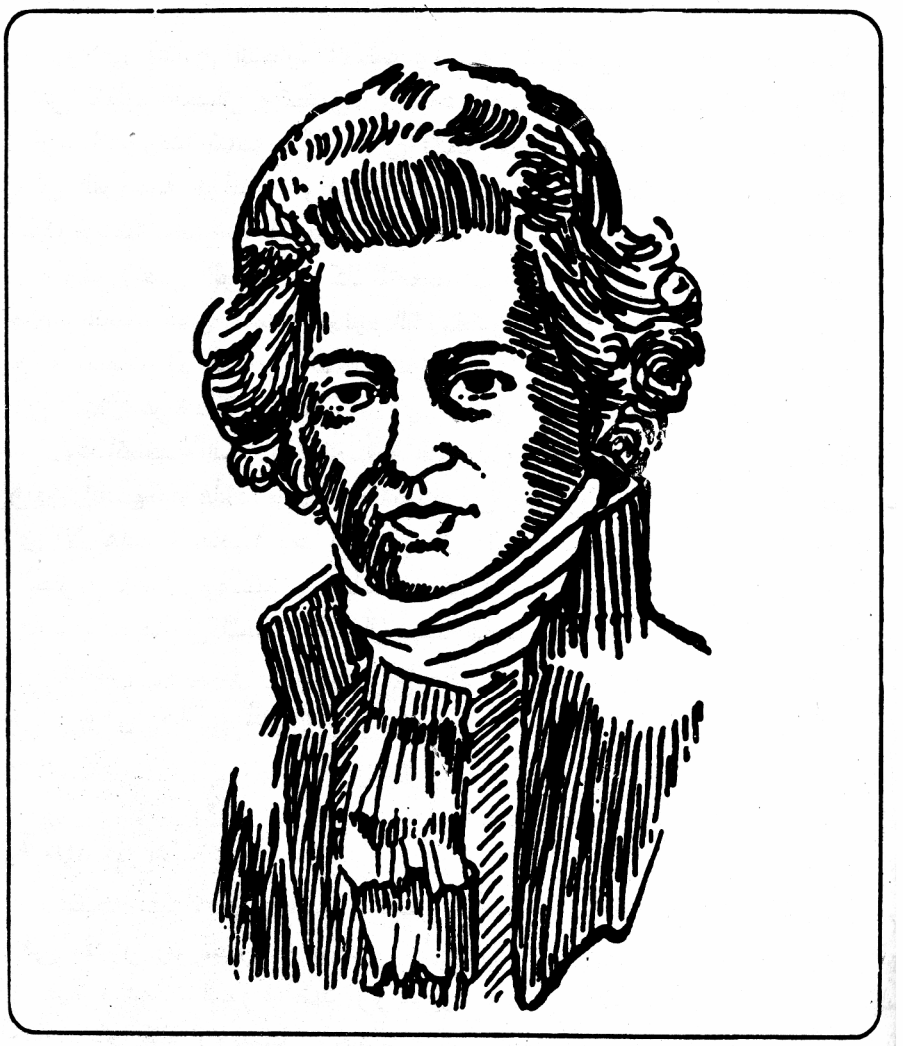

روبسبير

للعمل في مصانع الخيام والأقمشة والمستشفيات ، والأطفال لتمزيق الثياب البالية لعمل ضمادات للجروح ، والعجائز للتشجيع .

وكان إعلان التجنيد الإجباري ، واستنهاض همم الفرنسيين ، وجهود كانو في تنظيم الجيش وتجهيزه ، ساعد على إيقاف زحف الجيوش المتحالفة ضد فرنسا . وبذا تسنى لفرنسا أن تنجو من الخطر الخارجي . كما أجبرت الجيوش الفرنسية هولندا ، وبلجيكا على التراجع إلى ما وراء جبال البرانس . فوصلت فرنسا لحدودها الطبيعية .

وفي نفس الوقت ، كانت محاكم الثورة تقضي بالإعدام على مئات الرجال والنساء ممن حامت حولهم الشبهات ، وبالتالي سادت فرنسا حالة إرهاب فظيع ، بسبب الإعدام والانتحار من سوء المصير ، وانقلبت الثورة كما يقولون " مثل هرة تأكل بنيها " .

وقد تسببت السياسة التعسفية التي أنتهجها اليعاقبة ، إلى انشقاق الزعماء الثوريين أنفسهم ، فأخذ فريق بقيادة دانتون يميل إلى الاعتدال ، لقناعتهم بعدم جدوى الإرهاب ، خاصة بعد القضاء على الفتن الداخلية ، وإيقاف خطر الأعداء من الخارج . أما روبسبير وجماعته ، فقد كانوا يرون ضرورة استمرار سياسة الإرهاب ، بحجة أن الخطر ما زال يهدد الجمهورية .

فتمكن روبسبير أن ينفرد بالحكم ، وتخلص من خصومه الواحد تلو الآخر ، وفي خلال تلك الفترة أعدمت الملكة ، كما أعدم دانتون ، رفيق روبسبير .

نهاية عهد الإرهاب :

نتيجة لكثرة الإعدامات ، أحس أعضاء المؤتمر بالخطر المحدق بهم ، وأن في مقدور روبسبير أن يقضي عليهم باسم حماية الثورة من أعدائها . لهذا تكتل بقية زعماء الثورة ضد روبسبير ، وقرر المؤتمر اعتقاله بعد جلسة صاخبة ، ثم اقتيد روبسبير وجماعته إلى المقصلة وتم إعدامهم . وكان مقتل روبسبير إيذاناً بانتهاء عهد الإرهاب في فرنسا ، وعودة المؤتمر الوطني إلى سياسات الاعتدال ، والغيت محاكم الثورة ومن بعد ذلك تفرغ المؤتمر الوطني لإعداد دستور جديد لفرنسا ، ونص هذا الدستور على قيام حكومة جديدة .

دستور العام الثالث سنة ١٧٩٥م :

وبموجب هذا الدستور ، تم تشكيل السلطات الثلاث على النحو الآتي :

(١) السلطة التنفيذية : وقد جعلت في يد حكومة الإدارة ، وتتكون من خمسة مديرين تنتخبهم الهيئة التشريعية ، ويرأس الحكومة واحد منهم بالتناوب لمدة ثلاثة أشهر . ومهمة هؤلاء المديرين الإدارة ، والسياسة ، والشؤون الحربية ، ويساعدهم بعض رؤساء المصالح .

(٢) السلطة التشريعية : ومن مهامها انتخاب أعضاء السلطة التنفيذية وتتكون السلطة التشريعية من مجلسين : مجلس الشيوخ (السناتو) ويتألف من ٢٠٠ عضو ممن زادت سنهم عن الأربعين عاماً ، أما مجلس الخمسمائة يتكون من ٥٠٠ عضو ممن زادت اعمارهم عن الثلاثين عاماً .

(٣) السلطة القضائية : نص الدستور على قيام محكمة عليا ، ومجلس لمراجعة الأحكام ، وجعل وظيفة القضاء حقاً لكل مواطن ، بشرط ألا يقل عمره عن الثلاثين عاماً . ويختار القاضي لمدة عامين بغض النظر عن مؤهلاته القانونية .

حكومة الإدارة (١٧٩٥م – ١٧٩٩م) :

تمثل هذه الحكومة أول تجربة لحكومة جمهورية في فرنسا ، مؤسسة على الدستور . ولكن هذه التجربة لم يقدر لها النجاح . فقد اعترضتها مشاكل داخلية، كما انشغلت بحروب خارجية ضد الدول الأوربية . لقد ظل نظام حكومة الإدارة قائماً نحو أربع سنوات ، وقد لمع فيها اسم الضابط نابليون بونابرت ، فمن هو هذا الضابط ؟

نابليون بونابرت (١٧٩٩م – ١٨٢١م) :

ولد في جزيرة كورسيكا الايطالية سنة ١٧٦٩م . دخل الكلية العسكرية الفرنسية ، ولمّا تخرج فيها أبدى مهارة فائقة في شؤون الحرب . بدأ نجمه يتألق عندما استخدمته حكومة المؤتمر الوطني لتفريق المظاهرات التي قامت ضدها عام ١٧٩٥م . كما حقق نابليون لجيوش الثورة انتصارات خارجية ، نذكر منها انتصاره على الجيش النمساوي وحليفته سردينا حيث أجبرت النمسا لطلب الهدنة

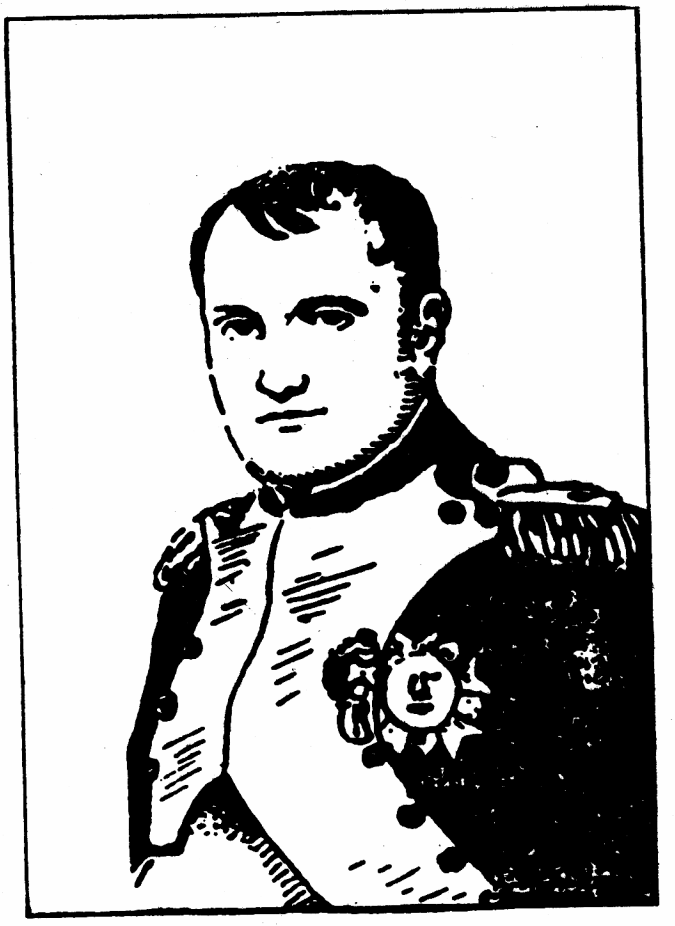

صورة نابليون

وعقد معها نابليون صلحاً في اكتوبر عام ١٧٩٧م . وبموجبه تخلت النمسا عن أملاكها في ايطاليا مقابل حصولها على البندقية ، كما اعترفت النمسا بحق فرنسا في الشاطئ الأيسر للراين .

وقاد نابليون حملة على مصر سنة ١٧٩٨م ، واحتل الإسكندرية والقاهرة ، فهدد مصالح انجلترا في الشرق ، وقطع طريقها لمستعمراتها في الهند . ولم تقف انجلترا مكتوفة الأيدي ، بل تمكنت من تحطيم الأسطول الفرنسي في أبي قير (قرب الاسكندرية) ، كما سعت لتأليب الدول الأوربية ضد فرنسا. فتحرج موقف حكومة الإدارة ، فاضطرت لاستدعاء نابليون من مصر ، فعاد سراً إلى فرنسا وعين حاكماً على باريس . وفي عام ١٨٠٢م وافق الفرنسيون على الجلاء من مصر التي عادت للحكم العثماني .

حكومة القنصلية :

ازداد عدد الحلفاء ضد فرنسا ، لهذا تطلع الفرنسيون إلى رجل ماهر جسور لقيادة فرنسا . فاتجهت الأنظار نحو نابليون . ووضعت السلطة التنفيذية في يد ثلاثة قناصل وأصبح نابليون القنصل الأول . واجه نابليون الحلفاء مواجهة صارمة ، وحقق بعض الانتصارات ، وألف حلفاً بحرياً في يناير سنة ١٨٠١م مع روسيا والدنمارك والسويد وبروسيا .

أما في سياسته الداخلية فقد قام نابليون بعدة إصلاحات في النواحي الإدارية ، والمالية ، والقضائية ، واعترف بالكنيسة الكاثوليكية فكافأه مجلس الشيوخ بترشيحه قنصلاً مدى الحياة ووافق الشعب على ذلك في استفتاء تم سنة ١٨٠٤م . وبما أن طموح نابليون كان أكبر من ذلك بكثير ، فقد استطاع أن يقنع مجلس الشيوخ بترشيحه امبراطوراً . وتمت موافقة الشعب على ذلك في استفتاء سنة ١٨٠٤م ، أي في نفس العام الذي اختير فيه قنصلاً مدى الحياة .

عهد الامبراطورية في فرنسا (١٨٠٤م – ١٨١٥م) :

تعرضت فرنسا في هذه المرحلة إلى أحداث جسام ، إذ اشتدت المنافسة بينها وبين انجلترا ، خاصة عندما حاولت الأخيرة تكوين حلف أوربي جديد ضد فرنسا فنشبت بينهما معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م ، وهُزم فيها الأسطول

الفرنسي هزيمة نكراء ، فأعلن نابليون سياسة الحصار الاقتصادي على انجلترا وهو أسلوب عمد إليه لمقاطعة انجلترا تجارياً هو والدول الخاضعة له والمتحالفة معه بقصد إيجاد أزمة اقتصادية فيها .

ولكن سياسة الحصار الاقتصادي التي فرضها نابليون على انجلترا ، لم تأت أكلها لعدة أسباب أهمها ، توتر العلاقات بين نابليون وقيصر روسيا ، رغم ما كان بينهما من صداقة ، منذ معاهدة تلست سنة ١٨٠٧م . وقد تضرر الشعب الروسي كثيراً من الحصار الاقتصادي المضروب على انجلترا ، فتذمر الشعب وسخط من السياسة القيصرية لذا تخلى القيصر عن سياسة الحصار آنفة الذكر مما أغضب نابليون فقاد حملة كبيرة غزا بها روسيا سنة ١٨١٢م . ولكن نابليون هزم هزيمة نكراء وتحطم جيشه .

وتضافرت عدة أسباب أدت إلى هزيمة حملة نابليون هزيمة ساحقة ، وهي :

(١) الخطة التي وضعها الروس للتراجع أمام جيش نابليون وسحبه إلى الداخل .
(٢) اشتداد البرد وصعوبة المواصلات .
(٣) حرق كل ما ينفع جيش نابليون وحتى مدينة موسكو لم تسلم من الحرق.
(٤) إبادة معظم جيش نابليون وقد فقد خمسمائة ألف من جنوده .

ونتيجة لتلك الهزائم والخسائر تحركت القوى الداخلية في فرنسا من أجل السلام بعد أن شعرت بتحركات قائدها الجنونية وخشيت أن تفنى البلاد بسبب مطامعه . أما على الجبهة الخارجية ، فقد تم عقد تحالف بزعامة انجلترا وروسيا من أجل القضاء على نابليون ، وانتصرت جيوش التحالف عليه في معركة ليبزج سنة ١٨١٣م ، (معركة الأمم) . وفيها هزم نابليون هزيمة فظيعة ، وتقهقر إلى فرنسا ، إلا أنَّ الحلفاء واصلوا زحفهم حتى سقطت باريس في مارس سنة ١٨١٤م ، فأجبروا نابليون للتنازل عن العرش .

نهاية نابليون :

نفي نابليون إلى جزيرة البا ، الواقعة غرب الشاطئ الغربي لايطاليا ، وأعيدت الملكية إلى فرنسا ، ونصب على عرشها لويس الثامن عشر وهو من أسرة البوربون ، وكان لويس السابع عشر قد توفي في السجن سنة ١٧٩٥م . ولكن نابليون تسلل من منفاه سراً إلى باريس ومعه ١٢٠٠ جندي وبتأييد من الشعب والجيش حكم فرنسا مرة أخرى فهرب لويس الثامن عشر إلى فينا .

أعلن نابليون عند عودته لحكم فرنسا أنه جاء لينقذ فرنسا من سيطرة النبلاء ، وليوطد حقوق الإنسان ، وأنه سيحكم فرنسا دستورياً وأنه نبذ سياسة الحرب والتزم السلم . أما الحلفاء فقد كانوا مجتمعين في فينا لوضع أسس السلم فلما علموا بعودة نابليون جمعوا شملهم وأعدوا جيوشهم .

خاض نابليون غمار المعركة الأخيرة ضد الحلفاء في وترلو (في بلجيكا) في شجاعة نادرة ، غير أنه هزم هزيمة نكراء. وتعتبر وترلو من أعظم معارك التاريخ الفاصلة ، لأنها قضت نهائياً على نابليون وسيطرته . وبعد تلك الهزيمة الساحقة ، رجع نابليون إلى باريس ، وتابعه الحلفاء حتى دخلوا باريس وأعادوا لويس الثامن عشر ملكاً مرة أخرى على فرنسا .

أما نابليون فقد نفي إلى جزيرة سانت هيلانة في جنوبي المحيط الأطلسي ، وقضى فيها بقية عمره وتوفي سنة ١٨٢١م تاركاً وصيته بأن يدفن على شاطئ نهر السين ، قريباً من الشعب الفرنسي ، وقد نقلت رفاتـــه إلى باريس .

مؤتمر فينا سنة ١٨١٥م :

وبعد نفي نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة هدأت الأحوال في أوربا ، ورأت الدول الأوربية بأن الظروف أصبحت مواتية لوضع صيغة للسلام وصيانة أمن أوربا . فاجتمع في فينا ملوك وأباطرة وسفراء كل من بريطانيا ، والنمسا ، وبروسيا ، والدنمارك ، وفرنسا ، وممثل للبابا . فأعلن أعضاء المؤتمر أنهم اجتمعوا ليعيدوا السلام ، ويعملوا للوصول إلى تسوية دائمة للمشكلات الأوربية ، وليعيدوا الحقوق الشرعية إلى أصحابها ، ويعيدوا خريطة أوربا إلى ما كانت عليه قبل حروب نابليون .

ومن أهم بنود مؤتمر فينا ما يلي :

(١) إعادة فرنسا إلى حدودها عام ١٧٨٩م
(٢) لم يسمح لبروسيا بضم الالزاس واللورين ، بل تم تكوين دولة موحدة من هولندا وبلجيكا كما تم إنشاء الإتحاد السويسري .
(٣) زادت مساحة بروسيا لهذا ، فأصبح الطريق ممهداً لاتحاد المانيا .
(٤) نالت النمسا مكاسب في سهل لمبارديا ومنطقة البندقية ، وساحل دلماشيا وغاليسيا .
(٥) أضيف إلى روسيا عدد من الرعايا من بولندا ، وفنلنده ، وبسرابيا .
(٦) احتفظت بريطانيا بمالطا ، وسيلان ، ورأس الرجاء الصالح .

لقد وُجهت عدة انتقادات لمؤتمر فينا بأنه تنكر لمبادئ استقلال الشعوب وحقها في تقرير مصيرها . كما أن المؤتمر لم يفكر في تحقيق الوحدة القومية للشعوب الأوربية ، علاوة على إهماله مطالب الدول الصغيرة ، والتضحية بحقوقها ، إرضاءً للدول الكبيرة . ومما تقدم نهضت بعض شعوب أوربا من أجل تحقيق آمالها وتطلعاتها ، وحفل القرن التاسع عشر بالحركات الدستورية والقومية ، مثل حركة الوحدة الإيطالية ، والوحدة الألمانية .

(٣-٥) الثورة الصناعية في أوربا :

(أ) تعريفها :

هي تغيير جوهري ، أو سلسلة من التغيرات الأساسية في طرق الصناعة ، نقلت الناس من الحِرف التقليدية البدائية الوراثية ، إلى أساليب جديدة متطورة في التصنيع أساسها الآلة .

(ب) نشأتها :

ظهرت الثورة الصناعية في بادئ الأمر في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وهناك عدة أسباب ساعدت على ذلك هي :

(١) تراكم رؤوس الأموال غير المستثمرة في بريطانيا ، والرغبة في استثمارها .
(٢) اتسعت الأسواق أمام الشركات التجارية ، وازداد الطلب على منتجاتها الصناعية .
(٣) ظهور الاختراعات الحديثة أدى إلى تطور كثير من الآلات التي تنتج كميات ضخمة من المصنوعات .
(٤) أتاحت الأحوال السياسية في بريطانيا ، فرصاً كبيرة أمام الراغبين من العمال المهرة ، الهولنديين والفرنسيين وغيرهم .
(٥) توفر مدخلات الصناعة في بريطانيا ، فضلاً عن سخاء الطبيعة بها .

هذه الأسباب مجتمعة ، هي التي مكنت بريطانيا أن تنال قصب السبق في قيام الثورة الصناعية الأوربية ، فبدأت تتجمع الثروة شيئاً فشيئاً ، منذ القرن السادس عشر ، من القرصنة ، والسلب من مستعمراتها في أمريكا ، ومراكزها التجارية في الهند ، فضلاً عن تنفيذها قوانين الملاحة لحماية تجارتها فنهضت الصناعات فيها ، ومنها انتقلت إلى بقية الدول الأوربية الأخرى ، ثم إلى أجزاء أخرى من العالم .

(ج) تطور الصناعات :

(١) صناعة النسيج :

كان أول ظهور الاختراعات هي آلات النسيج ، علماً بأن زراعة القطن وصناعته قد ظهرت في الهند منذ زمن بعيد . وعندما تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية ، استطاعت تطوير العلاقات التجارية بين الهند وبريطانيا ، فأدخلت الخام إلى بريطانيا ، وسرعان ما بدأت الأخيرة نسيجه . ولحماية صناعة النسيج البريطاني منع البرلمان سنة ١٧٠٠م ، استيراد الصناعات القطنية الهندية إلى بريطانيا ، وقد تبع ذلك ظهور قانون الخام سنة ١٧٢١م ، الذي يعد البداية الحقيقية لصناعة القطن في انجلترا .

وقد شرعت هذه الصناعة في التطور السريع بعد أن سجل سنة ١٧٣٨م اختراع مكنة بسيطة للغزل، ثم أعقبتها المكوك الطائرة التي اخترعها جون كي، واستمرت سلسلة من التحسينات التي طرأت على اختراعات آلات النسيج، حتى دخلت مرحلة الأصباغ الكيميائية ، فأضحى الرجل الواحد يطبع بهذه الماكنة من القماش القطني ما لا يستطيعه إلا مائتا شخص بالطريقة اليدوية .

(٢) التعدين :

كان الخشب هو الوقود الرئيس والمادة الأساسية للبناء ، مما أدى إلى استهلاك الخشب بصورة كبيرة ومذهلة . لذا بدأ التفكير في إيجاد البديل له ، فظهر استخدام الفحم الحجري ، ثم توسعت حركة استخراجه لصناعة الحديد على نطاق واسع في القرن الثامن عشر الميلادي .

(٣) المحرك البخاري :

قاد تطور صناعة الحديد ، إلى التفكير في اختراع محرك بخاري ، فجاء اختراع جيمس واط للمحرك البخاري في عام ١٧٦٩م ، وبذلك بدأ عصر جديد للصناعة والحياة البشرية ، عرف بعصر البخار .

(٤) وسائل النقل :

إن تطور صناعة النسيج ، وتقدم صناعتي الفحم والحديد ، كان لها الأثر الكبير في تطور وسائل النقل ، فلا غرابة أن احتاج أصحاب الصناعات

والمناجم ، إلى أفضل الوسائل وأسرعها لنقل البضائع إلى الأسواق المختلفة . وعليه فإن وسائل النقل قد خطت خطوات كبيرة في التطور ، عندما اكتشف جورج استيفنسن القاطرة البخارية الأولى سنة ١٨٢٥م ، وتبع هذا التطور تطور آخر في تشييد الطرق وتعبيدها ، لأن حجم الإنتاج الضخم أصبح يحتاج إلى عدد هائل من المستهلكين الذين يسكنون في أماكن بعيدة ، تحتاج لوسائل لنقل البضائع إليها .

ويمكننا أنْ نقول أن الثورة الصناعية في انجلترا قد اجتازت دورها التمهيدي بعد أن ظهرت تطورات أساسية في صناعة النسيج ، وصناعتي الحديد والفحم ، فأخذت الماكينات تحل محل الأيدي العاملة . كما أصبح البخار قوة محركة ، فانتظمت الثورة فشملت جميع مناحي الحياة في انجلترا .

إنَّ التقدم الصناعي الذي حققته بريطانيا استفز رجال الأعمال في الدول الأوربية الأخرى ، فزاروا بريطانيا ، ونقلوا أسلوبها إلى دولهم . وبذلك انتشرت الثورة الصناعية في دول أوربا الأخرى كما سنرى .

(د) انتشارها في أوربا :

(١) بلجيكا :

بدأت خطوات الثورة الصناعية فيها قبل عام ١٨٣٠م ، وعندما أطل عام ١٨٧٠م أصبحت من أكثر الدول الأوربية كثافة بالسكان ، فاعتمد أغلبهم على الصناعة والتجارة في معاشهم . وعندما وافق البرلمان البلجيكي على مشروع جورج استيفنسن لتأسيس مجموعة الخطوط الحديدية الوطنية البلجيكية ، غدت بلجيكا منافساً لانجلترا في جميع أساليب التطور الصناعي .

(٢) فرنسا :

هناك عدة عوامل أدت إلى تأخير قيام الثورة الصناعية فيها ، ويعود ذلك لقلة مواردها المعدنية ، فضلاً عن تمسك الفرنسيين بتقاليد العمل اليدوي وحمايتهم له . وعلى الرغم من هذه الموانع فقد توغلت الثورة الصناعية فيها فبدأت بالتعدين وتركزت صناعاتهم في بادئ الأمر في شمالي فرنسا ، أي في الألزاس واللورين وحول باريس وغيرها .

(٣) المانيا :

ظلت متأخرة في مواكبتها للثورة الصناعية في أوربا على الرغم من موارد الفحم والحديد الواسعة بها ، ويعود ذلك لعدم استقرارها السياسي ، وفي آخر الأمر طرأت ظروف ساعدت على قيام الثورة الصناعية فيها عندما ظهر الزولفرين (Zollverein) سنة ١٨٣٣م ، (الاتحاد الجمركي بين بروسيا وبعض الدويلات الالمانية) ، والذي ينص على جعل التجارة حرة بين الدول الأعضاء . فأدى بدوره إلى ترويج التجارة وزيادة الثروة . كما برزت الرغبة في نفس الوقت لإصلاح وسائل النقل الداخلي . وعليه فقد نشطت الثورة الصناعية بها وأضحت نتائجها ملموسة بعد سنة ١٨٧٠م ولكن كانت تعوزها مراكز التسويق في الخارج .

(٤) الدول الأوربية الأخرى :

ظهرت الثورة الصناعية على نطاق واسع في بقية الدول الأوربية الأخرى ، بصور متفرقة في هولندا ، والسويد ، وأسبانيا ، وبولندا الروسية، وإيطاليا ، وغيرها .

لم تقتصر الثورة الصناعية على قارة أوربا ، بل خرجت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بفضل المساعدات التي قدمها لها الرأسمال الإنجليزي ، والماكينات الإنجليزية. وبعد أن توسعت السكك الحديدية وإداراتها ، حدث تقدم كبير في تعدين الفحم وصنع الحديد في بنسلفانيا ، وبالتالي توسعت أسواق الصناعات على اختلاف أنواعها رغم اهتمام غالبية الشعب الأمريكي بالزراعة لتصبح أمريكا دولة صناعية ورأسمالية من الطراز الأول .

(٣-٦) الوحدة الايطالية :

أحوال ايطاليا :

تجاهل مؤتمر فينا سنة ١٨١٥م كل المبررات التي تجعل من إيطاليا دولة واحدة ، بل أعاد البلاد لأوضاعها السابقة ، كما أعاد إليها أيضاً حكامها المستبدين. إلى جانب عودة النفوذ الأجنبي النمساوي فيها . وعليه أصبحت ايطاليا بموجب قرارات المؤتمر ، مجزأة ومقسمة إلى ممالك صغيرة على النحو الآتي :

(١) مملكة لمبارديا وعاصمتها البندقية وتقع في الشمال الشرقي من ايطاليا وهي من أغنى المناطق وقد أعيدت إلى الحكم النمساوي المباشر .
(٢) مملكة بيدمنت ومعهـــا جزيرة سردينا في شمالي غرب ايطاليـــا وعاصمتها تورين وهي مملكة فقيرة ظلت مستقلة .
(٣) مملكة نابولي وهي تتكون من منطقـــة نابولي (العاصمة) وجزيرة صقلية ، ويحكمها ملك من أصل أسباني فرنسي .
(٤) أملاك البابا في الوسط ، وقد كان البابا حليفاً للنمسا رمز القوى المستبدة في أوربا وقد كانت متسلطة على ايطاليا آنذاك .
(٥) امارات (دوقيات) صغيرة في ايطاليا أشهرها بارما ، ومودنيا التي كان أمراؤها نمساويون .
(٦) دوقية تسكانيا وعاصمتها فلورنسا .

يتضح من هذا التقسيم أن معظم ايطاليا أصبحت إمّا محكومة حكماً مباشراً من قبل النمسا أو أن حكامها مرتبطون بها . وبذلك عاد التفكك السياسي وسيطرة النمسا واستبدادها على معظم مناطق ايطاليا ما عدا مملكة بيدمنت الفقيرة التي احتفظت باستقلالها .

نشأة الجمعيات :

كان من أثر سياسة كبت الحريات ، أن أخذ المناضلون يعملون من أجل حرية ايطاليا ووحدتها واستقلالها ، فتألفت الجمعيات لهذا الغرض ، ومن أشهرها :

(١) جمعية الكاربوناري (الفحاميون) :

تلخصت أهدافها في توحيد ايطاليا ، وطرد النمسا ، وإقامة حكم دستوري سليم في البلاد . قامت هذه الجمعية بثورة في نابولي سنة ١٨٢٠م ضد الملك ، فتدخلت النمسا بطلب من ملك نابولي فأخمدت الثورة في الحال . كما قامت ثورة مماثلة في بيدمنت ولقيت نفس مصير نابولي ، بتدخل النمسا ، وتتابعت الثورات في إيطاليا حتى سنة ١٨٣٠م ولكنها فشلت جميعها ، بسبب تدخل النمسا بالقوة ، علاوة على عدم تأييد مختلف قطاعات الشعب للثورات . فاقتضى الأمر إلى ضرورة نشر الوعي القومي بين أفراد الشعب وتعريفهم بأهمية الاستقلال وضرورة نيل الحرية والوحدة .

(٢) جمعية ايطاليا الفتاة :

أسس هذه الجمعية جوزيف مازيني (١٨٠٥م – ١٨٧٢م) ، ولد في جنوة، اشترك في جمعية الكاربوناري ، التي عمل أعضاؤها على نشر الوعي الوطني بين أفراد الشعب ، وقد حددت هذه الجمعية أهدافها فيما يلي :

أولاً : وحدة كل ممالك ايطاليا .

ثانياً : استقلال ايطاليا بطرد النمسا ، لتصبح ايطاليا مستقلة حرة . وكان لنشاط هذه الجمعية أكبر الأثر في بث الوعي الوطني والقومي في جميع البلاد مما ساعد على تحقيق الوحدة الايطالية فيما بعد .

جهود مازيني وغاريبالدي :

ومن زعماء الشعب الذين يرجع إليهم الفضل في تعبئة مشاعر الايطاليين وإيقاظ وعيهم القومي جوزيف مازيني الذي انخرط بادئ الأمر في جمعية الكاربوناري كما ورد ذكره . وقد تعرض للسجن والتعذيب والنفي ، وفي أثناء وجوده في منفى مرسيليا سنة ١٨٣١م ، بدأ في تكوين جمعية سرية باسم ايطاليا الفتاة كما مر وجعل شعارها الله والشعب . وكان مازيني يري أن الحروب ضرورية ، على أن تبدأ بحرب العصابات إلى أن يقوى ساعد الايطاليين على الحرب النظامية .

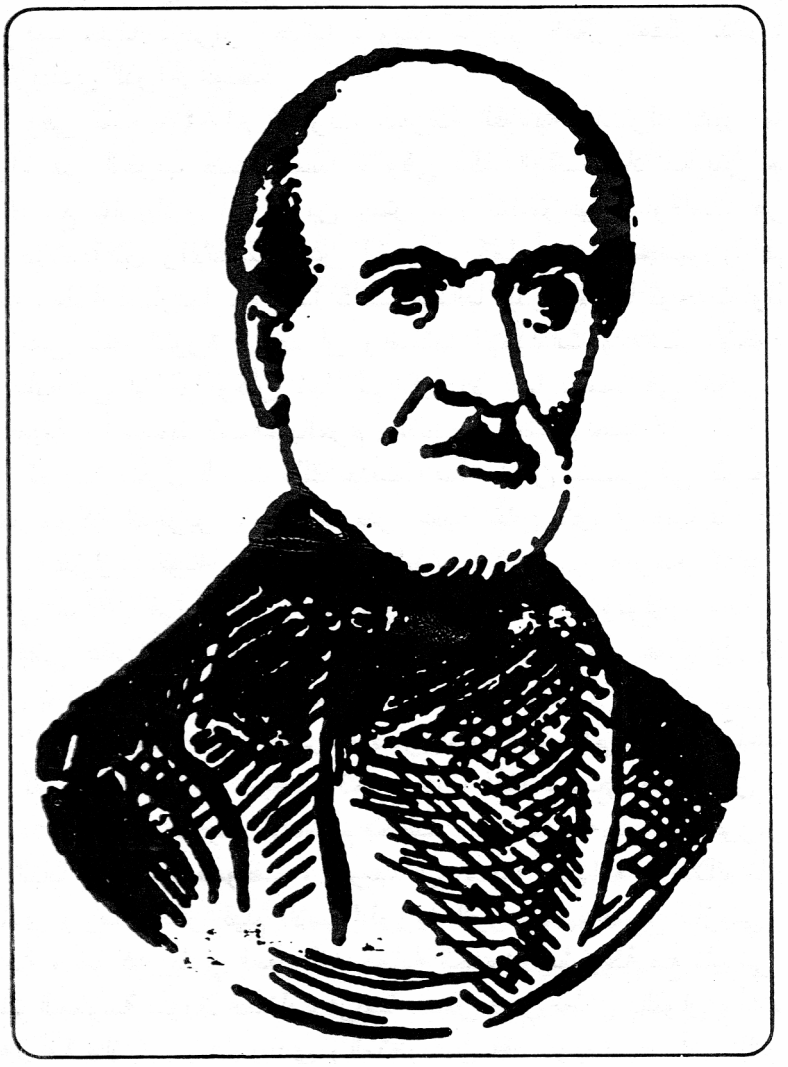

صورة مازيني

وكان رفيق مازيني في الكفاح ، مناضل آخر هو غاريبلدي ، وكان فدائياً وهب حياته لتحرير ايطاليا ، ويعد مازيني العقل المفكر للحركة ، بينما كان غاريبلدي الذراع المنفذة .

وفي سنة ١٨٤٨م تبلورت الحركة القومية واشترك كثير من الملوك والأمراء في الحرب ضد النمسا ، وفي ذاك الوقت عاد مازيني من المنفى واشترك مع غاريبلدي في تكوين جيش من المتطوعين ، وقامت حركة عنيفة تطالب بالاستقلال والإنفصال عن النمسا . كما أعلنت الجمهورية في البندقية عاصمة مملكة لمبارديا . وهكذا كانت ايطاليا تبدو وكأنها توحدت ولكن النمسا قضت على تلك الثورة ، بعد أن وصلتها الإمدادات وعادت الأحوال إلى ما كانت عليه في ايطاليا وكأن شيئاً لم يكن إلا أنها تركت في نفوس الايطاليين آثاراً عميقة ، أصبحت تمدهم بالعزم والتصميم لنضال جديد .

لم يجد شارل البرت ملك بيدمنت بداً من أن يمضي في طريق الحرب ، ويتزعم حركة التحرير ، وقد عرض عليه غاريبلدي أن يساعده بالمتطوعين فاعتذر اعتزازاً بقوته ولكن سوء الطالع لازمه ، فهزمه القائد النمساوي رادتزكي مرتين في موقعتي كاستوزا سنة ١٨٤٨م ونوفارا سنة ١٨٤٩م . فأجبر على عقد الهدنة ثم تنازل عن العرش لابنه فكتور عمانوئيل الثاني وكان عليه أن يواجه مشكلة تحرير ايطاليا من قبضة النمسا .

عندما اعتذر شارل البرت لغاريبلدي عن عدم قبوله مساعدته ، وجه جهوده للولايات البابوية ، بقصد تحريرها ، فأخذ يجمع المتطوعين وقادهم إلى روما بعد أن الهب مازيني حماسهم بخطبه . فبدأ كفاحه باغتيال الوزير روزي ، فشعر البابا بخطورة الموقف ، فهرب إلى مدينة جاتيا من أملاك نابولي فدخل غاريبلدي روما وأعلن قيام الامبراطورية الرومانية وأصبح مازيني على رأس الحكومة ، أما غاريبلدي فعهد إليه حماية الحدود المشتركة مع نابولي ، ولكن لم تدم تلك الحكومة طويلاً فتدخلت فرنسا بجيش قوي بطش بالثوار وأعاد البابا إلى سلطته. أما مازيني وغاريبلدي والمتطوعين فقد هربوا بعد أن هلك منهم عدد كبير ولكنهم لم يضعوا سلاحهم .

دور ملك بيدمنت في تحقيق الوحدة :

في الوقت الذي فشلت فيه محاولات العنف السابقة في تحقيق الوحدة الايطالية ، نجحت مملكة بيدمنت فيها بقيادة ملكها فكتور عمانوئيل ، ووزيره السياسي القدير كافور ، الذي اتخذ عدة إصلاحات في مملكة بيد منت منها :

(١) ترقية الزراعة والصناعة .
(٢) التوفيق بين الأحزاب من أجل الوحدة الوطنية .
(٣) عقد معاهدات تجارية مع الدول المجاورة .
(٤) إصلاح نظام الضرائب .
(٥) تعبيد الطرق .
(٦) تقوية الجيش .

توحيد شمال ايطاليا ووسطها :

اهتم كافور بصداقة الدول خاصة فرنسا ، فعقد اتفاقاً سرياً مع امبراطورها نابليون الثالث سنة ١٨٥٨م ، وبموجب ذلك الاتفاق تحرش كافور بالنمسا ، فأعلن الحرب عليها فهبت فرنسا لمساعدته . ولكن فجأة توقفت فرنسا عن مواصلة الحرب وعقد نابليون الثالث الهدنة مع فرانسو جوزيف امبراطور النمسا ، دون استشارة حليفه كافور ، وسبب ذلك أن امبراطور فرنسا لم يكن واثقاً من الصمود حتى النصر النهائي ، كما خشي أن تصبح بيدمنت جارة قوية له . وترتب على هذه الحرب اتفاقية فيلافرانكا وقد نصت بنودها على ما يلي :

(١) أعطيت بيدمنت لمبارديا من النمسا .
(٢) أعلن أمراء الولايات الوسطى (موديا ، تسكانيا ، بارما ، رومانا) انضمامهم إلى بيدمنت .
(٣) أخذت فرنسا سافوي ونيس .

وهكذا اتحدت شمال ايطاليا ووسطها ، عدا البندقية التي ظلت تحت سيادة النمسا ، وأيضاً أملاك البابوية ، وتعد هذه هي المرحلة الأولى للوحدة الايطالية .

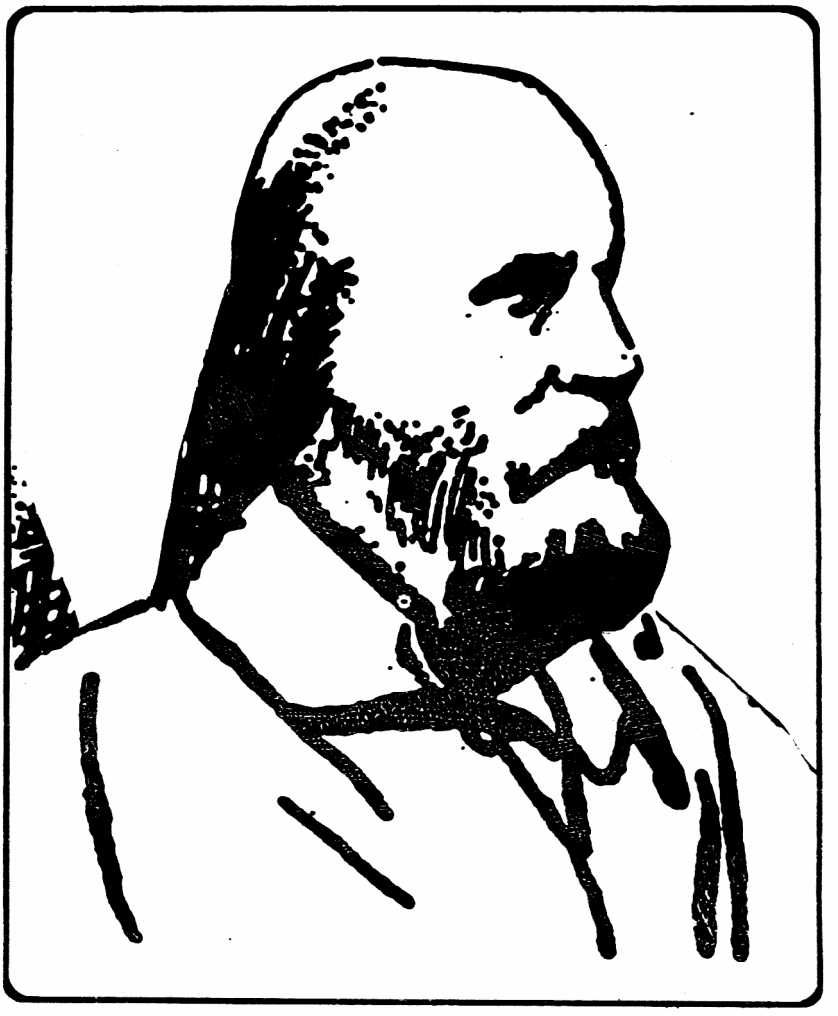

صورة غاريبالدي

غاريبالدي وضم جنوب ايطاليا :

تمكن الزعيم الوطني الايطالي غاريبالدي ، من جمع الوطنيين وسماهم " جماعة القمصان الحمراء " ، فمده كافور بالسلاح ، فانقض على جزيرة صقلية فأشعل الثورة فيها ، ووجد تأييداً من الشعب ، ثم دخل نابولي بعد ذلك . فقرر شعب نابولي الانضمام إلى بيدمنت ، وفي هذا الأثناء مات كافور قبل اكتمال الوحدة الايطالية . ثم قاد فكتور عمانوئيل الجيش الايطالي ، وتمكن من احتلال أملاك البابوية ، عدا روما ، وهكذا تم توحيد معظم ولايات ايطاليا ، باستثناء البندقية وروما .

ضم البندقية وروما :

دخلت النمسا في حرب ضد بروسيا سنة ١٨٦٦م ، فتحالفت ايطاليا مع بروسيا ، ولما تم النصر لبروسيا ، وضعت اتفاقية براغ وبموجبها ضمت بيدمنت البندقية لأملاكها . أما روما فقد ظلت تحت حماية جيش فرنسي ، وقد حاول غاريبلدي الاستيلاء عليها ولكنه فشل في ذلك . وفي عام ١٨٧٠م ، دارت الحرب بين فرنسا وبروسيا ، فاضطرت فرنسا لسحب جيشها من روما ، وهنا وجد فكتور عمانوئيل الفرصة سانحة فدخل روما سنة ١٨٧٠م .

حاول فكتور عمانوئيل الاتفاق مع البابا ، ولكن الأخير رفض التنازل عن سلطته ، ولم يشأ الملك أن يضم الأملاك البابوية قسراً ، فتوصل معه إلى اتفاق يسمح للبابا الاحتفاظ بالسلطة الروحية على جميع الكاثوليك ، وأن تكون الفاتيكان تحت إدارته وهي دولة صغيرة . وبذلك تم للإيطاليين توحيد بلادهم في عام ١٨٧٠م بعد كفاح طويل ومرير . والخريطة رقم (٣-٢) توضح حدود الممالك والأمارات المختلفة وتواريخ ضمها إلى إيطاليا الموحدة .

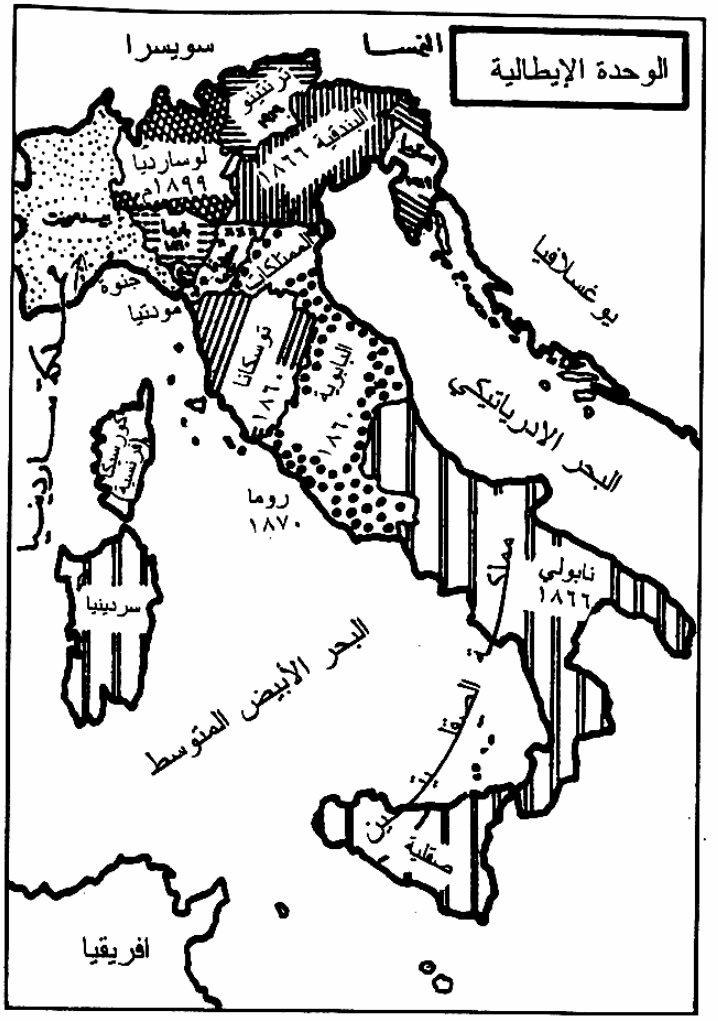

خريطة رقم (٣-٢) : حدود الممالك والأمارات المختلفة وتواريخ ضمها إلى ايطاليا

(٣-٧) الوحدة الالمانية :

حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن هناك دولة باسم المانيا ، وإنما كانت هناك أمارات صغيرة متعددة تتبع بصورة اسمية لامبراطورية النمسا ، كما كان بعضها الآخر تحت نفوذ بروسيا أو انجلترا . وكان عدد الولايات الالمانية يزيد عن الثلاثمائة ، لكل ولاية منها حكومتها الخاصة ، وقوانينها ، وجيشها . وبعضها يشكل دولاً قوية ، مثل بروسيا ، وبعضها الآخر لم يكن سوى مدينة واحدة. والخريطة رقم (٣-٣) توضح حدود بعض الأمارات والدول الأوربية قبل توحيد المانيا .

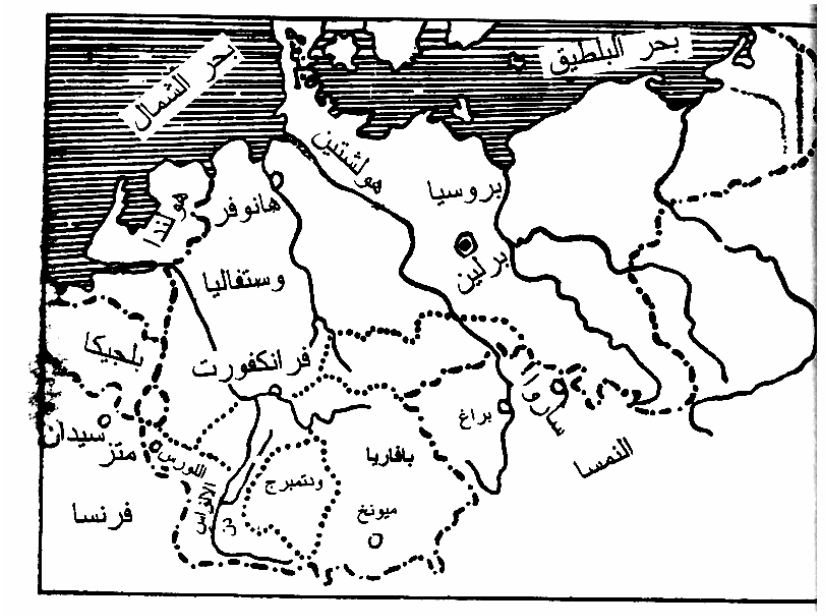

خريطة رقم (٣-٣) : حدود بعض الأمارات والدول الأوربية قبل توحيد المانيا

نابليون والمانيا :

استمرت الشعوب الألمانية على حالتها من التفكك، حتى غزاها نابليون ، بعد أنْ أجهز على امبراطورية النمسا صاحبة السيادة الاسمية على معظم الولايات الالمانية .

شرع نابليون في تنظيم تلك الولايات ، وبالتالي ظهرت منها وحدات كبيرة ، وتقلص عدد الولايات إلى ثمانية وثلاثين ولاية ، ثم كون اتحاد الراين القوى ، ليكون سنداً له ضد كل من النمسا وبروسيا ، وبذلك أصبحت في المانيا ثلاث وحدات سياسية ، هي بروسيا ، واتحاد الراين ، والولايات الالمانية الأخرى .

وإن اعتبر نابليون البادئ لخطوات توحيد المانيا ، غير أنه ولتعسفه واستبداده أثار الروح القومية لدى الشعوب الالمانية إذ فرض على اتحاد الراين اتباع سياسته الخارجية وتقديم الجيوش للمحاربة في صفه فبدأت بروسيا تعمل مع حلفائها للتخلص من سيطرة نابليون .

مؤتمر فينا سنة ١٨١٥م :

انعقد مؤتمر فينا عام ١٨١٥م بعد هزيمة نابليون ، وكان من أهدافه إعادة السلام لأوربا ، والوصول إلى تسوية دائمة للمشكلات الأوربية. وكانت آراء مترنخ – رئيس وزراء النمسا – تسيطر على أعمال المؤتمر ، وكان يرغب أن تبقى الشعوب الألمانية مجزأة . ولكن إرضاءً لشعور الالمان في الوحدة ، الغي اتحاد الراين وكون " الاتحاد الجرماني " من حكومات الولايات والامارات الالمانية . وترأست النمسا الاتحاد ، وكان له مجلس يتكون من مندوبي الأمراء والحكام ، كما كانت النمسا تسير قراراته حسبما تريد. وقد ضيق مترنخ على الحريات ، كحرية الصحافة والخطابة ، ومنع الاجتماعات والتكتلات ، وحبذ إقامة الحواجز الاقتصادية والجمركية بين الولايات الالمانية ، وسجن الأحرار . كل ذلك ليحول دون اتحاد الماني حقيقي .

وهكذا جاء مؤتمر فينا مخيباً لآمال الألمان . ونجـــح مترنخ ، ولكن إلى حين .

تقدمت بروسيا لتحمل لواء التحرر والوحدة للشعب الالماني ، وكانت أحوالها الداخلية تمكنها من ذلك ، فقد نهضت نهضة قوية نتيجة الأخذ بأسباب التقدم العلمي . فضلاً عن تنمية مواردها وتقوية جيوشها . وبدأت بمحاولة إيجاد نوع معين من الوحدة الاقتصادية ، تمهيداً للوحدة القومية .

الاتحاد الجمركي (الزولفرين) :

اتجهت بروسيا إلى انشاء اتحاد جمركي في عام ١٨١٩م ، عُرف بالزولفرين ، يسمح بحرية مرور التجارة دون رسوم جمركية داخلية بين الولايات المكونة للاتحاد . وبحلول عام ١٨٥٢م انضمت للاتحاد كل الولايات الالمانية . وبعد أن ذاقت نعمة الوحدة الاقتصادية فكرت في الاتحاد السياسي الكامل .

مؤتمر فرانكفورت سنة ١٨٤٨م :

قامت ثورة بروسيا سنة ١٨٤٨م ، وكان هدفها تخليص المانيا من الاستعمار والتفكك ، وإعلان وحدتها واستقلالها . وانتصرت إرادة الشعب ، حيث اجتمع ممثلوه في ولاية فرانكفورت لوضع الدستور الالماني . وبعد الفراغ منه انتخب الملك فردريك وليم الرابع ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا سنة ١٨٤٩م . ولكنه رفض تاج الامبراطورية ، بحجة أنه لا يقبله إلا من أقرانه الأمراء ، علاوة على تخوفه من النمسا وبعض الأمراء الألمان المعارضين للوحدة. وبذلك خيب الملك البروسي آمال الشعب الألماني وأضاع عليهم فرصة غالية .

دور بسمارك في الوحدة :

تولى عرش بروسيا عام ١٨٦١م الملك وليم الأول خلفاً لأخيه فردريك وليم الرابع . وبدأ رسم سياسة إتمام الوحدة الألمانية . ويعود الفضل الأكبر في توحيد المانيا إلى بسمارك. فمن هو بسمارك ؟ ولد بسمارك في مقاطعة براندنبرج سنة ١٨١٥م ، وأصبح عضواً في برلمان برلين سنة ١٨٤٨م ، ثم مندوب المملكة في مجلس الدايت (مكون من مناديب لحكام الولايات الألمانية برئاسة النمسا) . كما عمل سفيراً لدى روسيا سنة ١٨٥٩م، ثم باريس في عام

١٨٦٢م . وهناك وقف على مبادئ وأساليب السياسة الدولية ، فاكتسب خبرة دبلوماسية واسعة . وفي نفس العام الذي عين فيه سفيراً لدى الحكومة الفرنسية دعي إلى برلين ليصبح رئيساً للوزراء .

أظهر بسمارك تعصباً للملكية ولبروسيا ، وكان لا يقيم وزناً للبرلمانات، ويؤمن بأن نهضة الأمم ورقيها إنما تتحقق بهمة ملوكها ، لا بقرارات برلماناتها ونظمها الدستورية . وتتضح أفكاره هذه من خطبته التي القاها في البرلمان البروسي . عندما عارض بعض الأعضاء اقتراحه بزيادة اعتمادات الجيش ، فقال رداً عليهم : " إن مشاكل الساعة لا تحل بالخطب الرنانة ، والتصويت في البرلمان ولكنها تحسم بسياسة الدم والحديد . "

فأماط هذا القول اللثام عن الخطة التي ينوي اتباعها ، ونوجزها فيما يلي :

(١) وجوب اتحاد المانيا تحت زعامة التاج البروسي .
(٢) ابعاد النمسا عن التدخل في الشؤون الألمانية .
(٣) منع أي تدخل أجنبي في شؤون المانيا .
(٤) تقوية الجيش وتعطيل البرلمان .

وتنفيذاً لهذه الخطة خاض بسمارك ثلاث حروب هي :

أولاً : الحرب ضد الدنمارك سنة ١٨٦٤م :

سبب هذه الحرب مشكلة شلزويج وهولشتين – وهما دوقيتان المانيتان – خضعتا لملك الدنمارك . فعرض بسمارك على النمسا أن تشترك معه في حرب الدنمارك مقابل منحها هولشتين فوافقت النمسا ، وانهزم ملك الدنمارك ، فآلت شلزويج لبروسيا ، وأعطيت هولشتين للنمسا .

ثانياً : الحرب ضد النمسا سنة ١٨٦٦م :

أراد بسمارك أن يبعد نفوذ النمسا نهائياً عن الولايات الالمانية ، فرسم خطة لعزلها ثم محاربتها . فاتفق بسمارك سراً مع نابليون الثالث ، امبراطور فرنسا ، أن يلتزم الحياد إذا ما وقعت الحرب بين بروسيا والنمسا ، في مقابل حصوله على لكسمبرج ، أو بعض ولايات الراين . كما اتفق بسمارك أيضاً مع ملك بيدمنت ، الذي كان يعمل من أجل اتمام الوحدة الايطالية ، على الوقوف مع بروسيا ضد النمسا مقابل حصوله على البندقية .

وبعد أن اطمأن بسمارك على موقف تلك الدول بدأ يتهم النمسا بنقض اتفاقية شلزويج وهولشتين ، فقامت الحرب بينهما ، وانتهت بانتصار بروسيا في معركة سادوا ، ووقعت اتفاقية براغ بين الطرفين ، جاء فيها ما يأتي :

- أن تتنازل النمسا عن البندقية لمملكة بيدمنت
- أن يحل الاتحاد الجرماني (الدايت) .
- أن يكوَّن اتحاد الولايات الالمانية الشمالية بزعامة بروسيا .
- أن تنسحب النمسا من هولشتين .

وهكذا تم توحيد النصف الشمالي من المانيا .

ثالثاً : الحرب ضد فرنسا سنة ١٨٧٠م :

بعد انتصار بروسيا الحاسم على النمسا ، بدأت العلاقات تسوء بين فرنسا وبروسيا. أما فرنسا فقد بدأت تخشى خطر بروسيا ، التي تزعمت حركة الاتحاد الالماني ، وأصبحت قوة لا يستهان بها – وبروسيا من جانبها أرادت ضرب فرنسا ، العقبة الوحيدة المتبقية في سبيل إكمال بناء الاتحاد الالماني – لا سيما وأن فرنسا كانت تحتل الإلزاس واللورين ، وهما منطقتان اعتبرتهما بروسيا من صميم الوطن الالماني .

ورسم بسمارك خطته السياسية لكسر شوكة فرنســـا – كما فعل مع النمسا ، وتلخصت فيما يلي :

١. الدخول مع فرنسا في الحرب بسرعة ، قبل أن تفيق النمسا من هزيمتها ، وتسرع لنجدة فرنسا .
٢. استفزاز فرنسا حتى تعلن الحرب ، وعند ذلك لا تبدو بروسيا أمام الدول الاوربية بمظهر الدولة المعتدية .
٣. إثارة الوعي القومي في المانيا وكسب الرأي العام في الدويلات الجنوبية ، حتى تنضم إلى جانب بروسيا في أثناء الحرب .

وحتى يصل بسمارك إلى ما خطط له بدأ يماطل في تنفيذ وعده لفرنسا بمنحها إقليم لكسمبرج ، أو بعض ولايات الراين ، ولما ألحّ الامبراطور نابليون الثالث على الطلب ، كشف بسمارك عن نيات الامبراطور ، ونتج عن ذلك سخط كثير من دول أوربا على سياسة فرنسا إزاء المانيا ، كما أسرعت

الولايات الالمانية الجنوبية بعقد اتفاقات عسكرية للإنضمام إلى بروسيا في حربها ضد فرنسا .

وزاد من توتر العلاقات بين فرنسا وبروسيا ، أزمة العرش الأسباني. فقد رشح أحد الأمراء الالمان لتولي عرش أسبانيا ، فعارضت فرنسا ذلك حتى لا تصبح محصورة بين دولة المانية في شمالها الشرقي ، وملك الماني في جنوبها الغربي .

وعندما سحب ملك بروسيا – وليم الأول – ترشيحه طالبه السفير الفرنسي بأن يعد بعدم الموافقة على مثل هذا الترشيح في المستقبل . وعندما أرسل وليم الأول برقية من مدينة " امز " حيث كان يستشفي – إلى وزيره بسمارك يخبره فيها بما حدث ، عالج بسمارك الموقف بدهاء ومكر ، فحذف بعض ألفاظ البرقية ، ثم نشرها في الصحف بصيغة توحي بأن الملك وليم أهان سفير فرنسا ، فأدى ذلك إلى هياج الخواطر الفرنسية واندلاع الحرب .

أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا ، ووقفت بقية الدول على الحياد . تلاقى الجيشان البروسي والفرنسي ، وبعد عدة معارك انتصرت بروسيا وتمكنت في موقعة سيدان (سبتمبر ١٨٧٠) من إنزال الهزيمة الساحقة بالجيش الفرنسي ، ودخل الجيش الالماني باريس في عام ١٨٧١م .

وأجبر بسمارك فرنسا على عقد صلح مهين نص علىما يأتي :

- أن تستولي بروسيا على منطقة الالزاس واللورين وبعض الحصون على الحدود .
- أن تدفع فرنسا غرامة حربية كبيرة ، على أن تحتل بروسيا فرنسا حتى يتم دفع نصف الغرامة .

اكتمال الوحدة الالمانية :

نتيجة لانتصارات بسمارك ، انضمت الولايات الجنوبية إلى اتحاد الولايات الالمانية الشمالية ، واستبدل اسم اتحاد المانيا الشمالية باسم " الامبراطورية الالمانية " وفي يناير ١٨٧١م توج ملك بروسيا – وليم الأول – بقصر فرساي في فرنسا امبراطوراً . وهكذا تمت الوحدة الالمانية التي حققها بسمارك بقوة الحديد والنار والدهاء . والخريطة رقم (٣-٤) توضح نمو الامبراطورية الالمانية .

بسمارك

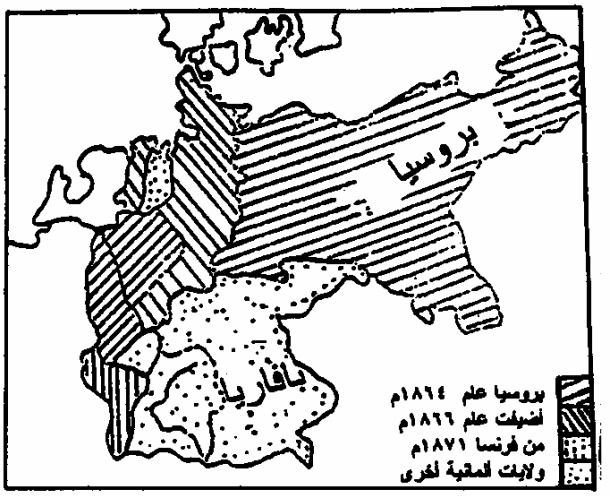

خريطة رقم (٣-٤) : نمو الامبراطورية الالمانية

أسئلة وتدريبات الباب الثالث

أ) أجب عن الأسئلة التالية :

١) متى نشطت حركة الملاحة البحرية في أوربا ؟

٢) هناك دولتان أوربيتان ارتبطتا بالكشوف الجغرافية أكثر من غيرهما – ما هما ؟

٣) ماذا تعرف عن الأمير هنري الملاح ؟

٤) ما أهم نتائج رحلة بارثليمو دياز إلى رأس الرجاء الصالح ؟

٥) ما اسم الخبير العربي المسلم الذي استعان به فاسكو دي جاما في الوصول إلى ساحل الهند الغربي ؟
٦) كيف أدت الأزمة المالية إلى قيام الثورة في فرنسا ؟
٧) متى انعقد مجلس طبقات الأمة ؟
٨) لماذا طالب نواب الطبقة الثالثة باجتماع الطبقات الثلاث في قاعة واحدة ؟
٩) كيف تحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية ؟
١٠) لماذا اعتبر الفرنسيون يوم ١٤ يوليو من كل عام عيداً للحرية ؟
١١) ما القرارات التي أصدرتها الجمعية الوطنية في ٤ أغسطس ١٧٩٨م ؟ ولماذا اعتبرت هذه القرارات ٤ انقلاباً اجتماعياً ؟
١٢) لماذا أعلنت الدول الأوربية الحرب على الثورة الفرنسية ؟
١٣) ما الخطوات التي اتخذتها الجمعية التشريعية للتصدي للخطر الخارجي ؟
١٤) متى أعدم الملك لويس السادس عشر ؟ وما نتائج إعدامه ؟
١٥) متى ظهرت الثورة الصناعية ؟ وما الميادين التي شملتها ؟
١٦) ما أثر الاختراعات في زيادة الانتاج وازدهار التجارة في أوربا ؟
١٧) ما أثر الثورة الصناعية على تطور الزراعة وزيادة الإنتاج ؟
١٨) متى اكتملت الوحدة الايطالية ؟
١٩) لماذا نشأت الجمعيات ؟ وما دورها في توحيد إيطاليا ؟
٢٠) ما أثر كل من نابليون – الزولفرين في توحيد المانيا ؟
٢١) لماذا فشلت محاولات الوحدة الالمانية عام ١٨٤٨م ؟
٢٢) ما الحروب التي خاضها بسمارك لتحرير المانيا ؟ وما أسباب نصره في تلك الحروب ؟
٢٣) كيف تمّ توحيد النصف الشمالي من المانيا ؟
٢٤) كيف استطاع بسمارك استدراج فرنسا للحرب ؟

ب) أكتب مقالاً موجزاً عن الموضوعات التالية :
١) أسباب حركة الكشوف الجغرافية .
٢) دور العرب والمسلمين في مجال الكشف الجغرافي .
٣) الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية .

٤) إسهامات كل من : مونتسيكو وفولتير وجان جاك روسو في قيام الثورة الفرنسية .
٥) حكومة القنصلية – فرنسا في عهد الامبراطورية – معركة وترلو .
٦) أهم النتائج التي حققتها الثورة الصناعية في أوربا .
٨) أثر كل من جمعية الكاربوناري وجمعية ايطاليا الفتاة ، في توحيد ايطاليا .
٧) الأسباب التي أدت إلى ضعف دولة البرتغال في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ؟
٨) السلطة القضائية حسب دستور العام الثالث .

ج) ما المقصود بالمصطلحات التالية :

العصور الوسطى ، نظام الإقطاع ، الملكية المطلقة ، الملكية الدستورية ، الفصل بين السلطات ، مجتمع طبقي، امتيازات طبقية ، كراسات الثورة ، مجلس طبقات الأمة ، الجمعية الوطنية ، الجمعية التشريعية ، الإرهاب ، دستور العام الثالث ، حكومة الإدارة ، السلطة التشريعية ، الاتحاد الجرماني ، الزولفرين ، برلمان فرانكفورت .

د) اكتب عن الآتي :

١) الحقوق والواجبات الإقطاعية .
٢) الصراع بين البابوية والأباطرة حول الزعامة الدينية .
٣) مصطلح النهضة واذكر أسباب قيامها .
٤) مظاهر النهضة في الآداب والفنون .
٥) أثر الثورة الصناعية على الحياة الاجتماعية .
٦) دور كل من فكتور عمانوئيل وكافور في تحقيق الوحدة الايطالية .
٧) بعض الزعماء الايطاليين الذين أيقظوا الوعي القومي .

هـ) أرسم خريطة لايطاليا ، ثم وضح عليها مراحل الوحدة الايطالية .

و) مواضيع للنقاش :

١) أثر الكشوف الجغرافية على الدول الاوربية والشعوب الأخرى ؟
٢) ظهور الثورة الصناعية مبكراً في انجلترا قبل غيرها من الدول الأوربية ؟

٣) المظاهر الاقتصادية التي حققتها الثورة الصناعية .
٤) حروب نابليون بونابرت وأثرها على فرنسا داخلياً وخارجياً .
٥) خطة بسمارك لتوحيد المانيا .
٦) من خلال دروسْ الوحدة الايطالية والاتحاد الألماني : لماذا حارب شعب كل من الدولتين من أجل الوحدة ؟

الباب الرابع

الصراع الأوربي حول التوسع الجغرافي والتجاري

(٤-١) الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) :

نشبت الحرب العالمية الأولى ، واتسع نطاقها ، وعمت ويلاتها ومصائبها حتى شملت معظم بلاد العالم . وتميزت هذه الحرب بكثرة ما أنفق عليها من أموال ، وما حدث فيها من مجازر بشرية ، وتدمير منشآت اقتصادية. وقد سخر الإنسان في هذه الحرب جميع مواهبه لاختراع آلات الحرب الفتاكة والمدمرة .

وقد أدى إلى قيام هذه الحرب عوامل كثيرة بدأت تتجمع في أوربا منذ عام ١٨٧١م – أي بعد انتصار المانيا على فرنسا – ففي الفترة التي امتدت من عام ١٨٧١م حتى عام ١٩١٤م ، توترت العلاقات بين الدول وانقسمت دول أوربا إلى كتلتين كبيرتين : دول " الوفاق الثلاثي " ، وتضم انجلترا وفرنسا وروسيا ؛ ودول " التحالف الثلاثي " وتضم المانيا والنمسا وإيطاليا ؛ وأخذت كل كتلة تسابق الأخرى في التسلح استعداداً للحرب . والخريطة رقم (٤-١) توضح دول الوفاق الودي الثلاثي ودول التحالف الثلاثي .

وقد سبقت الحرب أزمات سياسية كان لها ضلع كبير في الإسراع نحو هاوية تلك الحرب الضروس . وكانت الأزمة الأخيرة هي السبب المباشر الذي أضرم نار الحرب . وقد حدثت تلك الأزمات في منطقتي المغرب والبلقان .

(٤-١-١) وفيما يلي الأسباب التي أدت إلى قيام الحرب :

(١) التنافس الاستعماري بين الدول :

كان التنافس الاستعماري الاقتصادي ، من أهم أسباب الخلاف بين الدول الأوربية. ونتيجة للثورة الصناعية ، تمَّ تكوين الشركات الكبيرة والمصارف المالية ، وازدادت الثروات ، وظهرت طبقة من الرأسماليين، وأصبح لهم نفوذ كبير في السياسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان هؤلاء الرأسماليون يدفعون دولهم إلى التنافس والتسابق في ميدان التوسع الاستعماري ، وفتح أسواق جديدة لبيع الإنتاج الضخم لمصانعهم ، وتوفير المواد الخام اللازمة للصناعة ، واستثمار أموالهم في تلك المستعمرت . وهذا الجشع خلق جو التنافس الاستعماري والتسابق في التسلح والتكتل .

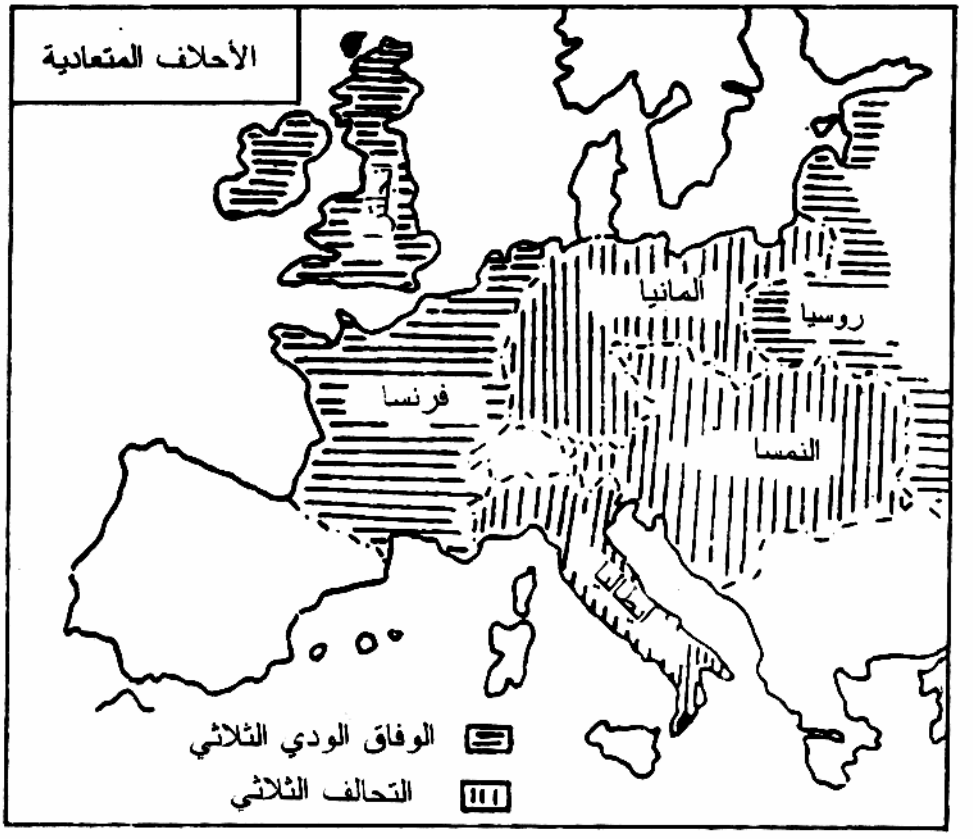

خريطة رقم (٤-١) : دول الوفاق الودي الثلاثي والتحالف الثلاثي

وبمطلع القرن العشرين ، كانت أوربا قد انقسمت إلى معسكرين متعاديين متنافسين ، وهما معسكر التحالف الثلاثي ، ويتكون من المانيا ، والنمسا ، وايطاليا ، ومعسكر الوفاق الثلاثي ، ويتألف من بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا .

(٢) ازدياد خطر التنافس القومي بين شعوب البلقان :

كانت شعوب شبه جزيرة البلقان تتألف من قوميات مختلفة والخريطة رقم (٤-٢) توضح منطقة البلقان عشية الحرب العالمية الأولى . وكانت النمسا تسعى للسيطرة على الصرب ، الأمر الذي عرَّضها للصدام بالشعوب السلافية التي كانت تتطلع لتوحيد الصقالبة وجمع شملهم في دولة سلافية ، ولذلك فقد امتلأت نفوس النمساويين بالحنق والبغض على الصقالبة ، فاشتعلت نار العداوة بينهم وبين الصرب .

(٣) نزوع الألمان إلى السيادة :

اتصف وليم الثاني – امبراطور المانيا – بالحماس الزائد والجنوح إلى السيادة والسلطان. وكان يحلم بتكوين امبراطورية واسعة . وقد روَّج الفلاسفة الالمان لسمو الأمة الالمانية على كافة الأمم الأخرى ، وأن الشعب الالماني خلق ليسود العالم قاطبة ، وأن الأمة الالمانية تستطيع أن ترقى مدارج العظمة التي حبتها إياها الطبيعة عن طريق الحرب فقط . وقد دعا الساسة الالمان للتوسع في استعمار الأراضي . ولكي يتسنى الحصول على المستعمرات لا بدّ لالمانيا من بناء أسطول حربي كبير ، الأمر الذي أثار حفيظة بريطانيا .

(٤) التنافس بين روسيا ودولتي الوسط (المانيا والنمسا) :

عقب الحرب اليابانية الروسية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) التي أضعفت روسيا وأفقدتها الأمل في تحقيق أهدافها في الشرق الأقصى ، اتجهت روسيا نحو الشرق الأدنى علها تسيطر على بعض البلاد والمضايق والممرات . وهذا الطموح أدى لاصطدامها بدولتي الوسط اللتين كانتا تطمعان في التوسع على حساب الامبراطورية العثمانية . وقد منح الالمان في تركيا امتياز مد خط سكة حديد برلين – بغداد . وعندما نصَّب القيصر نفسه صديقاً وحامياً للسلطان ، أثار ذلك دولتي الوسط ، فاتحدتا على معارضة مطامع روسيا في الشرق الأدنى .

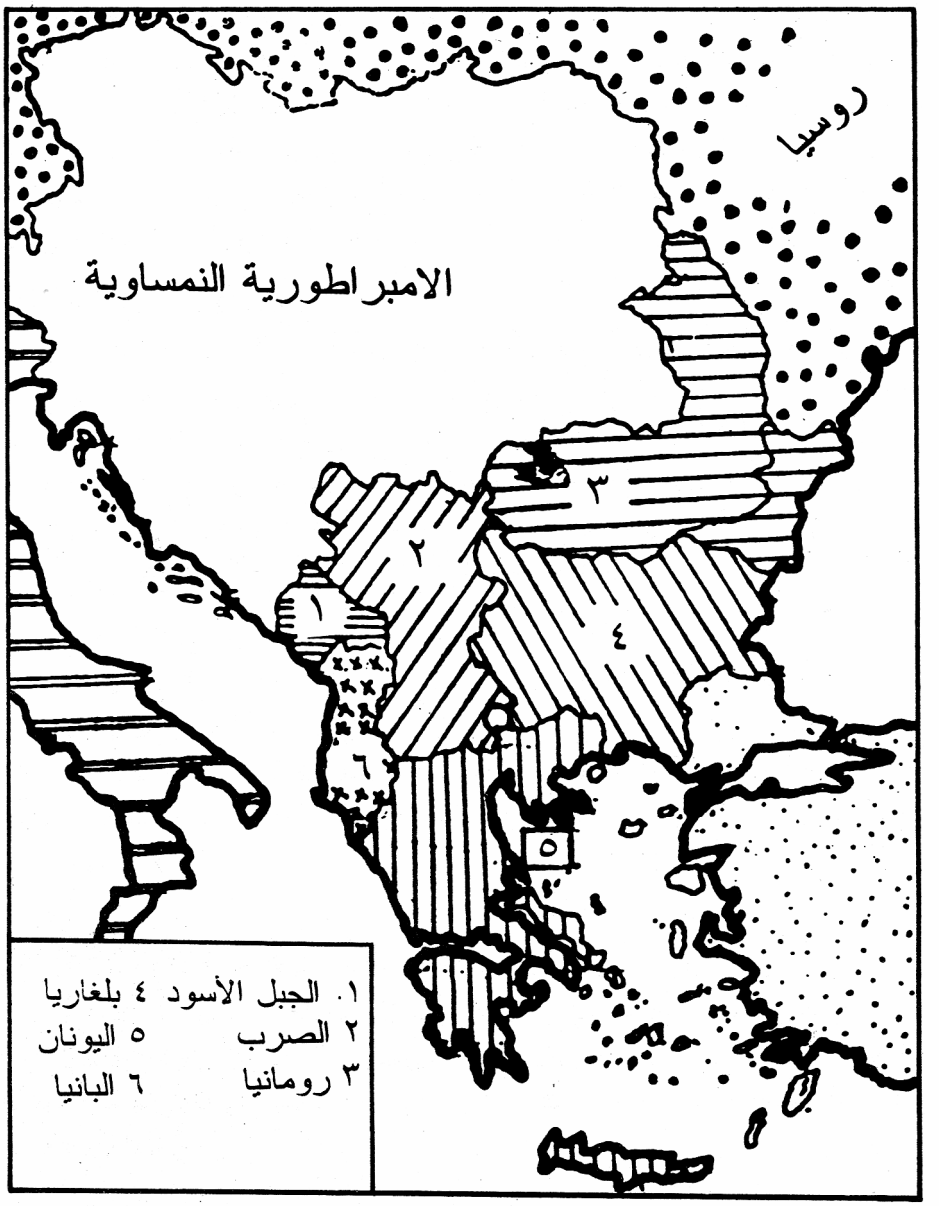

خريطة رقم (٤-٢) : البلقان عشية الحرب العالمية الأولى

(٥) خوف المانيا من انتقام فرنسا :

كانت المرارة التي يشعر بها الفرنسيون نحو الألمان ، لهزيمتهم لهم عام ١٨٧٠م ، ودخولهم باريس ، واغتصابهم لمقاطعتي الالزاس واللورين سنة ١٨٧١م، تؤرق أجفان الالمان ، لأنهم يخشون أن تأخذهم فرنسا على حين غرة، وتنتقم منهم . وعلى الرغم من أن فرنسا فقدت الأمل في استرداد المقاطعتين ، إلا أن الألمان لم يامنوا جانب فرنسا .

(٦) التسابق في التسلح :

بعد منتصف القرن التاسع عشر ، ظهرت الجيوش الجرارة على مستوى لم يشهده العالم من قبل ، وكثر إنتاج الأسلحة الفتاكة ، ووسائل التدمير والتخريب. وبعد الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ – ١٨٧١م) ، شرعت كل من فرنسا والمانيا في تجنيد المؤهلين للجندية ، وإعداد جيش نظامي قوي مستعد في أي لحظة لخوض المعارك ، ولذا بدأ التسابق في التسلح ، إلى أن وصل قمته بين بريطانيا والمانيا في صناعة الأساطيل الحربية .

(٧) الدعاية للحرب :

أصبح الرأي العام في أوربا مهيئاً للحرب، إذ باتت الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى ، تدعو حكوماتها لاتخاذ مواقف صارمة وسياسة حازمة تجاه الأعداء والمنافسين . ولقد فشلت مجهودات رجال السِّلم في كبح جماح دعاة الحرب. ونتيجة لذلك قوبل إعلان الحرب بالرضا التام في كثير من الأوساط في البلاد الأوربية .

(٤-١-٢) الأزمات التي سبقت الحرب :

سبقت الحرب العالمية الأولى أربع أزمات سياسية ، كان لها ضلع كبير في الإسراع نحو هاوية تلك الحرب الضروس . وكانت الأزمة الأخيرة هي السبب المباشر الذي أضرم نار الحرب . وقد حدثت هذه الأزمات في منطقتي المغرب والبلقان .

الأزمة الأولى : الأزمة المراكشية (١٩٠٥م) :

أصبحت المغرب منذ عام ١٨٩٥م قبلة أنظار الدول الاستعمارية خاصة فرنسا ؛ وذلك لقربها من مستعمراتها في شمال أفريقيا ، بالإضافة لموقعها الاستراتيجي وأهميتها الاقتصادية . أما بريطانيا فقد كانت لها مصالح تجارية في المغرب ، كما أنها كانت مسيطرة على جبل طارق . وكان هدفها زعزعة الوفاق الودي الذي تمَّ بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤م . وقد علمت المانيا بالشرط السري في الاتفاق الودي وهو : " إذا انتهى حكم السلطان في مراكش تتعهد بريطانيا بتأييد فرنسا في استعمارها للمغرب " . وقد اعتبرت المانيا أنَّ هذا الشرط يهدد مصالحها فسارعت لإبداء استيائها ، فزار وليم الثاني امبراطور المانيا مدينة طنجة بالمغرب سنة ١٩٠٥م ، وأعلن أن زيارته اعتراف رسمي بأن سلطان مراكش حر مستقل ، وأن سيادة مراكش سوف تصان ، وأن التجارة في المغرب يجب أن تكون حرَّة .

وفي ١١ أبريل ١٩٠٥م اقترحت النمسا عقد مؤتمر للنظر في هذه المشكلة ، فامتعضت فرنسا لهذا التدخل الالماني ، ورفض دلكاسيه ، وزير خارجية فرنسا ، في إصرار عقد المؤتمر . ومن جانب آخر صرح بيلوف مستشار المانيا بقوله : " ليس في الإمكان تحسين العلاقات الالمانية الفرنسية ما دام دلكاسيه باقياً في منصبه . " وأرغم دلكاسيه على تقديم استقالته ، لأن فرنسا لم يكن في مقدورها آنذاك محاربة المانيا . كما أن الولايات المتحدة الامريكية أشارت على فرنسا بقبول المؤتمر .

مؤتمر الجزيرة يناير ١٩٠٦م :

الجزيرة بلدة اسبانية قرب جبل طارق ، عقد بها المؤتمر وحضره ممثلو اثنتي عشرة دولة منها (الولايات المتحدة ، هولندا ، البرتقال ، السويد . . .) وبعد مفاوضات طويلة وصل المؤتمر إلى تسوية في أبريل ١٩٠٦م . وقد فوجئت المانيا بوقوف بريطانيا وروسيا واسبانيا وحتى حليفتها ايطاليا وبقية الدول إلى جانب فرنسا . ولم تقف إلى جانب المانيا إلا النمسا والمغرب (خذلت ايطاليا المانيا لأنها اتفقت مع فرنسا على احتلال ليبيا) . وقد قرر المؤتمر سيادة سلطان مراكش ، وضمان استقلال بلاده . ولكن هذا القرار كان كذر الرماد في العيون ، لأن إشراف فرنسا على حالة الأمن والاشتراك في رعاية

اقتصاد البلاد ، كان بمثابة التمهيد لاستعمار فرنسا لمراكش. وهكذا خسرت المانيا الجولة في مؤتمر الجزيرة .

الأزمة الثانية : أزمة البوسنة ١٩٠٨م :

أوكل مؤتمر برلين ١٨٧٨م إلى النمسا إدارة البوسنة والهرسك – ولكن النمسا ضمتها نهائياً سنة ١٩٠٨م دون استشارة الدول التي أمضت اتفاقية برلين، كما أنها اتفقت سراً مع روسيا مؤيدة لها في مطالبتها بتعديل ميثاق البحر الأسود ليسمح بمرور البوارج الروسية بمضيق البسفور والدردنيل – ولكن لم توافق بريطانيا وفرنسا – لذلك نكصت روسيا عن موافقتها للنمسا لضم البوسنة والهرسك ، بل دعت إلى عقد مؤتمر ينظر في خرق النمسا لمقررات برلين . ولكن فكرة المؤتمر لم تنجح لمعارضة النمسا والمانيا بشدة ولعدم حماس بريطانيا وفرنسا للفكرة .

لقد كان ضم البوسنة والهرسك ، ضربة للصرب التي اتجهت إلى روسيا لمساعدتها لإعادة البوسنة والهرسك . وفي بلغراد عاصمة الصرب ، هاجم الصربيون السفارة النمساوية ، وحطموا نوافذها ، وأحرقوا العلم النمساوي وهم يهتفون " تسقط النمسا " .

إزاء ضم النمسا للبوسنا والهرسك ، لم يسع روسيا إلا أن تحتج ، وتخاذلت تحت تهديد ووعيد امبراطور المانيا الذي أعلن أنه سيقف إلى جانب النمسا إذا تحركت روسيا لمساعدة الصربيين .

كان تصرف النمسا بضم البوسنة والهرسك ، مفاجأة غير سارة للدول الأوربية ، لأن ذلك أشبه بإعلان حرب بين النمسا والصرب . واحتجت صربيا احتجاجاً صارخاً ، ورفعت الأمر للدول الكبرى ، فطلبوا منها التريث . وانتهت الأزمة نصراً لألمانيا ، وهزيمة لروسيا ، مما أدى لازدياد العداوة بين المانيا وروسيا ، بل بين المعسكرين (الوفاق الثلاثي والتحالف الثلاثي) ، ولذا أخذ أعضاء الوفاق الثلاثي ، وعلى الخصوص روسيا ، ينتظرون الوقت المناسب لرد اعتبارهم .

الأزمة الثالثة : أزمة أغادير ١٩١١م :

لم تكن التسوية التي تمت في مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦م مرضية لالمانيا ، ولم تكن مفيدة لمراكش ، وأن قوات الأمن الفرنسية والاسبانية فشلت في ضبط النظام والأمن ، كما ساءت الأحوال المالية – ساد في مراكش اضطراب الأمور وعدم الاستقرار . ومن أسباب ذلك أن سلطان مراكش الذي خلف أخاه لم يجد قبولاً لدى الشعب وإن كانت الدول الكبرى قد اعترفت به . ولكثرة الثورات ضده طلب السلطان الجديد الحماية من فرنسا ، فأرسلت فرنسا جنودها في ١٩١١م لتحتل فاس العاصمة بدعوى أن السلطان لم يعد قادراً على حماية الأجانب . هنا سارعت المانيا وأرسلت سفينة حربية (بنتر) لاحتلال ميناء أغادير في مراكش في ١ يوليو ١٩١١م ، وبينت المانيا غرضها من إرسال تلك السفينة وهو " لتعين وتحمي الرعايا والعملاء الالمان في تلك المناطق " . وصرح الالمان ببطلان قرارات مؤتمر الجزيرة وأنهم – لن يقفوا مكتوفي الأيدي وفرنسا تحتل ما تشاء في مراكش .

اعتبرت بريطانيا خطوة المانيا حيلة لكسب ميناء على المحيط الأطلسي، وهذا يشكل خطورة على تجارتها التي تمر من طريق مضيق جبل طارق . فغضبت وأنذرت المانيا بأنها لا تسمح لها باحتلال أغادير كما أعلنت تأييدها لفرنسا . وأصبح الاسطول البريطاني على أهبة الاستعداد – وتحت هذا التهديد تراجعت المانيا وأخيراً انسحبت من ميناء أغادير واعترفت بحماية فرنسا على مراكش ، وأعلنت فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢م . وقد عوضت المانيا مساحة من الكنغو الفرنسي أضيفت إلى مستعمراتها في الكمرون . وانتهت هذه الأزمة بهزيمة دبلوماسية لالمانيا .

ورغم أن شبح الحرب قد اختفى ، إلا أن الصحف والسياسيين في الأقطار الثلاثة أثاروا عواطف مواطنيهم – وباتت مجريات الأحوال تدل دلالة واضحة على أن أي أزمة أخرى لن تحل إلا بعد عراك شنيع . وهكذا بدا كل معسكر يسرف في التسلح ويعقد اللقاءات السرية لرسم الخطط والتكتيكات العسكرية استعداداً للحرب .

الأزمة الأخيرة : أزمة سراجيفو ١٩١٤م :

سبق أن ذكرنا أن النمسا ضمت البوسنا والهرسك وأن الصرب كانوا رافضين لذلك ، ولما أعلن نبأ زيارة ولي عهد النمسا الأمير فرانز فيروند إلى البوسنة اعتزمت جمعية اليد السوداء الصربية القضاء عليه ، فزودت ثلاثة من شبان البوسنة بالمسدسات والقنابل .

وفي صبيحة ٢٨ يونيو ١٩١٤م وصل الأمير فرانز وعقيلته وحاشيته سراجيفو ، ولم يتخذ المسؤولون التدابير الأمنية اللازمة ، وبينما كانت عربة الأمير تسير نحو قاعة الضيافة ، إذ بأحد الشبان المتآمرين يقذف بقنبلة ، ولكنها أخطأت الهدف – وعند رجوع الموكب من القاعة ، أطلق الطالب غفريلو برنسيب النار على الأمير وزوجته فسقطا مضرجين بدمائهما وماتا في الحال.

أثار هذا الحادث موجة من الأسى والسخط في النمسا التي عزمت على سحق الصرب تساندها في ذلك المانيا وظنا أن الصراع سيكون محلياً ومقصوراً على النمسا والصرب – لأن روسيا في اعتقادهما – ليست مستعدة للحرب وسوف تتقاعس كما فعلت في الماضي القريب ، ولكنهما أخطئا التقدير .

ولما ضمنت النمسا مؤازرة المانيا إلى جانبها أرسلت إنذاراً إلى الصرب تضمن الآتي :

١. إيقاف الدعاية ضد النمسا في الصحف وجميع وسائل الإعلام ودور العلم.
٢. أن يحضر موظفون نمساويون عمليات القمع لكل المناوئين لها في الصرب .
٣. أن يشترك بعض رجالات القانون النمساويين في محاكمة الجناة .

وقد حددت النمسا مدة ٤٨ ساعة لقبول الإنذار فوافق الصرب على كل الشروط عدا اشتراك قضاة نمساويين – وقد رأى امبراطور المانيا وليم الثاني أن موقف الصرب سليم ، ولكن وزراء امبراطورية النمسا والمجر كانوا مصممين على سحق الصرب . وأقدموا على فعلتهم الذميمة بإعلان الحرب على الصرب يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤م وبعد يومين زحفت جيوشهم نحو بلغراد – أما روسيا فقد أعلنت من جانبها التعبئة وبذل سير ادوارد جراي مجهودات جبارة لكيلا تعلن روسيا التعبئة العامة ، لأن المانيا بالتأكيد ستفعل بالمثل . كان الالمان حريصين على حصر الحرب في نطاق ضيق ولكن روسيا أعلنت التعبئة تأييداً للصرب ، فتحركت المانيا وأرسلت إنذاراً إلى روسيا وأمرتها بإيقاف

تعبئتها في مدى اثنتي عشرة ساعة وإلا فالويل لها . غير أن الحكومة الروسية لم تعبأ بالرد على إنذار المانيا ، بل إن قواتها زحفت نحو (روسيا الشرقية) قبل انتهاء مدة الإنذار ، وسرعان ما أعلنت المانيا الحرب على روسيا في أول أغسطس ١٩١٤م – وفي اليوم السابق أرسلت المانيا إلى فرنسا مستفسرة عما إذا كانت ستقف على الحياد في حالة قيام الحرب بين روسيا والمانيا – وكان رد الفرنسيين أنهم سيعملون بما يتماشى مع مصالحهم ، ولذا أعلنت المانيا الحرب على فرنسا يوم ٣٠ أغسطس – ولم يبق من الدول الاوربية الكبرى إلا ايطاليا وبريطانيا .

أما بريطانيا فقد جرها للحرب الغزو الالماني لبلجيكا – وقد غزت المانيا بلجيكا لرفض بلجيكا السماح بمرور جيوش المانيا لتنفذ إلى أعدائها الفرنسيين – وقبل الغزو كانت بريطانيا مترددة في دخول الحرب ، ولكن بعد غزو المانيا لبلجيكا في فجر اليوم السابع من أغسطس أصبح تدخل الانجليز ضرورة استراتيجية ، لأن المانيا إذا احتلت بلجيكا ستتعرض بريطانيا إلى خطر محقق . أرسلت بريطانيا إلى المانيا تذكرها بأن الدول الكبرى قد اتفقت على احترام حياد بلجيكا – ولكن المانيا لم ترد ، فأعلنت حكومة لندن أنها في حالة حرب مع المانيا ابتداءً من منتصف ليلة ١٤ أغسطس ١٩١٤م .

وهكذا أدت أزمة سراجيفو المشؤومة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى.

(٤-١-٣) أسباب انتصار الحلفاء :

كانت دول الوسط في بداية الحرب منتصرة لأنها كانت مستعدة للحرب، فلا غرو أن حققت انتصارات في البداية ، بَيْدَ أن الأحوال تبدلت رويداً رويداً ، وانتهت بهزيمة دول الوسط . ويمكن إيجاز أسباب انتصار الحلفاء في الآتي :

(١) فشل خطة الالمان :

كانت خطة الالمان هي الزحف السريع وتركيز أغلب الجهود على فرنسا حتى يتم دكها في مدى اسبوعين ويتم ذلك بإنفاذ القوات الالمانية عبر بلجيكا ، وبعد الفراغ من فرنسا ينتقل الجيش الالماني شرقاً للقضاء على الروس، ولكن مقاومة البلجيك عرقلت سير الالمان ومكنت وصول القوات البريطانية لنجدة الفرنسيين ، وفي ذلك الوقت تقدم الروس غرباً نحو الحدود

الشرقية لالمانيا وبالتالي خفَّ الضغط على الحلفاء في الجبهة الغربية . وهكذا فشلت خطة الالمان في القضاء السريع على فرنسا ، وتغير مجرى الحرب .

(٢) ضعف حلفاء المانيا :

لم تستطع النمسا صد الجيش الروسي في الجبهة الشرقية ، فاضطرت المانيا لإرسال بعض جيوشها إلى هناك ، كما فشلت النمسا في مواجهة الجيش الإيطالي ، وجيوش البلقان التابعة للحلفاء . أما تركيا فقد فشلت في إثارة المسلمين ضد البريطانيين والفرنسيين والروس ، أمّا الأتراك فقد أخفقوا في إغلاق طريق قناة السويس ، الذي كان يمد الحلفاء بالمؤن من الشرق . ولم يكن لبلغاريا أهمية تذكر لضعفها . ولما توالت انتصارات الحلفاء عام ١٩١٧م طلبت بلغاريا ثم تركيا ، وبعدهما النمسا ، الصلح ، بعد أن نال منها الإعياء والتعب تاركين المانيا تحارب وحدها .

(٣) الحرب البحرية :

القوتان الرئيستان في هذا الميدان هما بريطانيا والمانيا ، وكانت خطة كل منهما فرض حصار على الأخرى ، وقد نجحت بريطانيا في محاصرة السواحل الالمانية ، مما قطع المانيا من العالم الخارجي ، وحرمها من وصول المواد الغذائية لها ، وجعل الالمان يقاسون من المجاعات . وبعد ذلك اعتمد الالمان على حرب الغواصات ، وكادوا يضربون حصاراً حول بريطانيا في نهاية عام ١٩١٦م ، ولكن عدم تبصرهم في إغراق السفن المحايدة جعل أمريكا تدخل الحرب في صف الحلفاء ، مما أدى لفشل الالمان في الحرب البحرية وتفوق الحلفاء .

(٤) دخول الولايات المتحدة الحرب :

رجح دخول الولايات المتحدة الحرب كفة الحلفاء ، بعد أن أمدتهم أمريكا بكميات كبيرة من المؤن والذخائر ، ومعدات الحرب المختلفة ، بالإضافة للأعداد الكبيرة من الجنود . كما أعان الأسطول الامريكي الأسطول البريطاني في القضاء على الغواصات الالمانية . ومن ناحية أخرى فإن دخول الولايات المتحدة عوَّض الحلفاء عن انسحـــاب روسيا بسبب قيام الثورة الروسية في مارس ١٩١٧م .

(٥) تفوق الحلفاء من الناحية المادية :

استطاع الحلفاء مد جيوشهم والمواطنين بالمؤن والغذاءات ، كما وقفت بلاد الدمنيون (كندا ، استراليا ، نيوزيلنده وجنوب أفريقيا) تقاتل مع الحلفاء ، أما المانيا فكانت حبيسة وبمعزل عن مستعمراتها . وفي الوقت الذي تزايدت فيه أعداد المحاربين إلى جانب الحلفاء ، كان جنود المانيا يتناقصون بمرور الأيام .

(٦) دور سلاح الطيران البريطاني :

كان لسلاح الطيران البريطاني دور كبير ، فقد استخدم في عملية الاستكشافات ثم في تعقب الجيوش وضربهـــا وتخريب طرق ووســـائل المواصلات ، وضرب المصانع الالمانية ودك الحصون والمدن .

(٧) الثورة في المانيا :

قاسى الشعب الالماني من الجوع والمرض ، فجأر بالشكوى ، وطالب بالصلح ، وانقلب على قادته ، وأصبحت المانيا على شفا حرب أهلية ، لأن القيصر لم يكن راغباً في التنازل عن عرشه . وفي يوم ٢٩ اكتوبر ١٩١٨م تمرد رجال البحرية ، وبعد ذلك عمت الثورة المانيا . وأخيراً خضع القيصر للأمر الواقع ، ثم هرب هو وولي العهد إلى هولندا . وفي الساعة الحادية عشرة من يوم ١١ نوفمبر تسلم ممثلو المانيا شروط الصلح وانتهت الحرب .

(٤-١-٤) نتائج الحرب العالمية الأولى :

(١) نتج عن الحرب العالمية الأولى كثير من القتل والتخريب والتدمير ، وخلفت ويلات ومآسي كثيرة ، وقد فقدت الدول المتحاربة حوالي ثمانية ملايين من شبابها في ميادين الحروب ، بينما مات سبعة عشر مليوناً بسبب الجوع والأمراض .

(٢) تمَّ تدمير كثير من المنشآت الاقتصادية .

(٣) فرض معاهدة فرساي القاسية على المانيا، وبموجب هذه المعاهدة تم الآتي:

أ. استردت فرنسا الالزاس واللورين من المانيا ، كما تخلت المانيا عن الجزء الشمالي من شلزويج للدنمارك ، وعن ممر لدولة بولندا الجديدة – كما تخلت المانيا أيضـــاً عن إقليم السودين لدولـــة تشيكو سلوفاكيا

" الدولة الجديدة " ، وعن ميناء جل لدولة لتوانيا – كما جعل ميناء داتزيج الالماني ميناءً حراً .

ب. فقدت المانيا جميع مستعمراتها .

ج. أجبرت المانيا على تسلم اسطولها وغواصاتها وطائراتها وذخائرها ومعظم سفنها التجارية للحلفاء، وحدد الجيش الالماني بمائة ألف جندي فقط . كما وضعت قيود شديدة على صنع الأسلحة والذخائر في المانيا.

د. فرض على المانيا غرامة حربية وتعويضات باهظة للغاية .

(٤) سقوط حكم الامبرطور وليم الثاني وأعلنت الجمهورية في المانيا .

(٥) سقوط الامبراطورية النمساوية وقامت على أنقاضها دول متعددة ، منها جمهورية النمسا ، تشيكو سلوفاكيا ، المجر .الخريطة رقم (٤-٣) توضح حدود الدول الأوربية بعد الحرب العالمية الأولى .

(٦) سقوط الحكم القيصري في روسيا حيث قامت الثورة في مارس ١٩١٧م وعزل القيصر . وقد كانت تلك الثورة بسبب قلة المواد الغذائية والهزائم المتتالية التي مني بها الجيش الروسي .

(٧) فقدان الدولة العثمانية لممتلكاتها في آسيا وأفريقيا ، فقد أعلنت بريطانيا انتهاء السيادة العثمانية على مصر منذ بداية الحرب – كما فرض الانتداب البريطاني والانتداب الفرنسي على العراق والشام .

(٨) فرض العديد من المعاهدات المجحفة على حلفاء المانيا ، وبموجب تلك المعاهدات اقتطعت مساحات واسعة من حلفاء المانيا (النمسا – المجر – بلغاريا – تركيا . . .) .

(٩) إنشاء عصبة الأمم : عندما تبدت الخسائر المروعة التي مني بها العالم ، أمن الساسة بضرورة إنشاء منظمة عالمية لإقرار السلام . وقد كان على رأس الدعاة لإنشاء العصبة ودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك .

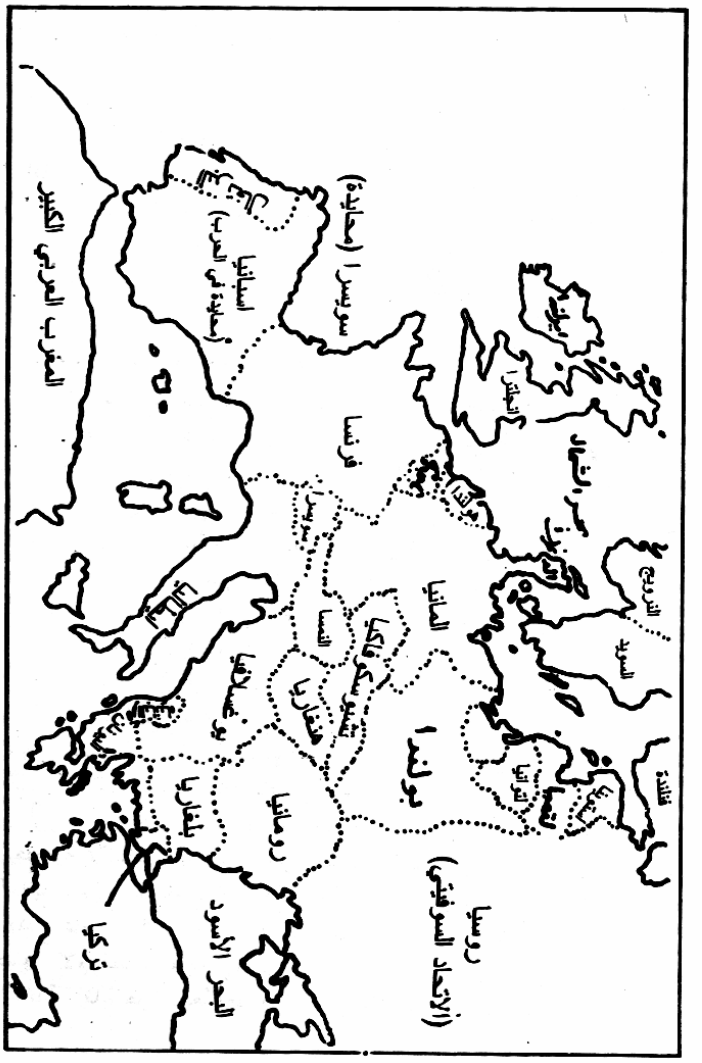

خريطة رقم ( ) : أوربا بعد الحرب العالمية الأولى

(٤-٢) الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م – ١٩٤٥م :

لم يتحقق السلم والاستقرار والرخاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وذلك بسبب ما خلقت الحرب من خراب ودمار وفقر وبؤس وبطالة بين العمال، وتدهور اقتصادى عام ، بالإضافة إلى ما ولدته معاهدات الصلح القاسية من سخط ونقمة وتطلع للانتقام وسط شعوب الدول التي خرجت مهزومة . ولكل ذلك بدأت الغيوم السوداء تتجمع في سماء أوربا خلال الفترة بين ١٩١٩م – ١٩٣٩م منذرة بحرب أشد هولاً وأكثر دماراً من سابقتها .

(٤-٢-١) أسباب الحرب العالمية الثانية :

إن من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية ما يلي :

(١) قسوة شروط المعاهدات التي فرضها الحلفاء على المانيا ، وغيرها من الدول التي خرجت مهزومة في الحرب العالمية الأولى ، خاصة شروط معاهدة فرساي ، التي فرضت على المانيا ، وبموجب تلك المعاهدة فقدت المانيا مناطق غنية بالمواد الخام ، كما فرضت عليها تعويضات كبيرة ، وحدد جيشها وحرمت من أسطولها . وكل هذا وغيره من الشروط الجائرة والتأديبية خلق تذمراً في شعوب الدول المهزومة التي شعرت بهدر كرامتها وذلها ، وبذلك بدأت تعمل من أجل الانتقام والثـــأر ، ورد كرامتها ؛ كما أن ايطاليا كانت تشعر أن حقوقها هضمت من جانب الحلفاء عند توزيع الغنائم .

(٢) افتقار التسويات التي فرضتها الدول المنتصرة على خريطة اوربا من المبادئ اساسية مثل : حق تقرير المصير ، والاستفتاء بالنسبة للأقليات في أوربا . ولكنهم أهملوا هذه المبادئ عندما قرروا الحدود الشرقية والجنوبية لالمانيا ، حيث حرموا خمسة ملايين من الالمان من الانضمام لالمانيا ، ووضعوهم تحت حكم دولتي بولندا وتشيكو سلوفاكيا ، اللتين أوجدتا عام ١٩١٩م ، كما فصلوا مناطق بروسيا الشرقية الالمانية عن وطنها الأم المانيا ، بما يسمى بالممر البولندي ، وجعلوا مدينة دانزيغ الالمانية ميناءً حراً تابعاً لعصبة الأمم المتحدة .

وهذه البنود الثلاثة ، أثارت العصبية القومية الالمانية ، لأنها فصلت أعداداً كبيرة من الالمان ، عن وطنهم الأم ، الذي تم تمزيقه . وقد استغل هتلر فيما بعد ، قضية هؤلاء الالمان لتحقيق مطامعه في التوسع في وسط اوربا . وقد كان اشتعال الحرب العالمية من هناك في أيلول ١٩٣٩م عندما اكتسحت جيوش المانيا النازية الأراضي البولندية على إثر رفض بولندا إعطاء المانيا طريق عبر الممر البولندي – وهو أصلاً أرض المانية .

(٣) ظهور حكومات دكتاتورية ، سادت في المانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وروسيا واليابان ، اتخذت الحرب وسيلة لتحقيق أهدافها القومية المتطرفة. وقامت بسلسلة من المغامرات الحربية ، متحدية القوانين الدولية آنذاك ، وميثاق عصبة الأمم . ومن أسباب قيام تلك الحكومات الدكتاتورية، عدم قناعة شعوب تلك الأقطار بالنظم الديمقراطية ، وترحيبها بأي نظام يعيد لها الأمن والاستقرار والرخاء والكرامة . وذلك من جراء انتشار الفقر والبطالة والفوضى في تلك الاقطار ، بعد الحرب العالمية الأولى .

(٤) ظهور معسكرين متنافسين : تكتلت بعض الحكومات مع بعضها ، مما أدى إلى ظهور معسكرين هما دول المحور (المانيا ، ايطاليا ، اليابان) والحلفاء (بريطانيا ، فرنسا ، بولندا ، رومانيا) .

(٥) ضعف عصبة الأمم ، وفشلها في تخفيف حدة التوتر ، وإزالة شبح الحرب. ومما أضعف العصبة انسحاب دول المحور منها. ويرجع فشل العصبة إلى عاملين :

أ . شلت منذ البداية لعدم اشتراك الولايات المتحدة الامريكية في عضويتها وسبب ذلك أن مجلس الشيوخ الامريكي رفض الاشتراك لكيلا يزج بامريكا في منازعات مع غيرها وأزمات هي في غنى عنها .

ب. عدم عدالة العصبة ، فقد رفض الاوربيون اقتراح اليابان الذي طلبت فيه المساواة التامة بين كل الأجناس – كما أن الدول الاوربية المهزومة لم تكن تثق في العصبة لأنها سمحت لفرنسا بأقوى جيش في اوربا بينما نزعت سلاح دول الوسط وحددت جيش المانيا .

(٦) ظهور الفاشية والنازية :

بما أن قيام الفاشية في ايطاليا ، والنازية في المانيا كان من العوامل التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ، فلا بد أن نذكر شيئاً عن هذين النظامين الدكتاتوريين .

الفاشية في ايطاليا : كلمة الفاشية مأخوذة من الكلمة اللاتينية فاسي (Facei) وتعني حزمة العصي ، وهي حزمة العصي التي كانت تحمل أمام الحكام في المناسبات الرسمية في روما القديمة رمزاً للاتحاد والقوة . وقد ارتبط ظهور الفاشية بشخصية بنتو موسوليني . وقد ولد موسوليني في يوليو ١٨٨٣م من أب قيْن (حداد) وأم معلمة ، وقد عمل معلماً في كتاب القرية ، ثم هرب إلى سويسرا لينفذ بجلده من الخدمة العسكرية وهو في التاسعة عشرة من عمره وعمل هناك في مجال المباني – وقد اتصف موسوليني بالذكاء والصبر على الاطلاع . وقد تميز بشخصية قوية وبحيوية دافقة وقدرة على التنظيم والقيادة . وفي سويسرا اصطدم موسوليني بالبوليس مرات عديدة وسجن وشرد . وفي عام ١٩٠٤م عاد إلى وطنه وعمل مرة أخرى في التدريس والصحافة .

وفيما بعد زج بلاده في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء لاعتقاده أن مصلحة وطنه تقتضي ذلك . وذهب موسوليني إلى أرض المعركة في ديسمبر ١٩١٦ وقاتل حتى أصيب بجرح عميق الزمه سرير المستشفى سبعة أشهر .

وبعد الحرب العالمية الأولى كان الايطاليون ناقمين على أوضاعهم، بسبب الفقر والبطالة ، بالإضافة للفوضى والاضطرابات . وقد أنحى المواطنون باللائمة على الحكومة ، ووجهوا لها النقد اللاذع ، كما أنهم لم يرضوا عنها لضآلة ما نالته ايطاليا من كسب في معاهدات الصلح. وهذه الأحوال مهدت السبيل لظهور جماعة ثائرة كوَّنت النواة للحزب الفاشي .

أ. الحزب الفاشي :

أسس موسوليني الحزب الفاشي بمدينة ميلانو في مارس ١٩١٩م من الجنود الذين سرحوا بعد الحرب، ومن بعض أفراد الطبقة الوسطى الذين أرادوا وضع حد للفوضى وعدم الاستقرار. وقد طالب موسوليني بأن يحكم ايطاليا

الجنود الذين عادوا من ميادين القتال . وفي عام ١٩٢١م كسب الفاشيون في الانتخابات ٣٥ مقعداً من عدد مقاعد البرلمان (عددها٣٦٥ مقعداً). والحزب الفاشي تنظيم دكتاتوري يناصب الشيوعية العداء ، ويطالب بإبعاد الحكومة الديمقراطية الضعيفة. وقد وجد الفاشيون التأييد من الجيش والعمال.

وفي عام ١٩٢٢م بلغ عدد أعضاء الحزب ثلاثمائة ألف عضو وطالب موسوليني بإعطائه السلطة ، وتحت الضغط استقال رئيس الوزراء، وطلب ملك ايطاليا من موسوليني تأليف حكومة جديدة ، وتفاءل الايطاليون بذلك لاعتقادهم بأن الحزب الفاشي سيقيم حكومة قوية تصلح ما أفسدته الحكومات السابقة .

وبعد تقلد الفاشيين للسلطة قضوا على كل معارضة ، وحرموا النقد في كل صوره لسياسة الحكومة ، وتم حل كل الأحزاب ما عدا الحزب الفاشي ، وأبقى على النظام الملكي . وقد تمركزت كل السلطات في يد موسوليني ، وبات موظفو الدولة مجموعة من البشر مهمتهم الأولى أن ينفذوا أوامر الدوس (لقب موسوليني) ، وواجب الجماهير أن تصدق وتطيع وتحارب حتى أصبحت كلمة " فاشية " رديفة للاستبداد بالرأي والسلطة .

ومما استرعى الأنظار أيام موسوليني ، استتباب الأمن والدقة المتناهية في الأداء وحسن التنظيم ، وهما من أبرز سمات النظام الفاشي ، والحق أن موسوليني أسهم بنصيب وافر في النهوض بالبلاد . وفي عهده مدت خطوط السكك الحديدية ، وعبدت الطرق ، وشقت القنوات ، وصنعت السفن ، وطورت صناعة العربات والطائرات ، وازدهرت التجارة الخارجية ، واتسع نطاقها . وأنشئت العديد من محطات الكهرباء المائية ، وضبطت دواوين الحكومة المركزية والمحلية والشرطة والجيش . وأنصف العمال .

ومن أعظم ما حققه موسوليني ، حل المشكلة مع البابا في عام ١٩٣٩م، فاعترف البابا بالحكومة الفاشية ، واعترفت الحكومة بدورها بمدينة الفاتيكان على أنها دولة ذات سيادة تحت حكم البابا .

وخلاصة القول فإن موسوليني حكم ايطاليا حكماً مطلقاً ، فألغى الأحزاب الأخرى وأوقف الصحف المعارضة للحزب ومنعها ، وضيَّق على الحريات العامة . وفي الوقت نفسه عمل موسوليني على رفع مستوى البلاد من النواحي الاقتصادية ، والتعليمية ، والاجتماعية واهتم بتحسين أوضاع العمال. وعمل موسوليني على تربية الشباب الايطالي تربية قومية متطرفة وتربية

عسكرية ، كما عمل على تقوية الجيش الايطالي من أجل تنفيذ سياسته في التوسع الاستعماري ، فثبت الحكم الايطالي في ليبيا . وفي عام ١٩٣٥م – ١٩٣٦م احتلت الجيوش الايطالية الحبشة ، التي كانت تحت حكم هيلاسلاسي آنذاك . وحالف موسوليني المانيا النازية فيما بعد ، لأنها أيدته في احتلال الحبشة ، بينما عارضته وسخطت عليه كل من فرنسا وبريطانيا . الأمر الذي أدى إلى زيادة شقة الخلاف بين موسوليني وبريطانيا وفرنســـا ، وقربه إلى المانيا . وكل هذا أدى إلى ازدياد حدة التوتر بين الدول ، وإلى نشوب الحرب العالمية الثانية .

وفي عام ١٩٣٦م ثار الجيش الأسباني بقيادة فرانكو ، واشتعلت الحرب الأسبانية الأهلية بين عامي ١٩٣٦ – ١٩٣٩م ، ووجد فرانكو مساعدة من موسليني ، الذي كان يطمع في مساعدته له في إضعاف بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط . وقد وجد فرانكو دعماً من المانيا بقيادة هتلر . والخريطة رقم (٤–٤) توضح تدخل الدول في الحرب الأسبانية الأهلية والوضع الدولي بشكل عام في ١٩٣٢ – ١٩٣٩م .

وتعتبر محاربة الشيوعية ، نقطة التقاء بين موسوليني وهتلر ، فتطورت العلاقات الودية بينهما وتبادلا الزيارات . وساند موسوليني مطالب المانيا ، بعودة مستعمراتها السابقة التي انتزعت منها بعد الحرب العالمية الأولى .

وبقيام محور روما – برلين (١٩٣٦م) ، أصبحت فرنسا في هلع وقلق شديدين لخوفها من التعرض لهجوم من الجهتين . وقد تحول هذا المحور إلى حلف عسكري في عام (١٩٣٩م) ، وهذا المحور تقابله الصداقة البريطانية الفرنسية الروسية ، التي تسندها عصبة الأمم المتحدة ، رغم ضعفها . وبعد قيام محور روما – برلين (١٩٣٦م) بشهر ، تم توقيع ميثاق بين المانيا واليابان ضد الشيوعية ، وفي العام التالي انضمت اليابان إلى محور روما – برلين ، وأصبح بذلك محور : روما – برلين – طوكيو .

ب. المانيا النازية :

قامت الجمهورية الالمانية في نوفمبر ١٩١٩م، بعد الهزيمة النكراء التي منيت بها المانيا في الحرب العالمية الأولى ، وكان تشكيل الحكومة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، والحزب الديمقراطي المسيحـــي ، (حكومة ائتلافية) ،

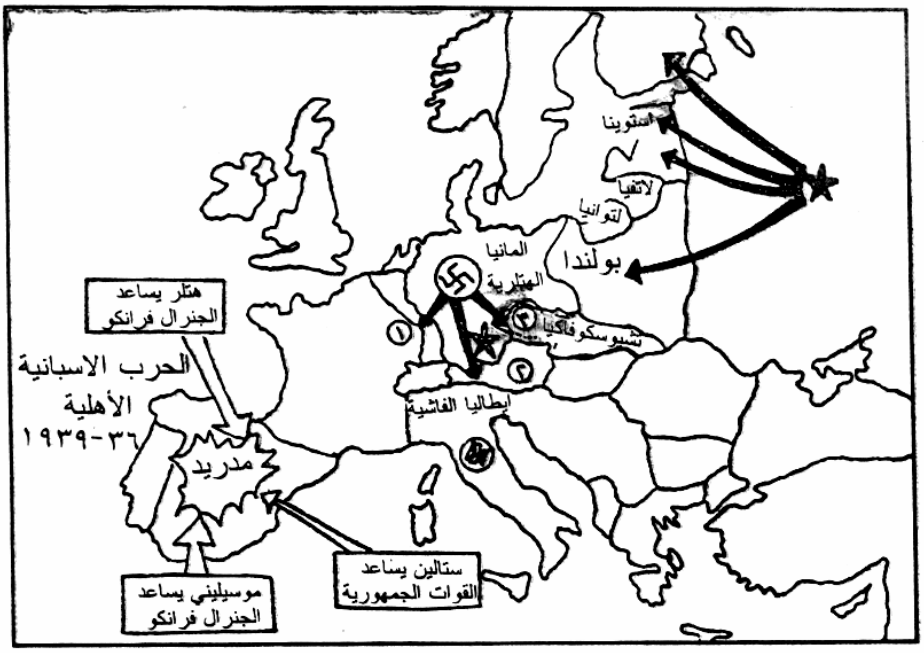

خريطة رقم (٤-٤) : تدخل الدول في الحرب الأسبانية الأهلية والوضع الدولي في ١٩٣٢ – ١٩٣٩م

وتم الاتفاق على أن يظل رئيس الجمهورية في منصبه مدة سبع سنوات . وأول من تقلد المنصب فردريك ايبرت – وقد كانت السنوات الأولى للجمهورية عصيبة للغاية بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية لالمانيا بموجب معاهدة فرساي التي أفقدتها مناطق غنية بالمواد الخام ، وفرضت عليها تعويضات مالية كبيرة ، كما فرض عليها تسليم أسطولها التجاري . وقاست المانيا من الإهانة والضائقة التي لحقت بها من احتلال القوات الفرنسية ، والبلجيكية وادي الرور في عام ١٩٢٣م .

وفي مطلع عام ١٩٢٩م تحسنت أحوال المانيا الاقتصادية بسبب سياسة ومجهودات جوستاف سترسمن ، مستشار المانيا آنذاك . كذلك تحسنت علاقة المانيا مع الدول الأخرى ، خاصة مع فرنسا ، وكسبت عضوية عصبة الأمم . ولكن بعد فترة وجيزة تبدلت الأحوال وأصاب البلاد تدهور لأسباب منها :

- موت سترسمن في اكتوبر ١٩٢٩م .
- الآثار السالبة للأزمة الاقتصادية العالمية .
- سحب الرأسماليين الأجانب والوطنيين لأموالهم مما أدى إلى إغلاق المصانع ، وبالتالي كثر العاطلون عن العمل ، وقلت الأجور .

وبسبب تلك الأوضاع ، ازداد سخط المواطنين على الجمهورية ، التي ارتبطت في أذهانهم بالهزيمة ، وقبول معاهدة فرساي المهينة . وانضم العمال إلى قائمة الساخطين ، والتحق الكثيرون بعضوية الحزب النازي ، وانتهى النظام الجمهوري عندما تم تعيين هتلر مستشاراً على المانيا في يناير ١٩٣٣م . وبهذا بدأ عهد جديد في تاريخ المانيا الحديث .

ادولف هتلر :

ذكر هتلر في كتابه " كفاحي " بأنه ولد عام ١٨٩٠م ، ووالده موظف جمارك ، اتصف بشخصية متقلبة الأهواء وكان الرسم هواية محببة إليه ، ومن ميزاته : الثبات ، وقوة الاحتمال ، والتصميم لتحقيق الهدف. وكان هدفه أنْ يجعل من المانيا بلداً قوياً تحت سيطرته . وقد تطوع هتلر في الجيش الالماني عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، ووصل رتبة عريف. وفي عام ١٩١٩م، التحق بعضوية حزب العمال ، ولم يلبث أن صار رئيساً له ، فغير اسمه إلى " الحزب النازي ". والكلمة اختصار لاسم الحزب الجديد (حزب العمال الالماني

الاشتراكي الوطني) . وكان هتلر موهوباً في فن الخطابة ، ولذا عرف كيف يثير الجماهير ويتلاعب بعواطفها .

كانت الحكومة متهاونة إزاء هذا الحزب النازي ، رغم أنه كان يشيع الرهبة والفزع في قلوب معارضيه . وعندما اشترك هتلر وحزبه في مظاهرة في مدينة ميونخ في عام ١٩٢٣م قبض على هتلر ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ، وحُل حزبه . غير أن هتلر لم يبق في السجن سوى عام واحد .

وفي أيام السجن ألف كتابه " كفاحي " وضمنه آراءه عن نظم الحكم والأمة الالمانية ، والشعوب الأخرى . وفيه دعا لسمو الأمة الالمانية على بقية البشر ، كما دعا لاستعادة مجد الأمة الالمانية الضائع . وخلاصة مبادئ الحزب النازي أربعة هي :

١) الغاء معاهدة فرساي. ٢) تعديل النظام الجمهوري .
٣) القضاء على اليهود. ٤) التحرر من المبادئ الشيوعية .

انتشرت مبادئ الحزب النازي تدريجياً وبدأ أعوانه يدخلون الريخستانج " البرلمان " ، وازداد أتباعه حتى شمل أعداداً كبيرة من العمـــال والطبقة الوسطى ، إلا أن تدهور الأحوال في المانيا منذ عام ١٩٢٩م ، نتيجة للأزمة الاقتصادية ، أدى إلى تغير سريع ومتكرر في الحكومات. وفي انتخابات عام ١٩٣٣م ، تمكن النازيون من الحصول على أغلبية كبيرة ، لذلك استدعى الرئيس هنزبيرج هتلر ليؤلف الحكومة باعتباره رئيس حزب الأغلبية في الريخستانج . و في يناير ١٩٣٤م وجد هتلر الفرصة الكاملة للسيطرة على المانيا ، حيث أصبح مستشاراً لها . ولكي يطمئن على هذه السيطرة اتخذ الإجراءات الآتية :

أ) أسس جهاز البوليس السري (الجستابو) لكي يقبض على كل أعداء النظام.

ب) عين على كل أجهزة الدولة مراقبين من النازيين أشرفوا على الصحف والإذاعة والسينما .

ج) بدأ يوجه ويلفق اتهاماته لليهود والشيوعيين الذين كانوا يعارضون نظامه الجديد ، ونتج عن ذلك سلسلة اجراءات قاسية ضد خصومه ، إذ زج ببعضهم في السجون ، وحرم الآخرين من دخول الجامعات ، ومن

حق التصويت . وعندما دبرت مؤامرة لاغتياله في يونيو ١٩٣٤م ، اتهم اليهود والشيوعيين بذلك ، فأعدم أعداداً كبيرة منهم . وقد تميز ذلك العام في تاريخ المانيا بأنه عام إرساء الحكم الدكتاتوري النازي . وعندما مات رئيس المانيا في نفس العام ، تسلم هتلر رئاسة الجمهورية ، كما احتفظ بمنصب المستشار . وأصبحت كل السلطات في يد هتلر وحزبه ، فأبعد كل من شك في ولائه ، وأحكم الرقابة على الصحف والمطابع والإذاعة ، وأعطى اهتماماً خاصاً بتربية الشباب ، وعمل على إشباعهم بروح النازية ، وأكثر من الاستعراضات العسكرية ، والمهرجانات ، وأجبر الشباب على أداء تحية خاصة له .

وقد أورد هتلر في كتابه (كفاحي) : " إن اليهود كانوا إلى جانب كبير من قذارة الأبدان والنفوس ، وأن كل الأفعال الذميمة المنافية للأخلاق ، وكل الجرائم التي ترتكب في حق المجتمع من عمل اليهود ." وقد كان اليهود في نظر هتلر اخطبوط امتد إلى الصحف وميادين الفنون والآداب والتمثيل . ويرى هتلر أن الغالبية العظمى من المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التي تروج للإباحية المطلقة ، وللماركسية ، هي من صنع اليهود ، كما يعتبر هتلر أن الماركسية صنيعة يهودية . ومما أثار هتلر على اليهود والشيوعيين ، أنهم على حد تعبيره ، انبروا للحط من شأن تراث المانيا الفكري ، والاستخفاف بكل مقدسات الأمة الالمانية . ولكل ما سبق أصدر هتلر قوانين نورمبرج في سبتمبر ١٩٣٥م ، وبمقتضاها طرد اليهود من الخدمة المدنية ، والجيش ، والأعمال الحرة ، وحرم عليهم الاشتراك في المحافل العامة ، ونفي الكثيرين من أرباب الثروات الضخمة. ومن الثابت أن النازيين لم يطبقوا سياسة التفرقة العنصرية ضد اليهود فقط ، بل تحيزوا ضد كل العناصر غير الآريَّة ، وحرموهم من الاشتراك في التصويت ، ومن الالتحاق بالخدمة المدنية والأعمال الحرة . لقد كان هتلر عنصرياً يروج لفكر سمو الألمان على كل البشر .

(٤-٢-٢) السياسة الاقتصادية :

اهتمت الحكومة بالنواحي الاقتصادية ، واحتضن الرأسماليون الدعوة النازية وأغدقوا الأموال على الحزب النازي ، وقد حرصت الحكومة على

تحقيق الاكتفاء الذاتي – خاصة في مجال الغذاء – خوفاً من حصار الحلفاء لهم. ومما شغل ذهن هتلر مشكلة البطالة ، فلذلك عمل على توفير مجالات العمـــل مثل : مد الطرق ، وإصلاح الموانئ ، وتقديم سلفيات لصيانة المباني ، وتحسين المزارع .

ورغم التحسن الذي طرأ على الموقف الاقتصادي ، إلا أن أحوال العمال تدهورت لانخفاض أجورهم وارتفاع الأسعار .

وفي مجال الصناعة ، ركز هتلر على الصناعات الثقيلة في أيد قليلة وفرض قيوداً على الأرباح ، ولذلك أصابت بعض الرأسماليين خيبة أمل وندموا على مساعدتهم للنازيين قبل تسلمهم الحكم .

اهتم النازيون بالزراعة ، ولكن كان انتاج الزراعة ضئيلاً فاضطروا لنظام التموين قبل اندلاع الحرب .

أما في مجال التجارة ، فقد كانت المنتجات الداخلية أغلى من المستوردة. وقد تأثر الاقتصاد الألماني بمشاريع التسلح الضخمة وزيادة الأسطول مما أدى لزيادة ديون المانيا بعد أن أصبح كل جهدها موجهاً للحرب المقبلة .

(٤-٢-٣) الاستعداد للحرب والتسلح :

شرع النازيون في تهيئة النفوس للحرب ، بنشر علم الجهاد في المدارس والجامعات ، وبالإشادة بأمجاد الأمة الالمانية ، وانتصاراتها عبر القرون ، وتعميق ذلك في وجدان النشئ ؛ كما اهتمت الحكومة بضروب الرياضـــة المختلفة ، والتدريبات العسكرية والبدنية التي من شأنها أن تقوي الأجسام . وقد حاول هتلر جاهداً أن يخفي نواياه ، ويؤكد أن مخططاته سليمة .

واستطاع النازيون أن يجعلوا المانيا أقوى دولة مسلحة في العالم ، وأرقى دولة صناعية في أوربـــا . وسرعـــان ما تضاعف عدد الجيش ، إذ أصبح ثلاثة ملايين ، بالإضافة للتجنيد الإجباري ، الذي شمل الرجـــال من سن ١٨ إلى ٤٥ سنة .

ولكن ، وعلى الرغم من هذه الاستعدادات العسكرية الخطيرة ، والظاهرة ، لم تحرك الدول الأوربية ساكناً . وقد أبطر سكوت الدول الاوربية هتلر ، وأغراه بمزيد من التسلح حتى فاقت قوة المانيا البحرية كل الاساطيل

الاوربية مجتمعة . واستمر النازيون في صناعة الأسلحة بسرعة جنونية ، وكان شعارهم " السلاح قبل الطعام " .

أهداف هتلر الخارجية ونشوب الحرب العالمية الثانية :

تميزت سياسته الخارجية بظاهرتين ، هما :

(أ) رفض المساعي في الوصول إلى حلول للمشاكل المعلقة بينه وبين الدول الاوربية .

(ب) الاعتماد على القوة وحدها .

وقد حالف التوفيق هتلر في البداية للأسباب الآتية :

١. انقسام الدول التي هزمت المانيا في الحرب العالمية الأولى ، كما لم تعد بريطانيا وفرنسا متضامنتين كما كانتا من قبل .
٢. اعتزال الولايات المتحدة شؤون اوربا السياسية ، وانهيار عصبة الأمم .
٣. انهيار امبراطورية النمسا في أواسط وشرق اوربا ، وظهور دول جديدة وضعيفة .

وهكذا أصبحت المانيا حرة كما تريد ، لا تدين بالولاء لأحد ، ولا يشل نموها العسكري التزامات أو مواثيق .

أما أهدافه السياسية الخارجية فقد كانت :

١. توحيد جميع شعوب المانيا في دولة واحدة .
٢. سيطرة المانيا على اوربا الوسطى ، والطريق إلى الشرق الأوسط .
٣. إقامة دولة كبرى تكون بمثابة حاجز دون طغيان الشيوعية في اوربا .

ولتنفيذ تلك السياسة اتخذ هتلر عدة خطوات أهمها :

١. **الغاء اتفاقية فرساي :**

كانت المانيا تعاني من قيود اتفاقية فرساي ، وقد شعر النازيون أن الوقت حان لتحطيم القيود التي كبلهم بها الحلفاء ، فانسحبت المانيا من

عصبة الأمم سنة ١٩٣٤م ، وحررت نفسها من قيود ميثاقها ، ثم أعلن هتلر أنه لا يعترف بشروط فرساي العسكرية .

٢. تسليح المانيا :

طالبت المانيا بحقها المشروع في التسلح لتقف على قدم المساواة مع بقية الدول ، واعترضت فرنسا وبريطانيا على ذلك . غير أن هتلر أعلن في عام ١٩٣٥م التجنيد الإجباري وبناء جيشه دون قيود .

٣. إرجاع إقليم السار :

كانت إدارة إقليم السار قد أوكلت للعصبة ، ولكن هتلر نفذ في عام ١٩٣٥م استفتاءً في الإقليم ، وجاءت نتيجة الاستفتاء لصالح المانيا .

٤. احتلال منطقة الراين :

انتهزت المانيا في عام ١٩٣٦م فرصة الخلاف بين ايطاليا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، لاحتلال ايطاليا للحبشة ، (اثيوبيا) فأرسلت كتائب باختراق منطقة الراين ، وإعلان سيادتها عليها .

(٤-٢-٤) نشوب الحرب :

بدأ هتلر في تنفيذ سياسته الاستعمارية فاحتل النمسا في مارس ١٩٣٨م، وأعلن رسمياً اتحاد النمسا والمانيا ، ثم توجه نحو تشيكو سلوفاكيا وكان بها السوديت وهم المان تعدادهم ثلاثة ملايين ونصف كانوا قد أضيفوا لتبعية تشيكوسلوفاكيا ، في معاهدة فرساي. وصدرت تعليمات هتلر للسوديت ليطالبوا بالانضمام لوطنهم المانيا ، فتوترت العلاقات بين البلدين ، وظهرت بوادر أزمة تهدد بنشوب حرب. ورغم أن السوديت منحوا حق تقرير المصير إلا أن هتلر ظل مصراً على ضم تشيكو سلوفاكيا . وتطورت الأحداث بسرعة حتى أدت في مارس ١٩٣٩م ، إلى تدخل المانيا واحتلالها الكامل لتشيكو سلوفاكيا .

وتدهور الموقف أكثر ، حينما بدأت المانيا التحرش بجارتها بولندا . وبدأت الحملة بضم دانزج ، ثم شق الجيش الالمـــاني طريقه في ٣ سبتمبر ١٩٣٩م عبر بولندا ، لا ليستعيد دانزد فحسب ، بل ليتوسع على حساب غيره . وعندها بادرت بريطانيا وفرنسا بإنذار هتلر ليسحب قواته من بولندا وإلا فإنهما ستعلنان الحرب عليه . لم يأبه هتلر بإنذارهما . فأعلنتا في سبتمبر ١٩٣٩م

الحرب على المانيا . وهكذا نشبت الحرب العالمية الثانية ، التي تعتبر أفظع حرب شاملة عرفها العالم حتى اليوم .

المرحلة الأولى من الحرب :

سيطر الالمان بعد اسبوعين من هجومهم على بولندا ، على عصب الحياة فيها . وشجع ذلك روسيا لتحقيق آمالها في بولندا ووقعت في ٢٣ اغسطس اتفاقاً مع المانيا يقضي بتعاون الدولتين في كافة المجالات كما احتلت روسيا مناطق حيوية في فنلندا .

أما المانيا فقد غزت في ابريل ١٩٤٠م الدنمارك والنرويج. وفي مايو من نفس العام ، غزت الجيوش الالمانية هولندا وبلجيكا ولكسمبرج ، واحتلتها جميعاً.

بعد سقوط بلجيكا ، أصبح الخطر النازي على فرنسا حقيقياً ، إذ كانت فرنسا تعتمد في أمنها قبل سقوط بلجيكا على تحصيناتها القوية في خط "ماجينو"، ولكن هذا الخط الدفاعي ، لم يكن ممتداً على طول الحدود الفرنسية البلجيكية .

وفي ١٩ يونيو ١٩٤٠م عين الجنرال (فيجان) قائداً أعلى لجيوش الحلفاء ، فأقام خطاً دفاعياً لفرنسا عرف بخط (فيجان) الدفاعي ، ولكن الالمان اخترقوا هذا الخط خلال أربعة أيام ، وزحفوا نحو باريس واحتلوها في ١٩ مارس ١٩٤٠م ، فاضطرت فرنسا لتوقيع هدنة مع المانيا في يونيو ١٩٤٠م .

قضت شروط الهدنة بأن تصبح فرنسا دولة محتلة ، تخضع لإدارة المانيا ، ما عدا الإدارة المحلية . كما فرض عليها تحمل نفقات الجيش الالماني المحتل ، ونزع سلاح اسطولها وإطلاق سراح جميع أسرى الحرب الالمان .

أما ايطاليا حليفة المانيا ، فقد استغلت هزيمة فرنسا وأملت عليها شروطاً مهينة ، منها تحويل مناطق في جنوب فرنسا ، وتونس ، والجزائر ، والصومال الفرنسي ، إلى مناطق عسكرية يكون لايطاليا السيادة عليها ، كما أجبرت فرنسا على تسليم كل أسلحتها لايطاليا .

كذلك تشجعت ايطاليا وغزت بلاد اليونان والبانيا في اكتوبر ١٩٤٠م ، فردها اليونانيون . ولولا تدخل الجيش الالماني لتم تدمير جيشها .

أما بريطانيا فقد تعرضت للاعتداءات الالمانية جواً وبحراً ، وقد خطط الالمان في البداية لشل حركتها التجارية ، فبثوا الألغام البحرية في مداخل

الموانئ البريطانية ، كما تعرضت المدن والسواحل البريطانية ، لسلسلة غارات جوية المانية ، كانت أكبرها معركة لندن الجوية ، التي انتصر فيها البريطانيون في سبتمبر ١٩٤٠م ، بعد أن أسقطوا ١٧٣٣ طائرة حربية المانية ، ولكنهم تكبدوا أعداداً كبيرة من القتلى من المدنيين . والخريطة رقم (٤-٥) توضح ميادين الحرب العالمية الثانية .

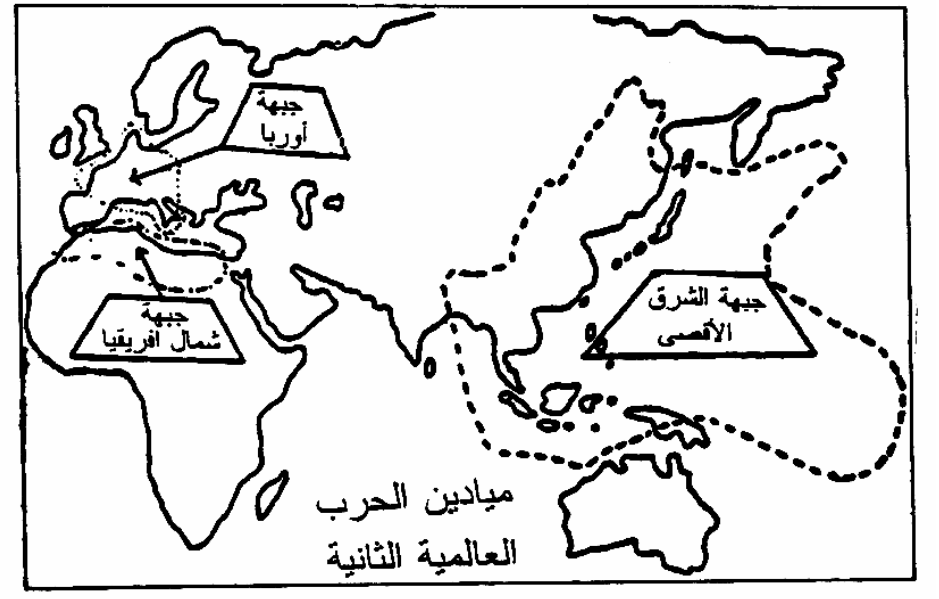

خريطة رقم (٤-٥) : ميادين الحرب العالمية الثانية

وفي أفريقيا تصدت القوات البريطانية للقوات الايطالية ، وصدت هجومها على مصر ، وأخرجتها من طبرق وبرقة في يناير ١٩٤١م . وحينما اتسع ميدان القتال في أفريقيا في يونيو ١٩٤٠م ، وأصبح الايطاليون يتوغلون في كينيا والسودان ، والصومال البريطاني ، ويهددون البحر الأحمر ، تصدى لهم البريطانيون وحطموا آمالهم في شرق أفريقيا بعد أن هزموهم في موقعة كرن . والخريطة رقم (٤-٦) توضح الحرب في شمال أفريقيا .

خريطة رقم (٤-٦) : الحرب في شمال أفريقيا

المرحلة الثانية من الحرب :

روسيا تدخل الحرب ضد المانيا :

ساءت العلاقات بينهما بسبب غزو المانيا ليوغسلافيا ، وتكدس الجيوش الالمانية على الحدود الروسية . وفي ٢٢ يونيو ١٩٤١م شنت المانيا بمساعدة فنلندا والمجر ورومانيا وايطاليا حرباً ضد روسيا ، ولكن الجيش الروسي نجح في نوفمبر ١٩٤٢م ، في تطويق الجيش الالماني من ثلاث جهات ، وقطع

خطوط امداداته . ولم تفلح محاولات الالمان في إنقاذ قواتهم التي كانت في ستالنجراد .

الولايات المتحدة تدخل الحرب :

كانت الولايات المتحدة في بداية الحرب ، تتظاهر بالحياد ، ولكنها اضطرت أخيراً لدخول الحرب في جانب بريطانيا وحليفاتها ، بسبب ابتلاع اليابان كل الهند الصينية . وبسبب الهجوم الجوي الياباني على القاعدة البحرية الامريكية (بيرل هاربر) في جزر هاواي ، ودمرت الاسطول الامريكي هناك ، وقضت بذلك على تفوق امريكا البحري في المحيط الهادي ، ثم أعلنت الحرب على امريكا وبريطانيا وقصفت الفلبين واستحوذت على الملايو .

المرحلة الأخيرة من الحرب :

في ديسمبر ١٩٤١م ، عقد مؤتمر بين رئيس الولايات المتحدة رورفلت ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل ، تقرر فيه أن تقوم الدولتان بتنسيق جهودهما الحربية ضد دول المحور وعين الجنرال ايزنهاور لقيادة العمليات الخاصة في شمال أفريقيا ، كما عين الجنرال الكسندر قائداً لمنطقة الشرق الأوسط ، ومونتجمري لقيادة عمليات الجيش الثامن .

وفي عام ١٩٤٢م ، بدأت قوات الحلفاء تحقق النصر تلو النصر على قوات دول المحور . فانتصر الجيش الثامن في العلمين على الجيش الالماني الذي كان يقوده روميل ، كما استولت قوات الحلفاء على الدار البيضاء ، والجزائر . وبدأت قوات دول المحور في الاستسلام ، وبلغ عدد الأسرى منهم في عام ١٩٤٣م ، ربع مليون جندي .

ونتيجة لانتصارات الحلفاء ، انهارت ايطاليا ، واستقال موسوليني في يوليو ١٩٤٣م ، وأودع السجن ثم أعدم . أما الحكومة الايطالية التي خلفته فقد سعت للصلح مع الحلفاء ، ووقعت صلحاً معهم أهم شروطه تسليم الايطاليين للحلفاء دون قيد أو شرط ، وتسليم أسطولهم وقواتهم الجوية ، والسماح للحلفاء باستخدام الأراضي الايطالية لأغراض الحرب ضد المانيا .

أما في جبهة روسيا وأوربا الشرقية ، فقد تحول الوضع لصالح الحلفاء بعد أن نجحوا في نقل مساعداتهم الحربية إلى روسيا منذ عام ١٩٤٢ .

وواصلت روسيا انتصاراتها على دول المحور واقتربت في عام ١٩٤٤م من حدود المانيا ، وأعلنت رومانيا وبلغاريا الحرب على المانيا ، كما هاجمت القوات اليوغسلافية بقيادة تيتو ، القوات الالمانية المنسحبة من البلقان . والخريطة رقم (٤-٧) توضح أسلوب الهجوم الذي قامت به الجيوش المتحالفة وطريقة مساعدتها لروسيا .

هزيمة المانيا :

وأخيراً بعد أن كانت المانيا تمتلك زمام المبادرة في الهجوم ، تحولت إلى طور الدفاع ، بعد أنْ ألقت الولايات المتحدة بثقلها في الحرب. وقصفت المنشآت الصناعية الالمانية ، وبعد أن استولت روسيا على آبار الزيوت في رومانيا وبولندا. نشط الفرنسيون في ضرب القوات الالمانية المحتلة لبلادهم وتمكن قائدهم ديجول من دخول باريس منتصراً في عام ١٩٤٤م .

وأخيراً انحصرت القوات الالمانية داخل المانيا ، وبدأت المدن الالمانية تسقط في يد الحلفاء . ولما تيقن هتلر من الهزيمة انتحر ، وبعده قامت برلين الحلفاء لمدة يومين . وفي ٧ مايو ١٩٤٥م استسلمت القوات الالمانية نهائياً ، ووقع الجنرال " جودل " رئيس أركان حرب الجيش الالماني وثيقة الاستسلام للحلفاء . والخريطة رقم (٤-٨) توضح كيفية الهجوم على المانيا من جميع الجهات عام ١٩٤٥م .

هزيمة اليابان :

لم تستسلم اليابان بعد هزيمة المانيا ، كما لم تستجب للإنذار الذي وجهته لها امريكا وبريطانيا في يونيو ١٩٤٥م بالاستسلام أو مواجهة الدمار الشامل . وإزاء ذلك قذفت امريكا اليابان " مدينة هيروشيما اليابانية " بأول قنبلة ذرية ، فتحولت أربعة أميال من المدينة إلى رماد ، ولما لم تستسلم اليابان القت أمريكا قنبلتها الذرية الثانية على نانجزاكي . وفي اغسطس ١٩٤٥م استسلم اليابانيون . وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية .

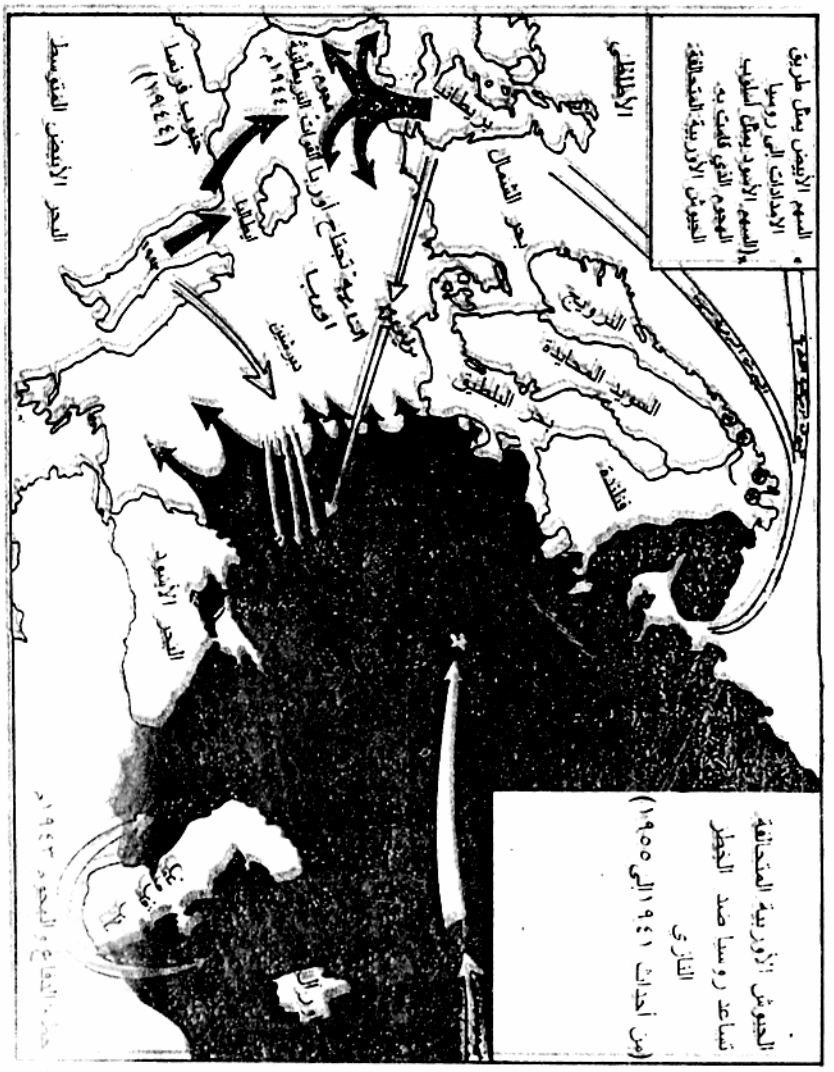

خريطة رقم (٤-٧) : أسلوب الهجوم الذي قامت به الجيوش المتحالفة وطريقة مساعدتها لروسيا

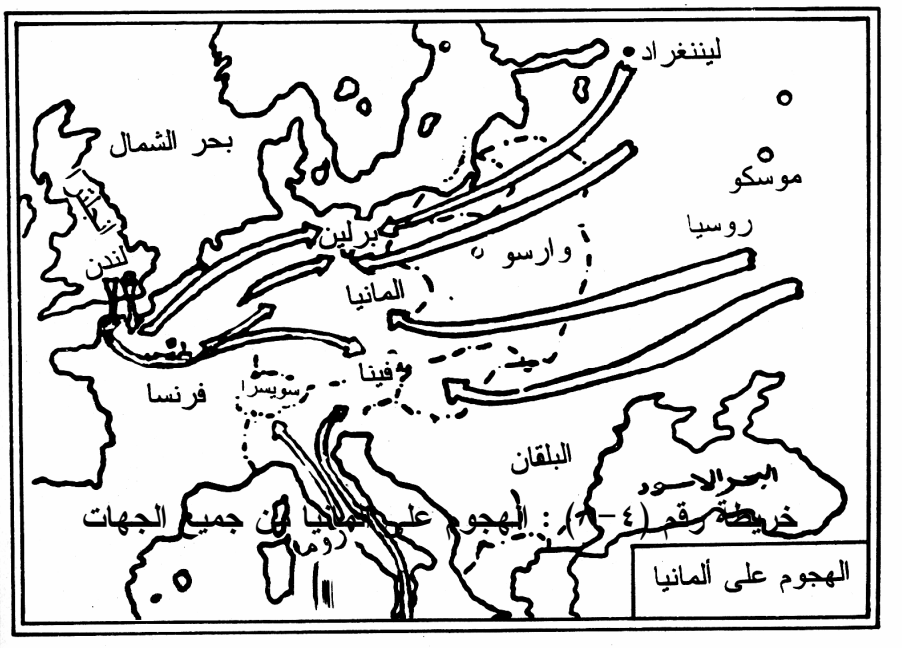

خريطة رقم (٤-٦) : الهجوم على المانيا من جميع الجهات

(٤-٢-٥) أسباب انتصار الحلفاء :

بالرغم من استعداد دول المحور خاصة المانيا ، للحرب ، وانتصاراتها الكاملة والسريعة في سنين الحرب الأولى ، إلا أن دول المحور انتهت إلى هزيمة ساحقة وكان وراء ذلك عدة أسباب نذكر فيما يلي أهمها :

(١) اضطرار المانيا إلى القتال في أكثر من جبهة .

(٢) غزو المانيا لروسيا الذي كبدها ملايين القتلى واستنفذ ذخائرها وأطال أمد الحرب ، مما أفسد على هتلر خطة غزو بريطانيا ، وأجبره على سحب قوات كبيرة من أقطار اوربا التي سبق له أن احتلها ، الأمر الذي مكن من نزول قوات الحلفاء في ايطاليا وجنوب فرنسا .

(٣) دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، ومدهم بمعين لا ينضب من الرجال، والعتاد الحربي، والأموال .

(٤) قيام حركات مقاومة للقوات الالمانية من قبل شعوب الدول الاوربية ، التي احتلتها المانيا مما اضطر الألمان لإبقاء قوات كبيرة في تلك الأقطار لحفظ الأمن .

(٥) دخول ايطاليا الحرب إلى جانب المانيا ، اضطر الأخيرة إلى تحويل أعداد كبيرة من قواتها لمساعدة الجيوش الايطالية في اليونان وشمال أفريقيا ، وحراسة حدود ايطاليا نفسها .

(٦) الحصار البحري الذي فرضته أساطيل الحلفاء على سواحل القارة الأوربية ، وما نتج عنه من مجاعة ونقص كبير في المواد الخام اللازمة للمصانع الحربية الالمانية .

(٤-٢-٦) نتائج الحرب العالمية الثانية :

(١) الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال والمنشآت الاقتصادية ، وذلك بسبب استخدام أسلحة جديدة فتاكة في تلك الحرب مثل الصواريخ بعيدة المدى التي اخترعها الالمان ، والطائرات النفاثة المقاتلة ، والقنابل الذرية التي استعملها الأمريكيون . وقد بلغ عدد الذين ماتوا في ميادين الحرب زهاء الأربعين مليوناً من الأنفس ، وبلغ عدد الجرحى والمشوهين ٣٤,٤ مليون نسمة ، وما صرف على الجنود قد بلغ ١,١٥٤

بليون دولار ، هذا بالإضافة للجوع ، والرعب ، وقلة الدواء ، والعناية الطبية .

(٢) هزيمة المانيا وانهيار النازية والفاشية ، اللتين كانتا أكبر عدو للشيوعية .

(٣) نزع سلاح المانيا نزعاً تاماً .

(٤) القضاء على النازية في كل المجالات ومحاكمة زعماء المانيا النازية وزعماء اليابان بتهمة إثارة الحرب. وتم إعدام و سجن أعداد كبيرة منهم.

(٥) فرض تعويضات عادلة نسبياً على المانيا .

(٦) تقسيم المانيا إلى أربع مناطق نفوذ بين روسيا ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا . وفي عام ١٩٤٩م ، أقيمت في المانيا جمهوريتان هما : المانيا الشرقية ، والمانيا الغربية .

(٧) حُرمَتْ ايطاليا من كل الفتوحات التي تمت في عهد موسوليني ، وأُلزمَتْ بالاعتراف بسيادة واستقلال البانيا والحبشة (اثيوبيا) .

(٨) فقدت اليابان جزيرة مخالين وفرموزا ، وجميع أملاكها في المحيط الهادي .

(٩) عودة النمسا دولة مستقلة حرة .

(١٠) ظهور معسكرين : المعسكر الشيوعي بزعامة روسيا ، وكوِّن حلف وارسو من الدول الشيوعية ، والمعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وإلى جانبها بريطانيا ، وفرنسا ، ودول غرب أوربا – وقد كونت الولايات المتحدة حلف شمال الأطلسي.

(١١) ظهور تكتلات في وقت لاحق ، في آسيا وأفريقيا ، وذلك بعد استقلال العديد من دول القارتين . ومن تلك التكتلات جامعة الدول العربية ، دول الحياد الإيجابي ، منظمة الوحدة الأفريقية . ولكنها تكتلات ضعيفة ، لافتقارها إلى عقيدة ونظام يربطان بين الدول المشتركة فيها .

(١٢) استغلال الصهيونية العالمية لموقف هتلر تجاه يهود المانيا ، وذلك لكسب عطف العالم لمساندتهم مادياً وأدبياً في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وقد أسفرت مجهوداتهم مع بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى في تحقيق حلمهم في إنشاء وطن قومي لهم ، وتمَّ لهم ما أرادوا بقيام دولة اسرائيل

عام ١٩٤٨م ، وأول دولة اعترفت باسرائيل كانت الولايات المتحدة الأمريكية والدولة الثانية روسيا .

(١٣) قيام هيئة الأمم المتحدة من أجل حفظ السلام ، ونبذ الحرب كوسيلة لحل النزاع .

أسئلة وتدريبات الباب الرابع

أ/ وضِّح معنى كل مصطلح من المصطلحات الآتية :
الاستعمار ، القومية ، الاستراتيجية ، الحياد ، عصبة الأمم ، الفاشية ، النازية ، الجستابو .

ب/ اكتب باختصار عن الموضوعات الآتية :
١. الأزمات التي سبقت الحرب العالمية الأولى .
٢. أسباب ونتائج الحرب العالمية الأولى .
٣. أسباب ونتائج الحرب العالمية الثانية .
٤. دور كل من اليابان ، الولايات المتحدة ، وروسيا في الحرب العالمية الثانية .
٥. أسباب انتصار الحلفاء في الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ج/ ارسم خريطة ثم وضح عليها دول الحلفاء والدول الأخرى بلونين مختلفين .

د/ ارسم خريطة موضحاً عليها الدول الجديدة التي ظهرت في أوربا بعد الحرب العالمية الأولى .

هـ/ هل تعتقد أنَّ تسمية هذه الحروب بالحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية تسمية صحيحة ؟ علل .

ح/ مواضيع للنقاش :
١. أثر الصراع الأوربي حول التوسع الجغرافي والتجاري على الدول الأوربية والدول الأخرى .
٢. شخصيتي هتلر وموسوليني .

٣. رغم الحروب الكثيرة الطاحنة التي دارت بين شعوب أوربا فقد توصلوا إلى السوق الأوربية المشتركة والبرلمان الأوربي والآن لهم عملة واحدة (اليورو) .

هل يمكن للدول الأفريقية والأمة الإسلامية الاستفادة من هذه النتيجة التي توصلت إليها الدول الأوربية .

٤. وحدة الأمة الإسلامية هي السبيل الوحيد لتحرير القدس وأرض فلسطين من اليهود .

جميع حقوق الطبع والتأليف ملك للمركز القومي للمناهج والبحث التربوي . ولا يحق لأي جهة، بأي وجه من الوجوه نقل جزء من هذا الكتاب أو إعادة طبعه أو التصرف في محتواه دون إذن كتابي من إدارة المركز القومي للمناهج والبحث التربوي.

رقم الإيداع: 2008|766